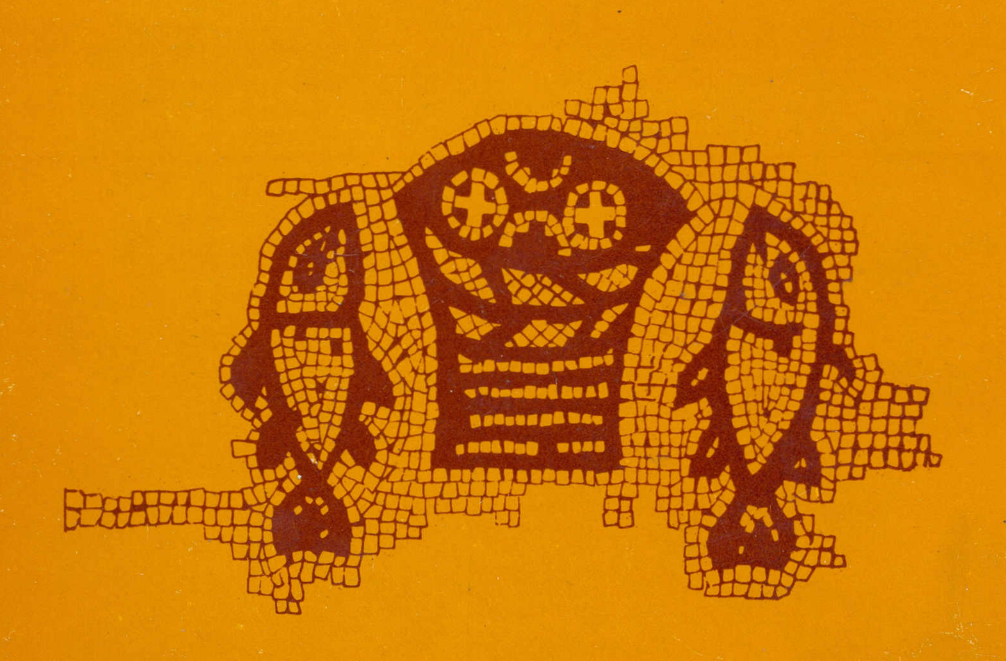
يوحنا الذهبي الفم

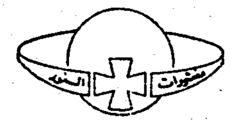
في الكهنوت

أحاديث عن الزواج و الرسائل إلى أولمبيا





آباء الكنيسة



يوحنا الذهبيّ الفم

في الكهنوت
أحاديث عن الزواج
الرسائل إلى أولمبيا

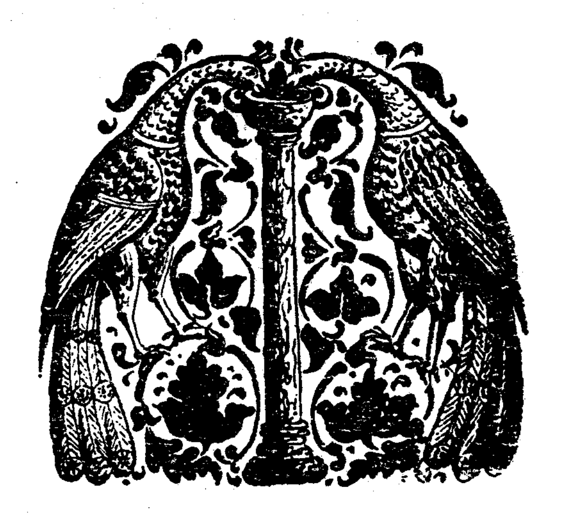
تعريب الأسقف استفانوس حدّاد

منشورات النور

سلسلة اباء الكنيسة

١ ـ الآباء الرسوليون	تعريب المثلث الرحمات البطريرك الياس الرابع
٢ ـ الحياة في المسيح	لنيقولاوس كاباسيلاس تعريب المثلث الرحمات البطريرك الياس الرابع
٣ ـ السلم الى الله	ليوحنا السلمي تعريب رهبنة مار جاورجيوس الحرف
٤ ـ في الكهنوت احاديث عن الزواج والرسائل الى اولمبيا	ليوحنا الذهبي الفم تعريب الاسقف استفانوس حداد

فهرس



حياة القديس يوحنا الذهبي الفم

و

مؤلفاته

حياة القديس يوحنا الذهبي الفم

شخصيته وشبهه ببولس الرسول

لم يكن عند القديس يوحنا الذهبي الفم، في حجرة عمله العارية وكأنها قلاية راهب، في القسطنطينية، سوى لوحة واحدة، هي أيقونة القديس بولس الرسول : كان التلميذ يعمل أمام نظر معلمه . وفي الواقع ما من أحد درس بولس أو شرحه كما درسه وشرحه هو، وما من أحد حاول جاهداً أن يشبهه كما حاول هو، وما من أحد ترسَّم خطاه في مناهجه كما فعل هو .

ولقد كانت هناك فعلاً بين الرجلين بعض المشابهة الأخلاقية والطبيعية زادها التقشف أثرا وترسيخاً . كانت للذهبي الفم نفس رسولية كنفس بولس، وكانت له نفس الغيرة على خلاص الأنفس، ونفس الحب للمسيح . وكانت له نفس الجرأة أمام أقوياء العالم، ونفس الحنو على الضعفاء ونفس القسوة على نفسه .

وحياة الرجلين كانت فيها خطوط مشتركة، فقد كان لكليهما نفس الاستعداد للرسالة، بصرف النظر عن دور فعل النعمة عند كل منهما: دروس جدية رصينة، الواحد في طرسوس والآخر في إنطاكية، سنوات طوال انقضت في العزلة والتوحد :بولس في الصحراء، ويوحنا أربع سنين أولا في الاعتزال الخاص ثم سنتين في الاعتزال المطلق . وهذه الحياة التأملية تبعتها عند كلا الرجلين حياة عملية ناشطة في استمرارية الوعظ والتعليم مما لا نجد له مثيلاً عند أحد من القديسين.

وقد كان حظ الذهبي الفم من الاضطهادات مثل نصيب بولس ، وخصوصا في السنين الأخيرة من حياته .وهو وإن لم يكن قد قطع رأسه، فلم يكن أقلّ من الاستشهاد، عيشةُ ثلاث سنين في أقسى المنافي، وانه بالفعل مات متأثراً بسوء المعاملة التي عومل بها.

وأخيراً فإنه يضاف إلى كل تلك المشابهات حتى المشابهة الطبيعية نفسها . كان كلا القديسين قصيري القامة « وفي هذا فقط ، يقول الذهبي الفم ، لم يكن للقديس بولس أي امتياز علي».

وفيما عدا ذلك كان قديسنا شديد الذكاء ، واسع الجبهة ، ذا عينين غائرتين ولكنهما جميلتان ناعمتان لطيفتان ، وذا عارضين جوّفهما النسك والتقشف باكراً ، وذا لحية خفيفة ، قصيرة ومشعثة . أما صحته فكانت تحمل آثار التقشف والاماتات المبكرة التي اضطرته إلى أن يهجر القفر والوحدة . ومن آثارها تحمّل معدة ضعيفة وأوجاعاً ملازمة في الرأس ، وضموراً هيكلياً ، وبشرة رقيقة ، طالما تكلم عنها ، وبقي يحمل آثارها حتى مماته .

هذه صورة عن القديس يوحنا الذهبي الفم في كمال نضجه : معدن ذكاء وفعاليات نارية فولاذية ولكنها في العمق كلها محبة ورصانة وحنو . نفس من تلك الأنفس التي يحسدها الخصوم ولكنها تجتذب الجماهير ، تصطنع لها الأعداء المستميتين في عداوتهم ، ولكنها تصل ما بينها وبين الآخرين الصلات التي لا يمكن قطعها ، وتصنع الاخلاص الذي يذهب حتى الموت .

ولادته ونشأته

وُلد قديسنا ما بين عامي ٣٤٤ و ٣٤٧ في إنطاكية إحدى أمهات المدن في الامبراطورية الرومانية مع رومية والقسطنطينية والاسكندرية . وقد نشأ وعاش في وسط أرفع المجتمعات . كان والده سوكوندس من قادة قوات الشرق . ووالدته انثوسه كانت تنتمي الى أهم أسر المدينة . فقدَ والده فور ولادته تقريباً ، وبقيت أمه أرملة عشرين سنة رافضة كل زواج متفرغة ومتخصصة كلياً بتربية ولدها .

قطع يوحنا كل مراحل الدراسة . وبعد علومه الأولى ، درس الخطابة. وكان من حسن حظه أن معلمه في الخطابة كان استاذ هذا الفن في عصره ، وهو الخطيب الوثني ليبانيوس. وقد قاده ، في بادىء الأمر استعداده الطبيعي للفصاحة والخطابة ، والنجاحات الأولية والمتقدمة الى المحاماة . ثم إن اشمئزازه من الأخلاق الوثنية التي كانت لا تزال تتحكم بالناس ، ونسيم الرغبة في التوحد الذي كان يهب على كل الشرق ، جعلاه يرفض العالم وينشد الكمال الأسمى .

حياة التقشف والرهبانية

وقد أراد أن يعتنق الحياة الرهبانية ، لكن أمه التي لم يكن لها تعزية غيره عن موت زوجها ، والتي كانت قد فرضت على نفسها الحياة القاسية من أجل تربية ابنها ، والتي ربما كانت تشعر بأن موتها قريب ، لم ترض ان تخسر تعزيتها الأخيرة بابنها ، ورجته أن لا يتركها قبل موتها . فبقي يوحنا الى جانبها ملتزماً في منزله بحياة الرهبان ، وموزعاً وجوده بين السماء ووالدته .

وفي هذه الأثناء كان ينقاد من الجهة الواحدة بنصائح القديس ملاتيوس أسقف إنطاكية الذي عيّنه قارئاً ، وأدخله في حقول الخدمات العامة من حياة الكنيسة. وكان يتابع من الجهة الثانية ، الدروس مع المعلم ديودور الذي أصبح فيما بعد أسقفاً على طرسوس ، والذي كان يعلّمه الشرح البسيط الطبيعي والتاريخي للأسفار المقدسة، وهو الأسلوب الذي لم يكن يتعداه فيما بعد بمواعظه وتعاليمه ومؤلفاته . وأخيرا كان يأتمّ بكرتيريُس وهو شخصية معروفة قليلاً ، وكان يدرب تركيبه النسكي .

وبعد انقضاء أجَل والدته انثوسه لم يكن شيء يمنعه من اعتناق حياة العزلة ، وهي نفسها الحياة التي مارسها مدة أربع سنين. ثم إن ما كان يُروى عندئذ ، من خارق وعجيب في حياة آباء العزلة ، جعله يدفع تجربة حياة الكمال دفعاً بعيداً ، وتوغل في الانفراد ليعيش حياة حبيس. ولكن بعد انتهاء سنتين زعزعت التقشفات القاسية صحته الى حد أنها أجبرته على ترك العزلة والعودة إلى انطاكية . وهناك احتفظ به الأسقف ملاتيوس ورسمه شماساً في عام ٣٨١ وكان قد مضى من عمره آنئذ ٣٤ أو ٣٥ سنة .

الذهبي الفم شماساً معلماً

وإذا كانت السنوات الخمس التي قضاها شماساً قبل أن يصبح كاهناً لم تُرنا إياه أيضاً واعظاً ولكن معلماً للتعليم المسيحي للموعوظين المستعدين للمعمودية ،فقد سمحت له على الأقل ان يكون كاتباً صنّف عدة مؤلفات ورسائل وجهها الى بعض الرهبان والى راهبات وعذارى والى ارامل والى بعض اهل العالم.

كاهنا واعظاً

وفي عام ٣٨٦ رسمه الأسقف فلافيانوس ، الذي خلف القديس ملاتيوس ، كاهنا وكلفه نهائياً الوعظ في إنطاكية . ومنذ ذلك الوقت، وفي مدة اثنتي عشرة سنة ، كاهنا في انطاكية، ثم في مدة ست سنين أسقفاً في القسطنطينية ، لم يفتأ يُسمع صوته عاليا على منبر الوعظ يتدفق بلاغة ساحرة من مَعين لا ينضب. وقد خلعت عليه هذه البلاغة لقبه «الذهبي الفم» وإذا شئت فقل أنها أحلّته المحل الأول بين خطباء المسيحية.

أما في إنطاكية فكان خطيبنا يعظ دوريا في الكنائس المختلفة وفي كل فصول السنة ، تقريباً باستمرار حسب أدوار السنة : في الأوقات العادية كل أحد على الأقل ، وكل سبت تقريباً ؛ وفي زمن الصوم الاربعيني كل يوم تقريباً.

وفيما عدا الوعظ العادي كانت هناك مناسبات خاصة تقود المعلم الواعظ الى التدخل والكلام بصورة استثنائية . ففي أيام الأزمة المشؤومة التي كانت تجتازها إنطاكية ضد تيودوسيوس العاتي ، حين كان وجود المدينة نفسها وحياة سكانها مهددة بقرار الرجل الغاضب والمتعطش للانتقام ، وفي الوقت الذي شخص فيه الأسقف فلافيان إلى القسطنطينية ليرتمي على قدمي الامبراطور من أجل إنقاذ مدينته وعاصمة أسقفيته ، وفي خلال أشهر المعاناة والضيق الشديد ،كان على يوحنا أن يحفظ على الشعب شجاعته ، وأن يهدىء المخاوف وأن ينتزع من الأحداث دروساً عظيمة وعبراً بليغة .

في الأوقات العادية كان يعلّم العقيدة ويشرح الكتاب المقدس ، ويُرسّخ قواعد الأخلاق . أما تعليمه المهيأ جيداً والمدروس مطولاً. فكان في أكثره غير مكتوب ، ولكن كان هناك كتّاب اختزال يلتقطون فوراً الكلمات الخارجة من فمه .

أسقف العاصمة

وفي أواخر عام ٣٩٧ توفي أسقف القسطنطينية نكتاريوس ، وبموته أصبح الكرسي القسطنطيني شاغراً . ولم يكن أمر توليه بغير منافسة ومتنافسين . وكان يرغب في هذا المركز تيوفيل الطمّاع أسقف الإسكندرية . وإذا لم يكن طمعه فيه لنفسه فلأحد صنائعه . وكان لتيوفيل نفوذ وتأثير في الشرق كله . وكان له في نيقوميدية وخلكيدون وأفسس وفيريا (حلب) أساقفة يشايعونه .غير أن الاكليروس والشعب في قاعدة الشرق اختاروا على العكس رجلاً ما كان يخطر له هذا المركز على بال ، حتى أنه رفضه . وكان يجب أن يؤخذ بالحيلة من إنطاكية ، ويؤتى به بالقوة إلى القسطنطينية . وهكذا صار يوحنا أسقف العاصمة المسيحية . ولكن تيوفيل لم يرض أن يسامحه به . كان له في كل مكان بعض الأصدقاء ،وبث عليه عيونهم في كل الجهات . وأخذ يتتبع من كان في نظره عدواً ، وعرف في مدى خمس أو ست سنين من ٣٩٨ ـ ٤٠٤ ان يستغل استغلالاً ماهراً كل الانزعاجات التي كان لا بد ان تبرز في وجه الأسقف الجديد الذي نهض بالإصلاحات اللازمة ، والالتزام الرسولي الصارم ، عند خصمه المزعوم .

يوحنا وخصومه

وبالفعل فما كاد يوحنا يستقر في القسطنطينية حتى أخذ يُدخل التغييرات والتعديلات المزعجة لبعض الفئات ويعمل بذلك على إثارتها ضده . فقد كان سلفه نكتاريوس متزعماً يعيش عيشاً فاخراً ، يستقبل العديد من الناس والطبقات على موائد فخمة ، يعيش مترفاً في قصر من أثمن المرمر والحرائر والرياش والمفروشات . فأزال يوحنا مظاهر الترف والبذخ وأعاد الى الأسقفية حياة التقشف التي كان يحياها من قبل : كان يأكل وحده وجبة طعام واحدة كل يوم نحو المساء من الأطعمة العادية ، ولا يشرب سوى الماء ممزوجاً في الصيف ببعض النقاط من النبيذ الطبي . هذا مع أنه كان يضيف بسخاء كل من يأتي اليه ، إلا أن حياته الانفرادية القاسية أثارت نفور الطبقة العالية التي كانت تتنافس وسابقه في حياة الترف .

ولم يكن هذا كل شيء. هناك بعض الاكليروس قد يكونون غير محتالين ، ولكن بالتأكيد ليسوا ذوي ضمير متحسس ، كانوا يستغلون لحسابهم أملاك أرملة كانت متحمسة للأعمال الخيرية وكانوا يسيئون استعمال كرمها وإحسانها . هؤلاء عدّوا يوحنا مخطئاً حين أراد أن يضع حداً لاستغلالهم ،وخلق لنفسه منهم أعداء لا يهادنون . وهناك رهبان كسالى متسولون كانوا يطوفون العاصمة فاجتهد في خلاصها من هؤلاء الفضوليين المشوشين . وهناك إصلاحات أخرى عديدة في صف الإكليروس وفي العذارى والراهبات والارامل المكرسات لله . وكل هذه الإصلاحات زادت عدد المنزعجين . وهكذا ،ومن بين الأرامل المذكورات،وجدت ثلاث من أشد خصوم الأسقف حقداًالتقين سويةً ، وهن مرسا وكاستريكيا وافغرافيا ،واتحدن مع الامبراطورة افذوكسيا حتى يعملن على إهلاكه .

إتسعت دائرة اعدائه وكانوا مستعدين.ولم يكونوا ينتظرون إلا الفرصة المناسبة ..والشيء المهم هو أنهم كانوا يريدون أن يجعلوا السلطة المدنية الى جانبهم لأنها كانت تلزمهم بالضرورة للتخلص من هذا الأسقف المزعج .

لم يكن الأمر سهلاً ،فإن الخصي افتروب الذي كانت له حظوة عند الملك أركاديوس ، والذي كان سيّد الموقف ، كان قد دعم هو نفسه اختيار يوحنا . وعرف تيوفيل ، كسياسي محنك ، انه من الحكمة أن ينتظر . فتماوت وتظاهر بالرضى عن الاختيار الجديد .

غير أن ذلك البلاط الذي كان دائماً مسرحاً للمؤامرات والانقلابات، لم تكن الأمور لتمضي فيه بالهدوء الدائم ، ولم تكن تثبت على حال واحد . وهكذا وبعد فترة وجيزة يدخل الذهبي الفم في نزاع مع افتروب في موضوع حق الايواء (أو حق اللجوء الى الكنيسة للمطارَدين سياسياً) الذي كان يريد أفتروب أن ينتزعه من الكنائس . ولم يتأخر بالفعل حتى انتزعه منها. ولكن لم تمض فترة وجيزة حتى حدث انقلاب على خصي الملك واذا بالحرس يشغبون عليه ثائرين طالبين رأسه، واذا بافتروب يتحوّل ملتجئاً الى الكنيسة لكي ينجو من الموت

ويطلب الحماية بالحق الذي نسخه. ويا لها فرصة ذهبية للذهبي الفم! كانت هذه الحادثة مناسبة لخطابين ألقاهما، يعتبران من أروع خطبه. أخذ اللاجيء في حمايته، إلا أن الجند اقتحموا مدخل الكنيسة. ولما لم يُسلّم افتروب الى سلطتهم، قبضوا على الأسقف أولاً، وإذ رفض أن يسلمهم ملتمس حمايته، جاؤوا به الى امام الامبراطور. وفي هذه الأثناء ترك انتروب ملجأه وقام الى قبرص، وبالنتيجة قُتل بعد قليل. ولكن منذئذ بدأت حرية التكلم وشدة اللهجة عند الذهبي الفم، تلقى الأستياء من الطبقات العليا وتثير أغنياء المدينة وأقوياءها.

وجازت السلطة من أيدي افتروب الى الامبراطورة افذوكسيا. ودخل يوحنا في نزاع معها،أولاً بشأن كرم هو كل ما تملكه أرملة اسمها تيوغنوست، أرادت الامبراطورة أن تنتزع ملكيته منها وتضمه الى القصر. فبلغها واضحاً من عظة للذهبي الفم اشارات الى كرم نابوت اليرزعيلي وجريمة اغتصابه من قبل ايزابيل، وقررت منذ ذلك اليوم اهلاك المنتقد الذي كان يتاومها ولكن كان عليها أن تجد ما تُلبس به السلطة التي تمثلها من الأشكال الشرعية، كما كان يعوز رجال الدين من اعداء يوحنا انتظار الفرصة المؤاتية من مساندة السلطة.

مجمع البلوطة: النفي الأول

وفي هذه الأثنـاء يظهر تيوفيل من جديد. يحضر الى القسطنطينية، فيستقبله يوحنا بكل ما يجب له من الاكرام. فاعتزل تيوفيل في المدينة وأخذ يتقبل الزيارات، ويحيك المؤامرات، ويُشتري الأنصار، ويستميل السلطة. وبعد وقت قليل نجح في أن يجمع مجمعاً مؤلفاً من ستة وثلاثين أسقفاً معظمهم مصريون وأساقفة حاقدون على متروبوليتهم في القسطنطينية. واجتمع هذا المجمع في قصر البلوطة فعُرف بمجمع البلوطة. واخترع هذا المجمع على يوحنا شكايات باطلة ودعاه الى المحاكمة. وكان عند يوحنا استعداد للقبول، ولكنه وضع شروطاً معينة. فتجاوز المجمع شروطه وأقر عزله. ولم يُبنَ فيه الحكم إلا على أن

المجمع دعاه اربع مرات فلم يحضر ليزكي نفسه. ولم يخضع يوحنا فوراً لحكم قضاة البلوطة، ولم يتجرأ عمال الامبراطور أن ينفذوا الحكم بالقوة، لأن الشعب كان عازماً على مقابلة القوة بالقوة. ثم رغب القديس، حباً بالسلام، وعدم إراقة الدماء، تسليم نفسه الى ايدي الجند دون علم الشعب وتوجه الى المنفى الأول.

العودة من المنفى

ولكن هذا المنفى لم يطل . فقد ثار ثائر الشعب وتعاظم من جهة ، ومن جهة ثانية ارجفت القسطنطينية في الليلة التالية هزة أرضية عنيفة . فندمت افذوكسيّا على فعلتها وبعثت تستدعي القديس من منفاه. فعاد به الجند وظهر يوحنا من جديد أمام القسطنطينية ، وكان ينتظره على البوسفور جماهير غفيرة متحمسة . وكان دخوله مظفراً ،وجاءت افذوكسيانفسها لاستقباله. وقال في خطابه : « تبارك الله الذي يحبط المكايد ويقضي برجوع الراعي . تبارك الله الذي يثير العواصف . تبارك الله الذي يحلّ جليد الشتاء ، ويقمع هيجان الرياح ليقوم مقامها الهدوء والصحو والسلام». والتفت الى كنيسة الحكمة الالهية ، الى كنيسته ، فتراءت له متوجة باكليل سماوي : « فهي العروس سارة العفيفة الطاهرة التي سعرّت طلعتها الجميلة نار الهوى في جوانح فرعون » . والاشارة هنا الى تيوفيل الاسكندري.

تمثال افذوكسيّا

وفي خريف ٤٠٣ أقام اركاديوس لزوجته افذوكسيا تمثالاً من الفضة الخالصة ونصبه بازاء الكاتدرائية بحيث أن الألعاب والرقص والغناء والتمثيل كان يصل الى الكنيسة ويشوش الخدمة الالهية . فحزن الذهبي الفم وتذمر فلم تعره الامبراطورة أي اهتمام . فأحتج يوحنا وغضبت افذوكسيا،فبادلها كلمات أقسى : «أيضاًهيروديا تضطرب وايضاً هيروديا تهيج ، وايضاً ترقص ، وتطلب رأس يوحنا على طبق » . فاستدعت « هيروديا » تيوفيل ، فأفتى بوجوب تبرير الذهبي الفم أمام مجمع كنسي . فتآمروا عليه وقرروا عزله للمرة الثانية ، وعند اقتراب فصح ٤٠٤ كان القديس سجيناً في قصره . ولكن الشعب لم يقبل بالقرار الامبراطوري فتجمع حول كهنته الأوفياء مثله لراعيهم . واجتاح الجند الكنائس

وعكروا جو الخدمات الدينية ، وضربوا الكهنة والشيوخ والنساء .

النفي الثاني

وبعد عيد العنصرة أوفد اركاديوس أحد كبراء البلاط وأوعز الى يوحنا أن يذهب الى المنفى . وفي ٢٠ حزيران سُمح له أن يدخل الكنيسة لآخر مرة حيث صلىّ وودع الأساقفة الأمناء له، ثم جاز الى مصلىّ المعمودية وأعطى النصائح الأخيرة للشماسات الفاضلات وودّع الجميع بكلمات مؤثرة ومحركة. ثم خرج خفية من الباب الشرقي ليخدع الشعب الذي كان ينتظره علناً على الباب الغربي . وكانت الدابة تنتظره فركبها وسار الى المنفى للمرة الثانية.

أقام الذهبي الفم في نيقية اربعين يوماً أو أكثر. وعلى الرغم مما كان عليه من مضايق السجن وقسوة الجنود، فإن نفسه ظلت تتوقد غيرة على خلاص النفوس في سورية وفينيقيه وتحطيم الوثنية وهياكلها. وفي الرابع من آب سنة ٤٠٤ قامت قوة من الحرس الامبراطوري الى نيقية لتنقل الأسقف الى منفاه المقرر. وقضى أمر النفي بوجوب مواصلة السفر ليلاً ونهاراً من أجل الاجهاد والتعجيل . وما كاد يصل الى مداخل قيصرية كبادوكيا حتى أعيا وعجز عن مواصلة المسير . فوقف الجنود به وأذنوا له بشيء من الراحة . بيد أن فارتيريوس أسقف قيصرية شدد النكير واضطرهم الى الرحيل. وبعد سفر دام ستة وخمسين يوماً وصل الأسقف القديس في آخر أيلول الى منفاه في بلدة كيكيز في شمالي طوروس.

عمله من المنفى

وعلى الرغم من بُعد إقامته وصعوبة الأحوال التي كان فيها ، كان يتصل أيضاً بقسم الكنيسة الشرقي الذي بقي متعلقاً به . وكان يدير من هناك الأجزاء المسيحية والارساليات التبشيرية في سورية وفينيقية والعجم والقوط في شمالي الدانوب وكانت هذه الجهود والاتصالات تستنفد حيويته ، وعلى الرغم من أمراضه وفناء قوته ، كانت عنده ثقة غلاّبة بالعودة.

نقله الى أبعد

لم يكن يدري بعد الى أين سيذهب حقد اعدائه عليه . ثم عرفه بعد ذلك . فإذ أزعج هؤلاء الأعداء أن يروا ضحيتهم القديس يمارس هذا التأثير حتى من منفاه البعيد ، قرروا أن يقطعوا عليه كل اتصال بالعالم المعروف ، وحصلوا من الامبراطور على أمر نقله الى بلاد القفقاس . وعهد بتنفيذ هذا الأمر الى جنديين من حرس البلاط ومن قساة الجنود فقطعوا به آسيا الصغرى من غربها الجنوبي الى شرقها الشمالي بدون راحة . كان المسير في قلب الصيف ، والشمس محرقة والقديس الشيخ مكشوف الرأس . ولكي يتجنبوا المرور بالمدن الكبرى ومصادفة الجماهير ، كانوا يسيرون به في الطرقات المقفرة والأماكن الجرداء . وبلغوا الى كومانا في منتصف أيلول وهناك أُنهكت قوى الأسقف الشيخ ولكنهم اجتازوا المدينة كالعادة بدون توقف . وقضوا ليلتهم في كنيسة صغيرة مبنية على أسم القديس الشهيد فاسيليسكوس وهو اسقف استشهد في نيقوميدية في زمن مكسيموس الامبراطور مع القديس لوقيان الانطاكي . وفي الليل ظهر القديس فاسيليسكوس للذهبي الفم وقال له :تشجع يا أخي يوحنا غداً سنكون معاً .

مرض القديس وموته

وفي اليوم الثاني حين شعر أن قواه تخونه طلب من الجنديين العاتيين أن يمهلا سفره قليلاً ، فرفضا واقتاداه في طريق صعب . وبعد مسيرة ستة كيلومترات لم يعد يستطيع التحمل أبداً ، فأرجعاه بأسوأ مما أتوا به الى الكنيسة الصغيرة التي تركاها في الصباح . وفيها خلع القديس نعليه وثياب السفر ، وارتدى ثيابه الكهنوتية البيضاء ، وفرق في الحاضرين ما معه ، وطلب المناولة الالهية، فتقبل جسد المسيح ، ثم أخذ في الصلاة ، ولما انتهى منها ردد نهائياً عبارته المألوفة « الحمد لله على كل شيء » ثم رسم وجهه باشارة صليب كبيرة ، ومدد رجليه ورقد بالرب . وكان ذلك في ١٤ أيلول ٤٠٧.

وقد تقاطر الشعب والرهبان والراهبات والكهنة والأساقفة من آسيا

الصغرى ومن سوريا نفسها الى جنازته . وكان في القسطنطينية وانطاكية حداد عام على وفاته ، وقد بدد موته آثار الجبن والخوف من الانتصار له . وكل الشرق كان يفتخر بالاعلان عن أمجاده .

عودة جثمانه الى القسطنطينية

وحين أعلن فيما بعد تطويب القديس في القسطنطينية وأريد إعادة جثمانه إليها ، احتيج الى أوامر امبراطورية لكي ينتزعوا من كومانا نعشه الذي كانت تفاخر به . وفي اليوم الذي عاد فيه ، للمرة الثانية يوحنا من منفاه ، كان البوسفور مغطى بالمراكب المزينة بالزهور والأنوار التي كانت تشكل موكباً امبراطورياً . ومائة ألف إنسان كانوا راكعين على الشاطىء يطلبون بركة الأسقف العائد اليهم. وفي ذلك اليوم كفّر تيودوسيوس الثاني بن أفدوكسيا عما فعلته امه بالقديس. وكل الشعب كان يتدافع أمام النعش . ثم جيء به الى كنيسة الرسل القديسين أي الى حيث عاد من منفاه الأول ووقف ليشكر الله ويبارك الشعب . جعل جثمانه الشريف على العرش الأسقفي ، وكان كل الشعب يصرخ في الكنيسة ويقول : « إصعد الى عرشك يا أبانا وعلمنا » . والدموع كانت تفيض من كل الأعين ، والفرح كان عاماً ، ودخل الذهبي الفم الى مجده . أما بقاياه الشريفة ، فقد تنازعت كل من رومية والقسطنطينية على شرف امتلاكها ، وليس من الفخر بقليل للذهبي الفم أن يرى الشرق والغرب متفقين ومتحدين على رفع اسمه بمحبة واحدة له



مؤلفاته

ترك الذهبي الفم آثاراً كثيرة . ولعله أكثر الآباء إنتاجاً . وكتب متأثراً بنفحات إيمان حار « فكان يوشح تارة خطبه البسيطة بثوب قشيب من الطلاوة الشعرية الظريفة ، وطوراً يزينها بحُلى التشابيه اللطيفة فيسكر السامعين ويسترق ألبابهم » .

ووعظ وعلم فأبان ضرورة المعمودية للحصول على نعمة الله في الدنيا والسعادة في الآخرة . وأوجب مصارعة إبليس فأنشأ ثلاث خطب في قدرة الأبالسة ، وثلاثاً كتبها الى ستاجير في « فوائد » التجارب وأخطارها . وأعدّ تسع خطب في التوبة والمحبة . اعتبر الوثنيون في أنطاكية تجسد ابن الله حلماً من الأحلام فرد قديسنا مبدداً أقاويلهم مبيناً اتفاق السماء والأرض في هذا العمل العظيم . وألف خطبتين في خيانة يهوذا بعد تناول جسد الرب مبدياً إيمانه بسر الاستحالة . وشرح قيامة المسيح في خطبتين بليغتين ورأى فيها عربون قيامتنا .

وحرّض القديس على أعمال التقوى . ففي خطبته في شهداء مصر يوجب احترام ذخائر القديسين . وفي خطبه في حنة ام صموئيل وشاوول وداود ، وفي خطبه الثماني في سفر التكوين يبين قديسنا الأسباب الداعية لتكريم الشهداء ، وأهمية الصوم ومنفعة التوبة وفوائد الصدقة وطهارة القلب . ويطعن طعناً عنيفاً في الملاعب العمومية . وألقى في كنيسة القديس بولس في انطاكية أيضاً ثمانياً وثمانين خطبة في انجيل يوحنا فارتقى مع « التلميذ الحبيب » الى البحث في الجوهر وولادة الكلمة المتأنس ومساواة الآب والابن في الجوهر . وواجه القديس يوحنا اعداء المسيحية ببرهان كلامه وحسن سيرته . فخص الكهنوت بكتب ثلاثة ، وأنشأ

ثلاثة كتب شديدة اللهجة في الدفاع عن الرهبان والرهبانية . ودبّج خمس مقالات في طبيعة الله الغير المدركة ردّ بها على أفنوميوس وبدعته . وخص اليهود بثماني خطب أبَان لهم فيها بطلان موقفهم من المسيحية . وله إحدى وعشرون خطبة في ثورة انطاكية سرد فيها رذائل عاصمة الشرق وتخلي الله عنها وسقوطها في لجة الاثم . ثم هوى الى كيفية التخلص ، فأوجب الابتعاد عن السباب والتجديف والتمسك بالتوبة والفضيلة .

وعني الذهبي الفم منذ صبوته بشرح الأسفار المقدسة فخص سفر التكوين بسبع وستين خطبة . وفسرّ الزبور (المزامير) وما بقي من هذا التفسير سوى ثماني وخمسين خطبة . وفسرّ أيضاً بعض ما جاء في ارمياءواشعياءودانيال . وله في إنجيل متى تسعون خطبة ، وفي رسالة بولس الى رومية اثنتان وثلاثون خطبة وقد دحض فيها أضاليل بيلاجيوس وفظائع المانوينين.

واروع ما جاء على يد هذا الرجل الاهي البار أربع وأربعون خطبة في تفسير رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس . وشرح أيضاً الرسالة الثانية الى كورنثوس وفسرّ رسالة بولس الى الغلاطيين، ففنّد أضاليل ماني ومركيْون وأنوميوس . وأنشأ اربعاً وعشرين خطبة في رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس ، وثمانياً وعشرين في رسالته الى تيموثاوس ،واربعاً وثلاثين في الرسالة الى العبرانيين وقد اعتبرها من رسائل بولس .

وهاكم لائحة كاملة لمؤلفاته التي اكثرها تقع في ١٩ مجلداً:

★العظات في فترة الكهنوت في انطاكية ٣٨٦ - ٣١٨

● عظات في الكتاب المقدس :

- عن سفر التكوين وعددها ٨ عظات .

- عن المزامير وقد شرح فيها ٢٨ مزموراً .

- عن سفر اشعياء وعددها ٥٨ عظة .

ـ عن انجيل متى وعددها ٩٠ عظة .

ـ عن انجيل يوحنا وعددها ٨٨ عظة .

ـ عن أعمال الرسل وعددها ٥٥ عظة .

ـ عن رسائل بولس الرسول وتشكل هذه نصف عظاته في شرح الكتاب المقدس .

● عظات في العقيدة والحياة :

ـ ١٢ عظة ضد الأنوميين عن الله

ـ ٦ عظات في المعمودية .

ـ ٨ عظات ضد اليهود وخاصة ضد المسيحيين الذين يمارسون العبادة مع اليهود .

ـ عظات احتفالية في أعياد القديسين منها ٧ عظات عن الرسول بولس، مثاله الأعلى .

ـ ٢١ عظة في التماثيل عندما ثار شعب إنطاكية سنة ٣٨٧ ضد الحكم الامبراطوري وحطموا تماثيل الامبراطور وعائلته ، وذهب بطريرك أنطاكية الى القسطنطينية ليطلب الصفح عن الانطاكيين .

ـ خطب عديدة أخلاقية يتخذ فيها مواقف مسيحية من المشاكل المطروحة في المجتمع .

★ ابحاث في:

ـ الكهنوت في ٦ فصول .

ـ الحياة الرهبانية والدفاع عنها.

ـ في العفة ووضع الأرامل والزواج الواحد .

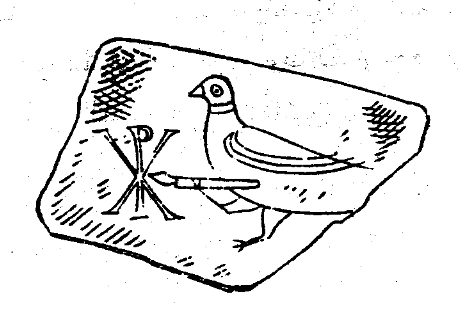
ـ في المجد الباطل وكيف يربي الوالدان أولادهما .

هدفه من هذا الكتاب الا ينشأ الأولاد على حب المجد الفارغ في المجتمع الفاسد.

* الرسائل من المنفى: من ٤٠٤ حتى وفاته ٤٠٧ .

٢٣٦ رسالة :

- أجوبة عن طلبات .
- إبداء رأي .
- ارشاد شخصي وكنسي.
- الى المرسلين في الخارج.
- ١٧ رسالة الى الشماسة أولمبيا وكانت تعاونه في العمل الرعائي .



رسائل المنفى

ورسائل المنفى ال ٢٣٦ أكثرها ، ما عدا الرسائل الى أولمبيا ، زفرات مرارة وتعبير عن قسوة الوحدة والانفراد بل عن ألـم الضربـة التـي ضرب بهـا . ولا عجب !

فلنتصور رجلاً قديساً في مثل حرارته وعزمه وهو في كل ذكائه وحيويته على الرغم من بلوغه الستين من عمره، رئيساً على نصف العالـم المسيحـي، رئيس أحبار المدينة الأولى في الامبراطورية، مديراً جماعة واسعة من المؤمنين ، وموجهاً لأمم بأسرها كانت تقدسه، وأعداد من الأرامل والكهنة كانوا مخلصين له حتى الموت، وهو على اتصال حي دائم مع أساقفة عديدين كانوا تابعين له، مجهزاً بغيرة تتجـاوز حدود الأبـرشيات المسيحية التابعــة، متطلعـاً الى تنـظيم ارساليات التبشير في البلاد القاصية في فينيقية وفي العجم وحتى روسيا الحالية ! لنتصور هذا الانسان موقوفاً في أشد انطلاقتـه ! لنتصـور هذا النسر موقوفـاً في أعلى طيرانـه وتحليقـه ومسمراً على صخرة في القفر! ولنتصور بعد ذلك الحالة النفسية التي كتب فيها رسائلـه تلك! وهي في غالبيتها رقـاع صغـيرة بسيطـة لأصدقائـه من أجـل التذكر ، أو أوامر وتوجيهات الى المتعلقين بهلتذكيرهـم بواجباتهـم ، أو كلمات شكر لطيفة ، أو بطاقات محزنة تشكو الوحدة والهجران .

أما رسائله الى أولمبيا فليس فيها شيء من هذا وهي سبع عشرة رسالة التي تشكل الجزء الثالث من هذا الكتاب .



الرسائل الى اولمبيا

من هي اولمبيا؟

ولادتها ونشأتها
وتربيتها المسيحية

يحسن بنا أن نورد حياة هذه المرأة القديسة لما لها من دور هام في حياة الكنيسة في القسطنطينية عامة ، وفي حياة الذهبي الفم خاصة ، لنستطيع أن نتفهم روح الرسائل التي أرسلها اليها القديس من منفاه .

تنتمي في الأصل الى الطبقة العليا في القسطنطينية . ولدت حول عام ٣٦٨ وكان والدها سوكونوس موظفاً في البلاط مرموقاً . مات والدها وتيتمت باكراً وتولى الوصاية عليها بروكوب أحد الولاة في القسطنطينية . وعهد بتربيتها الى تيودوسية أخت القديس أمفيلوخيوس أسقف أيكونيا . وتعد تيودوسية من نساء ذلك العصر ذوات الثقافة العالية جداً ، المنغمسات في مطالعة الكتاب المقدس . وكثيرات منهن كن من بين المتراسلات مع الذهبي الفم مثل أدوليا وأذيلا وسافينيانا يذكرهن بلاديوس كاتب سيرة يوحنا بالاعجاب وينعتهن بنساء الحكمة والشجاعة . والى تيودوسية هذه يهدي القديس باسيليوس الكبير كتابه «عن الروح القدس» . وعنها يتكلم أيضاً القديس غريغوريوس النازينزي باحترام موجهاً الكلام إلى أولمبيا : « . . . فلتكن لك مثالاً حياً في كل قول وعمل» . ولا يُستبعد أن يكون للقديس غريغوريوس (هذا) دور في التربية الدينية لأولمبيا حين كان أسقفاً على القسطنطينية (٣٧٩ ـ ٣٨١) . وعندما يخاطبها فعباراته مليئة بالعطف : «يا بنيتي لا شيء يساوي نصائح الأب» .

ويظهر أن التعمق في دراسة الكتاب المقدس كان لنساء ذلك العصر الوسيلة الكبرى للتكوين الثقافي والأخلاقي . وبلاديوس يظهر لنا أولمبيا في استجابة تامة لهذا التوجيه « تابعة في كل شيء فكر الكتاب المقدس » .

ونعلم من الرسائل أن يوحنا يلجأ دائماً الى نصوص الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد ، كما نعلم أن غريغوريوس النيصصي أراد أن يهدي كتابه « شرح نشيد الأنشاد » الى هذه السيدة الكبيرة الخليقة بفهم قيمة ذلك الكتاب .

يعدّ بلاديوس ، مما كان له تأثير على فتوة أولمبيا ، تأثرها بالقديسة ميلاني التي يخصها بعدة فصول من تاريخ لوسياك . فما عدا التقشفات الجسدية التي كانت قاعدة متبعة عند متوحدي مصر يشير إلى اهتمام ميلاني بقراءة الكتاب المقدس : « لم تكن تقرأ الكتاب مرة واحدة وكيفما كان . بل كانت تعيد قراءة كل كتاب سبع أو ثماني مرات بدقة وعناية . وهكذا دعيت « العالمة العلامة » بكل ما في هذه الكلمة من علم وحكمة . كانت حكيمة جداً لأنها كانت تحب كلام الله » .

زواجها

وأولمبيا أيضاً صممت بدورها حياة توبة مخصصة لتأمل الكتاب المقدس . وقد هيأتها تيودوسية لهذاالنوع من الحياة أكثر مما هيأتها لحياة القصر الفخمة . وفي وسط السيدات الكبيرات المستهترات الغانيات اللواتي كن يحطن بالأمبراطورة افذوكسيا كانت أولمبيا تظهر ، وكلها طهارة وتعقل . هكذا يمكن أن نتصورها ، حين تزوجت من فبريد في أواخر عام ٣٨٤ ،وكان قنصلاً في القسطنطينية عند تيودوسيوس حتى عام ٣٨٦ .وضار العرس في احتفال فخم . ومن كبار المدعوين كان القديس غريغوريوس النازينزي (المستقيل يومئذ) . وبما أنه كان يعاني في ذلك الوقت من داء المفاصل ، يعتذر لبروكوب وليّها بكتاب تشف فيه الرقة عن الابتسام: «وقد تقول اننا نقيم الأفراح في عرس أولمبيا الذهبية ، وأنت غير موجود معنا؟ . . . ولكن أنا معكم ، أقيم الفرح معكم ، أضم يدي العروسين الى

بعضهما وأضم يديها الى يد الله» . وأسقفنا كان شاعراً في تلك الأوقات . فهو يرسل اذاً، لكي يبرر غيابه، قطعة من الشعر مملوءة بالنصائح الحكيمة الموجهة الى الفتاة المتزوجة . وخلاصة الفكر فيها أنها تعرض ثلاثة موضوعات هامة : زي المرأة المسيحية ، وتصرفها مع زوجها ، ومعاطاتها لشؤون بيتها كربة منزل ، وعلاقاتها خارج البيت .

وغريغوريوس يحمل بشدة على استعمال المساحيق والملابس المزركشة المغرية والحلى التي تجذب الانتباه ولا تضيف شيئاً الى قيمة النفس . « فليعجب الناس بجمالك وعيناك مطبقتان » . وسنرى في رسالة من يوحنا أن هذه النصيحة كانت منفذة، وأن بساطة ملبسها كانت تهيء لها كثيراً من الاستحقاقات. حياة عمل في البيت بعيداً عن المسارح والزيارات والحفلات، تلك مثالية حياة زوجية، وان يكن قد قال بها كسينوفون وايشوماك، ولكن المقطوعة الشعرية تصل النهاية بسرعة لتقول انه الى جانب الصوف والكتان، والابرة والصنارة (عمال المرأة البيتية) يجب أن نضيف من الآن فصاعداً وجود الكتاب المقدس لاكتمال الحياة المسيحية.

والقديس يوحنا الذهبي الفم يذكر غالباً بسلطان النساء القائم على ثقافة بيتية قوية . يجب على النساء أن يكن فلاسفة أكثر من الرجال (ومن المعلوم ما تكشفه هذه الكلمة « فيلسوف » لمسيحيي القرن الرابع : العلم والكمال الأخلاقي) وذلك لأنهن ملازمات البيت (أو مسمرات في البيت) بواجبات الخدمة .

ومن هنا سلطان تأثير المرأة على زوجها . «ما من شيء أقوى من المرأة التقية والمثقفة في وضع زوجها موضع الموافقة لها وفي صناعة نفسه كما تشاء » .

هكذا كان يقول الذهبي الفم .وغريغوريوس يشدد على دور المرأة الحكيمة التي تكون تعزية لزوجها وبرداً وسلاماً على قلبه . وكما يُروّض الأسد الهائج ويُعاد الى الهدوء،هكذا تجلب المرأة الهدوء الى زوجها بلطفها. وعليها أن تحرر قلبه من كل هم . واذا كان هذا التكليف ثقيلاً على فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ،

فهذا يعني أن المسيحية حين تعهد الى المرأة العناية بنفس زوجها ، فإنما تنتدبها الى مرتبة كانت الى ذلك الحين ، مجهولة .

ولم يكن لأولمبيا الوقت الكافي لكي تضع هذه النصائح الصائبة في موضع التطبيق . كانت فترة زواجها عشرين شهراً ، إذ مات زوجها فبريد في عام ٣٨٦ .

وهنا تختتم المرحلة السعيدة من حياتها ، وليس عليها من بعد ذلك أن تعرف غير العذاب والكفاح .

وبلاديوس المؤرخ يبرزها لنا في هذه الحقبة «غارقة في كرم الأصل والغنى والثقافة ، وفي أحسن حال وفي زهرة العمر» .

اضطهاد الامبراطور لها

ثم نفهم منه أن الأمبراطور تيودوسيوس كان يتمنى أن يراها متزوجة من جديد . وقد عين لزواجها ابن عمه البيّد أصله من اسبانيا . أما هي فترفض . وقد نجت من فخاخ الزواج الثاني كغزالة فتية تقفز وتتجاوز الأحابيل . كان الأمبراطور عنيداً فأصّر على موقفه . وكان جواب أولمبيا جواباً صارماً محدوداً كما كانت فيما بعد كل كلماتها التي لفظتها أمام المحاكم . «لو أراد لي مليكي أن أعيش مع رجل لما كان أخذ مني زوجي الأول» .وإذ استشاط غضب الامبراطور ، أمر بمصادرة كل أملاكها حتى بلوغها الثلاثين من عمرها . ويضيف والي المدينة ، مولى الملك الغيور ، الى قرار المصادرة منع اتصالها بالأساقفة الممتازين، ومنع ترددها الى الكنيسة . وكيان يأمل عودتها الى الزواج بطريق التعجيز والاكراه .

وتجيء الفرصة لتقتدي بالقديسة ميلاني ويؤتيها الاقتداء خير الثمار . فرصة جميلة (تجريدها من أملاكها) لممارسة حياة التقشف والاماتة عن كل نوع، الحياة التي يقتضيها الفقر الحقيقي . تشكر أولمبيا تيودوسيوس على أنه حررها من حمل ثقيل ، هو حمل الثروة ، ومن هم توزيعها . لا يجب أن نرى في هذا الجواب خضوعاً ناعماً أو هزءاً ينتقم من الظلم أكثر من أن نرى فيه كرها للقيام بأعباء المسؤوليات . هذا همّ روحي محض سجلته قائلة:« كنت منذ زمن طويل أطلب

من الله أن يحفظني من المجد الباطل الذي تجلبه ممارسة الاحسـان » .

وأمام تجربة المجد الباطل ما كان يوحنا يكف عن تحذير المؤمنين من الوقوع فيها كلما عملوا حسنة. والواقع أن الاحسان لم يكن غير معروف عند الوثنيين. ولكن من بعد المسيحية ، لم يعد يكفي أن تعطي فقط ، بل أن تعطي بقلب متواضع وبأخوة حقيقية:« إنحدروا الى عمق فقرهم واحملوا فقرهم معهم وقوموا بدور الفقير». هناك لا يبقى أي محل للكبرياء، فالتواضع هو فوق كل الفضائل. وأعلى منه اقتبال الآلام بفرح واعتياد شكر الله على كل شيء .

خدمة أولمبيا الشماسة

وفي نهاية أربع سنوات وبعد عودة الأمبراطور من غزو البانومي « وبعد أن سمع بأخبار نشاط أولمبيا في ممارسة حياة التقشف والتوبة » ردّ اليها أملاكها وحريتها . وجعلت ذاتها من ذلك الوقت كلياً في خدمة الله والقريب . وأعطتها ثروتها من وسائل العمل والتأثير شيئاً كثيراً . وسيطيب ليوحنا في رسائله ، أن يمتدح هذا الاحسان الذي لا ينضب معينه :« تأملي أقيانوس احسانك » (رسا ٨ ، ١٠) . فقد شيدت لها في القسطنطينية بيتاً واسعاً بين كنيسة السلام وكنيسة الحكمة المقدسة ، وخصصته لتلبية حاجات تلك الأيام إذ جعلت منه مضافة للكهنة والأساقفة الذين يمرون بالمدينة ، ومشفى لاستقبال المرضى . ومن أجل القيام بكل تلك الخدمات ، جمعت حولها عدداً من النساء والفتيات بقين مخلصات لها في محنتها . ولما صار يوحنا أسقفاً راح يستعمل كل موارد الكنيسة ليبني بها عدة مستشفيات ،وليوظف أطباء وطهاة ومستخدمين . وكان اتفاق عميق حول هذه الأعمال بين يوحنا وأولمبيا في نفس الاتجاه . وكان لهما ذات النشاط نحو العمل المشترك : تخفيف شقاء المجتمع .

كان المفروض في الشماسات أن يكون لهن من العمر ستون عاماً ، لكن نكتاريوس سلف يوحنا عدّ أولمبيا في عداد الشماسات ولم تكن قد تجاوزت الثلاثين . ولكن الشروط الموضوعة رسولياً : « العلم والفضائل الدائمة » كانت مكملة فيها .«وكان نكتاريوس يتبع نصائحها في خدمات الكنيسة » .

ولما خلف يوحنا نكتاريوس في شباط ٣٩٨ نشأت بين الأسقف الجديد والسيدة الكبيرة هذه الصداقة الجميلة ، وتجذرت في المحبة المسيحية ، وفي محبة الله ومحبة القريب . ورسائل المنفى شهادة صريحة عليها .

وكانت أولمبيا قد جذبت الى تبعيتها عدداً كبيراً من السيدات بينهن من كن معها في البيت أثناء الزواج وعدة سيدات من أسر مجلس الأعيان « التقين وتواضعن على نفس الرغبة في الحياة الروحية » . ومؤرخ حياة أولمبيا يُعجب « بزهدهن وأسهارهن المتواصلة وتسابيحهن المستمرة للخالق وشكرهن » .

تعاونها مع يوحنا الذهبي الفم

هؤلاء كن متعاونات مع القديس في كل أعمال البر والاحسان لخير الكنيسة . أما أولمبيا فكانت متعلقة بكلامه ، مستجيبة لتأثيره وايحائه ، معتنية بحفظ ثيابه وتدبير طعامه البسيط . «صائرةً له مثل تقلا ثانية لبولس » .

ولما نفي الذهبي الفم الى المنفى الثاني همّها أمره كثيراً، واستولى عليها الحزن وعذبها وأضعف جسدها وكادت تشكك وتقع في اليأس. وهنا يتولى الذهبي الفم معالجة حزنها وتشككها ويأسها بواسطة تلك الرسائل البديعة من منفاه البعيد المرير، هذه الرسائل التي يجب أن تحتل مكاناً فريداً في تاريخ هذا القطاع من أدب الرسائل.

رسائل القديس لها : خصائصها

والعجب كل العجب هو أنه يكتب من قلب العذاب والحزن والمرارة والمرض ، ليبعث أقوى التعزية والأمل ، ويحيي النفوس الميتة بالحزن والعذاب ،بتلك الرسائل التي تصلح لأن تكون وصفات طبية ناجعة في شفاء النفس من الحزن واليأس والعذاب .

في هذه الرسائل ليس من ألم الا اذا كانت أولمبيا غير متعزية . وليس من شكوى وعتاب إلا اذا كانت لم تتخلص من الاضطراب. وعلى العكس من ذلك : فرح عظيم عنده أن تكون صديقة نفسه متشجعة راضية . وهذه الرسائل

الموجهة الى أولمبيا هي ، من بين رسائله ، الرسائل المطولة ، حيث يتمهل ويتحدث وينفتح ويتكلم عن جسده وعن نفسه ، ويصف أفراحه وشقاءه ، أمراضه وآماله ، ويتصل في كل ذلك بقلب شبيه بقلبه لينقل اليه التعازي التي يجدها هو نفسه ، في تأمل الكتاب المقدس ونواميس العناية الالهية .

والمعزي في قراءة هذه الرسائل العجيبة ، هو أن تتلمس أو تمسك فيها ما تخبئه ولا تكشف عنه إلا بمقدار، أعني به من الجهة الأولى، الجهد الثابت الجلود - ولا أجسر أن أقول العاجز - المبذول لإخماد الحزن، الذي يشعر به في العمق غير متعزٍ ، ومن الجهة الثانية ، الاهتمام اللطيف بأن لا يقول شيئاً وألاّ يوحي بشيء من آلامه وعذابه هو ، ومما يمكن أن يزيد في عذاب أولمبيا . هذا ما يجب أن ندخل اليه لنفهم كل ما كان من الرقة والحنو في تلك الطبيعة ذات المظهر الصارم القاسي .

وأخيراً فان هذه الرسائل تتجاوب مع مقتضى عصرها وكل عصر في أن تدخل الى حياة الصداقة القلبية ، والى قلب كبار الرجال والقديسين ، ويمكن أن تتوجه بشكل حسي ، لتتفاعل مع كل المأخوذين بقبضة الألم ، ومع كل الذين عرفوا الاضطهاد والهجران والحرمان وكل آلام الحياة (وما أكثرها) ! هذا فضلاً عن فوائدها التاريخية وما تكشفه لنا من مظاهر ذلك العصر وآثاره .

هذا عن الرسائل . وعوداً على بدء نقول:

في الكهنوت

أما مؤلفه عن «الكهنوت» فليس يهم الكهنة وحدهم : فهو موجه الى كل النفوس المتدينة التي تهتم بمثل هذا الموضوع الرفيع ، والى كل فكر من أي مذهب تقلقه أكبر المعضلات الانسانية . أنه مؤلف ذو فائدة دائمة ووجه عالمي .

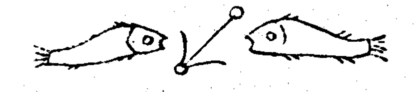
أحاديث عن الزواج

ان الأحاديث عن الزواج كثيرة ، لأنها عن موضوع يهتم به كل

الناس . وهو موضـوع حاضر ، دائماً قديم ، ودائماً جديد . والقضـايا الهامـة المطروحة في هذه الاحاديث : القصد من الزواج ، الطلاق ، واختيار الزوجة ، موضوعات تطرح وتبحث فيها بصراحة ووضـوح ، وبنصيب كبـير من حسـن التعبير والسبك ، الأمر الذي لم يألف الناس سماعـه من على المنبـر ، بل قلما يوجد في كتاب مخصص للمطالعة .

خلاصة

وأخيراً اذا نحن نظرنا من وجهة نظر أدبية لآثار الذهبي الفم ، ففضلاً عن الفائدة العامة التي هي في كل آثار هذا الكاتب الكبير والعبقري الكبير ، نجد في اختيار هذه المؤلفات الثلاثة فائدة خاصة مزدوجة : أولاً أنها معتبرة دائماً من أبرز آثاره . وثانياً أنها تمثل الثلاثة أنواع من أبرز جوانب الأدب الواسع للذهبي الفم . فمن زمن فوتيوس الى أيامنا عُرف مؤلفه «في الكهنوت» تحفة من آثاره ، اذا لم نقل أكملها . وعُرف ايضاً أن السبع عشرة رسالة الى أولمبيا هي من بين رسائله المائتين والست والثلاثين أفضلها وأجملها . أما خطبه وأحاديثه من على منبر الوعظ فكلها رائعة مكملة وبدون ضعف . وإذا أعرضنا الآن عن ترجمة الأكثر شيوعاً منها، مثل خطبه في «ثورة انطاكية» و «تحطيم تماثيل الملوك» و«الهزة الأرضية» و «احتماء افتروب في الكنسية»، فإن «الاحاديث عن الزواج» ليس أدنى منها رتبة أدبية، ولكنها إذا كانت أقل منها شيوعاً ومعرفة فإننا نجد فيها جدة وتمثيلاً لشيء مهم ومألوف وجذاب ومقنع وحار ورسولي.



الفصل الأول

في الكهنوت

المقالة الاولى

حوار وتبرير

كان لي كثير من الأصدقاء الحقيقيين المخلصين الذين كانوا يعرفون واجبات الصداقة ويعملون بمقتضاها. إلا أن واحداً من أولئك الأخلاّء الكُثُر تفرّد فمحضني محبةً نادرة كادت أن تكون ، في نسبتها الى صداقتي مع الآخرين ، كنسبة هذه الصداقة الى الذين لم تربطني بهم صلة من المودة .

لم نكن لنتفارق أبداً : كان زميلا لي طوال عهد الطَلَب ، وأخذنا العلم على نفس المعلمين . وقد خلقت فينا المنافسة في العمل طموحاً مشتركاً .

ولم يكن توافقنا مقتصراً على أيام الدراسة فقط ، بل وفي نهاية دراستنا . حين كان يسائل أحدنا الآخر عن دعوته وميله في الحياة ، كنا على صعيد واحد من الرأي والتفكير .

وهناك روابط أخرى كانت تزيد في تقوية هذه الصداقة وتوثيق عروتها . لم يكن فرق في أوضاع الأسرتين يباعد بيننا . فما كنت أنا من ذوي الثراء الكبير ، ولا كان صاحبي من ذوي الفقر الشديد . ويمكن أن يقال ان الشبه بين ما نملك من مال كان يقرب كثيراً بين ما نملك من رأي وتفكير .

مضت الأيام ولم يكن يخطر لي أن هناك شيئاً يمكن أن يقف حائلا في طريق الاتحاد التام الذي بيننا ، حتى كان يوم فوجئت فيه بانخراط صديقي في الحياة الرهبانية سعياً وراء الحكمة الحقيقية الوحيدة ، ففتح هذا الحادث بيننا فجوة واسعة،اذ أن قلب صديقي المتحرر من كل مشاغل الدنيا ، ارتفع الى الأجواء العلوية ، على حين بقي قلبي مشدوداً الى الأرض بحطام الدنيا وأحلام الشباب .

بقيت صداقتنا كما كانت قبلاً . ولكنها فقدت عمقها. ذلك أنه عندما

يختلف الهم عند الأصحاب ، يصعب أن يكون هناك حياة مشتركة . بل لم تكن محبتنا لتستعيد عمقها يومَ اقتحمتني أمواج العالم وكانت تبتلعني بين أشداقها ، يومَ مَدَّ صديقي ذراعيه لينتشلني اليه . كان قد سبقني اشواطاً في مسيره المتجه نحو السماء . ولقد مكنه المران الذي اكتسبه من أن يسير بعيداً عني حتى غاب عن انظاري نحو العلاء .

ولكن صديقي ، بدافع من طيب عنصره ، ولكونه كان يعلق أهمية كبرى على صداقتنا ، كان ينسلخ عن أصحابه أحيانا ليخصني بكل ما يتبقى له من فراغ وقت . واذا لم يتسنَّ له الوقت ، فان ذلك كان جل متمناه . ولكنه كان يصطدم ، في مواصلته لي ، بسطحية الحياة التي كنت أحياها وعبثها . فلم يكن من الممكن تأمين المرافعات القضائية ،واشباع حاجة الولع المفرط بارتياد المسارح ، مع توفر الوقت الطويل نقضيه مع رجل ، همه الوحيد أن يستغرق في كتبه ومطالعاته ، ولم يكن ليخالط الناس أو يغشى المجتمعات ولو مرة واحدة !

غير أن انقطاعي عنه لم يدم طويلاً . فقد توصل صديقي إلى أن يحقق الحلمْ الذي كان يساوره ، بأن نجح ، ذات يوم ، في أن يوجه عقلي في وجهة مسيره ولم يعد يتركني أبداً . ومنذ ذلك الحين لم يفتأ يحرضني كل يوم على ترك بيت أبي لأقاسمه مسكنه في الخلوة والترهب ، فتمكن ، على مر الأيام ، من أن يقنعني . وحين أوشك مقصدنا أن يتحقق ارتفع فجأةً صوت أمي ، فطغى على صوت قلبي ، وخاب أمل صديقي ، بل لم يتسنَّ له أن يفرح بعطية كان يود لو يعطينيها! فما كادت والدتي تقف على حقيقة ما أنوي حتى أخذتني من يدي ، وأدخلتني الى حجرتها الخاصة ، وأقعدتني على جانب السرير ، حيث انفتحت عيناي لتبصرا ، لأول مرة ، نور الوجود ، وانسابت من عينيها شآبيب من الدموع خضَّلت وجهها ، وبعثت فيَّ القلق . ثم أسمعتني كلماتٍ كانت أوقع في نفسي من دموعها . ومن خلال تنهداتها كلمتني قائلة :«ان الله تعالى لم يشأ أن يمتعني طويلاً بجانب أبيك . فاني لم أكد أودع آلام المخاض بك حتى فاجأني موته ، فأيتمك وأيمَّني ، قبل الأوان ،وأغرقني في آلام وهموم لا يعرفها الاَّ النساء اللواتي بَلَونها .

وليس من كلمات تستطيع أن تعبر عن هول الزواج والعواصف التي فُرض أن تقتحمها امرأة فتيّة ما كادت تخرج من بيت أبيها دون خبرة في شؤون الحياة ، حتى داهمها حزن ساحق حطم ضلوعها ، وهي ما زالت ترى نفسها مجبرة على الاضطلاع بأعمال ومسؤوليات هي فوق ما تستطيع أن تحتمله امرأة في مثل سنها : فمن خَدَم يجب مراقبتهم ، بحثّهم على النشاط اذا تكاسلوا ، وتأنيبهم اذا أذنبوا . ومن أقرباء يكيدون ويدسون فيجب الاحتياط لكيدهم ودسهم . وعليها أن تتحمل بثبات جَنان ، ما تلقى من الإهانات ، من جُباة الضرائب ، ومن شر الذين يرهقونها بمطالبهم من الشركاء وأرباب المصالح ، بل عليها أن تتحمل اهانةً حتى من اولئك الذين تُقدم لهم المساعدات .

ولو كان العقب الذي خلفه الراحل بنتاً فلا نكران أنها تستلزم اهتماماً عظيماً ، ولكنه اهتمام خالٍ من المخاوف والتكاليف الثقيلة . أما اذا كان صبياً ، فَبِكَمْ من الدموع ومن الاهتمامات من كل نوع ، تنشغل حياة تلك الأم من أجله ! هذا عدا المبالغ الطائلة من المال الذي يجب أن تنفقه عليه ، اذا هي أرادت أن تربيه تربية شريفة ، وتؤدبه بأدب لائق رفيع !

لقد بَلَوْتُ هذا كله ، وما خطر لي يوماً أن أعقد زواجاً آخر ، أو أن أُدخل زوجاً آخر إلى بيت أبيك . ولقد صمدت وحيدة في وسط العاصفة واجتزتُ وحدي أتون الترمل الهائل . ولا شك عندي في أن العناية الالهية لم تتخلَّ عني . ولكن أكثر ما شجعني على الاحتمال انما هو وجودك أنت ، انما هو وجهك الذي بقي يحفظ لي صورة حيةً لمن فقدته ! أجل وجهك الذي ما زال يذكرني بتلك الصورة تماماً ، بكل قسماتها وإيحائها . هذا ما كان يعضدني ويحفظني ثابتة العزم ! في طفولتك ، حين لم تكن تحسن النطق ، في تلك السن التي يكون فيها الأولاد موضوع فرح والديهم ، كنت أنت موضوع تعزيتي .

هذا ولقد تحملت الترمل بشجاعة وثبات . ولا سبيل لك إلى أن تتهمني بأن ذلك كان على حساب تركة أبيك . فعلى الرغم من الحاجة الملحة والعَوَز الذي عانيته ، لم أصرف منها شيئاً ولا أنقصتُها - كما هي الحال عند كثير من الأيتام - بل بقيت لك سالمةً لم تُمس . وقد انفقت على تعليمك من جيبي ومن المال الذي

أصابني من بيت أبي .

ولا يذهبَنَّ بك الظن إلى أني أمتنُّ عليك بذكر احساني اليك . كلاّ . ولكني لا أطلب منك ، على صنيعي معك ، سوى منةٍ واحدة . هي : أن لا تذيقني الترمل مرةً ثانية ، وأن لا توقظ في نفسي ألماً هاجعاً . انتظر رحيلي من هذا العالم ، فقد يكون قريب الأجل ! في سن الحداثة يأمل الانسان أن يعيش طويلاً ، وأن يبلغ الى شيخوخة متناهية . وفي مثل ما مضى من عمري لا ينتظر المرء سوى الموت . فعندما يواريني الثرى ، وتضم ، مرة ثانية ، جسدي الى جسد أبيك ، سافر انّى شئت ، وأبعدْ سفرك ما أردت ، وارم بنفسك في بحر اختيارك . فما من أحد يمنعك عندئذٍ . أمّا ما دامت أمك تتنفس الهواء ، رجوتك يا بني الاّ ترفض البقاء معها . وقد تُسخط الله اذا أنت أغرقت في الآلام ، بغير فائدة ولا سبب ، أماً لم تفعلْ بك قطُّ سوءاً .

أنا لا أريد الا أن تكون معي . ولو كان لك أن تقول اني أريد أن أقيّدك بهموم الحياة ، أو أن أجبرك على الاهتمام بأمور معيشتك اذاً لقلت لك : تجاوز نواميس الطبيعة ، ومبادىء التربية واللياقة ، ولا تتقيد بأي اعتبار ، واهرب مني هربك من عدو ينصب في سبيلك الاشراك . أمّا ، والأمر على العكس من هذا ، أعني اذا كان صنيعي معك يوفّر لك الحرية والوقت لتنظر في الطريق الذي ستختاره ، فلأجل هذا السبب نفسه ينبغي لك أن تبقى معي . ولا تصدق أن أحداً من أصدقائك ، مهما يكن عددهم ، ويشتد تعلقهم بك ، يستطيع أن يقدم لك التسهيلات التي أقدمها أنا لك ، من أجل بلوغك هدفك . ذلك لانه ما من أحد يهتم بك ويعنى بسعادتك مثلي أنا » .

لا أورد ، إلى هنا ، الا بعض كلمات أمي . وقد أعدتُها على مسمع صديقي الذي ، اذ كان أبعد من أن يتأثر بها ، ضاعف إلحاحه ، وأظهر أنه أرغب في السرعة الى بلوغ هدفه من ذي قبل . وبين إلحاحه ، ورفضي شاع في تلك الآونة فجأة ، نبأ القى في روع كل منا حيرة واضطرابا . فقد بَلَغَنا أن النية متجهة الى رفعنا كلينا الى مرتبة الكهنوت . أما أنا فقد ألقاني هذا النبأ في الخوف والدهشة معاً : ففيما كنت أخشى أن يتحقق هذا النبأ وأرسم بالرغم عني ، رحت

أجهد فكري ، من الجهة الثانية ، لأعرف كيف وقعت لهم عني هذه الفكرة ! وقد فتشت وفكرت طويلاً فلم أجد فيَّ ما يوحي بمثل هذه الفكرة أو بمثل هذا الاستعداد . أما صاحبي فقد جاء اليَّ وانفرد بي ليبثني نبأه كما لو كنت لم أسمع به . وألح عليَّ أن نظهر اتفاقنا في الرأي والموقف من هذا الخبر . وقد صارحني أنه يريد أن يتبعني أياً كان السبيل الذي سأختاره: الهرب من الكهنوت أم قبوله . ولكني أدركت ما أنا واقع فيه من خطأ كبير نحو الكنيسة ، اذا أنا سايرت رفيقي على رأيه . فاني لعدم لياقتي أنا للكهنوت ، سأجر صديقي الى الهرب منه ، وسأسبب بالتالي في حرمان قطيع المسيح من راع فتي عظيم كهذا ، فيه اللياقة كل اللياقة لرعاية الشعب المسيحي . . . ! ولذلك كتمته ما اعتزمت عمله دون أن أظهر له شيئا . ومع أني لم يسبق لي أن كتمته شيئاً في جميع الأوقات ، فقد قلت له هذه المرة مموهاً : يجب أن نرجىء الاهتمام بهذا الامر إلى وقت آخر . . . وما من داعٍ الى التسرع . كنت أؤكد له ضرورة عدم الاهتمام بهذا النبأ في الحاضر . كما كنت أؤكد له أيضا أنه يستطيع أن يعتمد عليَّ ، وأني سأوافقه كل الموافقة فيما يجب ان نعمل حين يتبيَّن طريق الاختيار .

وانقضت أشهر حتى كان اليوم الذي عزموا فيه على رسامتنا[1] . فاختفيت أنا دون أن أقول لصديقي شيئاً . أما هو فقد ذهب الى الكنيسة ، وظن انه قد دُعي لغير هذا القصد ، فاذا به يحني رأسه ويقبل النير المقدس على كتفيه ، وفي نفسه اقتناع متين بأن دوري سيعقب دوره ، اذا لم يكن قد سبقه . واليك السبب الحقيقي الذي جره الى التوهم . لقد حاول أول الأمر أن يقاوم حين ارادوا ان يجبروه على القبول بالرسامة ، إلا أن قوماً من الحاضرين اظهروا استغرابهم لأن يقبل الرسامة ببساطة ، مَن هو في نظر الجميع أصعب مراساً ، وأن يرفضها من هو أوفر دَعَةً ، وأسلس قياداً ! وعلى هذا لم يعد صاحبي يبدي مقاومة قط . ولم يعلم اني قد نجوت من الفخ الا بعد أن وقع هو فيه .

وبعد أيام جاءني صديقي ، وكان حزنه عظيماً ، فقعد الى جانبي ، وحاول

---

(١) شاع خطأ استعمال كلمة : سيامة بدل رسامة والصحيح : رسامة من رَسم كما في القاموس .

أن يتكلم ، فلم يستطع الى التكلم سبيلاً . كان يريد أن يبين لي هول ما نزل به . كان يفتح فاه ، ولكن الكلام كان يخونه . واذا أسعفه فبكلمات مترجرجات متقطعات . ولما رأيته باكياً شديد الاضطراب ، لم أجرؤ على أن أبيِّن له بالتفصيل كل ما جرى . على أني لم استطع أن أمسك نفسي عن الابتسام ، وإخفاء كل ما كنت أشعر به من فرح تخفق به جوانحي . ثم أمسكت يده ، وأكببت عليها تقبيلاً وأنا أقول : تبارك الله الذي أخرج حيلتي مخرجاً حسناً مفيداً ، هو غاية كل ما أستطيع أن أتمناه . غير أن سروري به ومعابثتي إياه ، ما كانا الا ليزيدا في حزنه وانفعاله. ولما تبين له أن ثمة حيلة انطلت عليه ، استشعر حقيقةً ألماً عظيماً وبعد أن سكن روعه قال :

باسيليوس

مرحى مرحى أيها الصديق ! اضحك واسخر بي ما شئت ، فانك مستحل هذا . بل أنت مستحل ألاَّ يهمك شيء من أمري بعدما استجزت خرق صداقتنا واحتقارها . ولكن عليك ، على الأقل ، أن تهتم لسمعتك وما شاع عنك وما يشيع : فقد شُحذت الألسنة وانطلقت حِداداً ، تلتمس السبل الى مثلبتك . . . والشائع عند الناس جميعاً هو أن ما جعلك ترفض الكهنوت ، انما هو الكبرياء والمجد الباطل . فبت لا أقدر أن أغشى شارعاً أو أشهد مجتمعاً ، لأن هناك كثيرين يحيطون بي ليرموك أمامي وعلى مسمعي بهذه التهمة نفسها . وما يكاد أصحابي يلتقونني في أي مكان من المدينة حتى يسرعوا اليّ ، وينفردوا بي ، ويقولوا لي : «انك أنت المذنب ، ولمَ لا ؟ كنت على علم وكيد من مقصد صاحبك ، ولم يكن ليخفى عليك شيء ، فما كان من اللائق بك أن تلوذ بالصمت . بل انما كان عليك أن تكشف لنا الأمر . واذن لكنا وجدنا سبيلاً الى القبض عليه» . يقولون لي هذا ، وأنا غير قادر على أن أنكر أمامهم معرفتي بقصدك الذي كنت كشفته لي ، وعاهدتني عليه منذ زمن طويل . واني لأحس بدم الخجل والارتباك يصبغ وجهي اذا ما مر في خاطري ذلك العهد ، فما بالك بانكاره أمامهم ؟ ! ولا أستطيع ، فوق هذا وذاك ، أن أقنعهم بأن صداقتنا لم [illegible]اً . والواقع يثبت أن صداقتنا لم تكن الآ رياءً ـ وهي كذلك فعلاً ، ولئن

تستطيع أن تزعم العكس بحالٍ من الاحوال بعد سلوكك معي هذا المسلك -
ونحن بعد هذا لا نستطيع حتى أن نعرض على الغير ما حدث بيننا ، وهم ينظرون الى صداقتنا نظرة الإعجاب . لا يمكنني أن أقنعهم بحقيقة موجودة في صداقتنا بالمقابلة الى ما حدث بيني وبينك . ولذلك أراني مجبراً على الصمت والتسليم ، او المجانبة والتهرب ما أمكنني ذلك . واذا أنا نجوت من شكاية رُميتُ بشكاية أخرى حتى أنني أتهم بالتواطؤ معك ،واخفاء سرك . لأنه ما من أحد يقبل أن يقتنع بأن باسيليوس لم يكن صديقك العزيز ، وأنه لم يكن بالتالي شريكك فيما نويت. . . ولكن ما لي أكلمك وأنت تضحك ؟ !! ليست هذه وحدها هي السهام التي يرموننا بها ، بل إليك ما هو أمضُ منها : اذا كان البعض لا يرون فيك إلا كبرياء وغروراً ، فليس الآخرون ، على اعتدالهم ، أشد رفقاً بي منك . فقد بلغ بهم الأمر الى أبعد من هذا الحد ، إلى تنقُّص الذين دعونا الى رتبة الكهنوت والشماتة بهم ، فقال قائلهم : لقد نال الناخبون جزاءهم الذي يستحقونه ، وحُقّت عليم الملامة ، ولاقت بهم الشماتة في هذين المنتخبين . كيف لا ، وقد أقصوا عن الكهنوت رجالاً اكتمل نضجهم سناً وعقلاً ، وراحوا يفتشون عن أحداث ، كانوا ، للأمس القريب ، غارقين في ملاهي العصر وتبذلاته ،وسرعان ما رفعوهما الى مجد وكرامة ما كانا يحلمان بها يوماً ! وذلك لأنهم رأوهما يتشحان السواد ، ويُغضيان في الحديث ، ويُطرقان الرأس في المشي ، ويصطنعان التواضع المنطوي على الرياء ! لله أمر هؤلاء الناخبين وأمر رؤسائهم ! . . . رفعوا الى درجة الكهنوت هذين الفتيين ، وتركوا في صف العلمانيين أولئك الذين قضوا معظم العمر في النسك والتقشف ، بل جعلوهم تحت قيادة من كانوا أتباعاً لهم ، ومن ليس لهم علم بأصول تدبير الكنيسة وقيادة المؤمنين !! . . . بمثل هذا الكلام واشباهه يزعجون مسامعي بلا انقطاع . . .
ولست أدري بمَ أجيب على مثل هذه التهم والشكايات ؟ واني لأحب أن أعلم بم تجيب أنت ؟ . . أجبْ . . . فاني لا أظنك تخلصت وهربت في غير اكتراث ، وبلا قصد ، وبدون سبب ومبرر . ولكي تستطيع أن تخوض معركة مع أناس بهذه الصفة ، لا بد لك من الرأي السديد ، والمنطق المؤيد بالحُجة الدامغة .
فهلاّ بسطت لي أجوبتك التي يجب أن نتذرع بها لنضع ، أخيراً ، حداً لكل هذه

الشكايات والتهم ؟

هذا ولست بقائل شيئاً عن أخطائك التي كنت أنا وحدي ضحيتها . فلقد خدعتني وخنتني ، وأسأت دائماً الى صداقتي . أسلمتك قلبي ، وأشعرتك أمانتي جانبك الى أبعد حد ، فتصرفت معي بمكر وتحفظ كتصرفك مع أسوأ الأصدقاء !واذا كان الكهنوت قد بدا لك شيئا مشتهى فلماذا هربت منه ؟ واذا كان قد بدا لك شيئا خطراً ، فكان من الواجب ان تحذرني من خطره ، أنا صديقك المخلص ، كما تزعم ! غير أنك فعلت بي العكس ، وما تركت في وسعك شيئا الا فعلته لكي توقعني في هذا الشرك ! وما أظن انك كنت محتاجا الى الخديعة والحيلة مع رجل من شيمته البساطة والبعد عن اللف والدوران . ولكني أراني قد أخطأت في عتابك . وأقول من جديد اني لن أعاتبك بعد على شيء .

لست أشكو من الوحدة التي اسلمتني اليها فجأة بقطعك هذه العلائق الودية التي طالما تمتعنا بها ، وجنينا فوائدها الثمينة . ولكن فلأدعْ هذا أيضاً .أريد أن اتحمله دون أن أقول شيئاً . بل سأحمل نفسي على القبول به بلطف ، لا لأنه لم يكن في معاملتك اياي شيء من اللطف ، بل لانني عزمت عزماً أكيداً ، منذ يوم عقدت لواء الصداقة معك ، على ألاّ أبرّر نفسي أمامك مهما يكن من إساءتك اليّ .

هذا ، ويجب أن تعلم أن البلاء الذي أنزلته بي ليس بلاءً هيناً ! تذكر ما كان يتحدث به الناس عن صداقتنا، الشيء الذي كنا نفخر به، وكان يسرنا أن نردده دائماً . ولهذا كان يجب أن نستنتج من هذه الصداقة فوائد كثيرة . كان يجب ان يكون لنا منها سندٌ ومعونة الواحد للآخر ، فنفيد منها ويُفيد الآخرون . وأنا ، مع أني لا أدّعي امكانيتي افادة أحد ، الا أنني اعتقد أننا كنا نستطيع أن نحصل من دوام صداقتنا على أننا ، اذا هوجمنا ، وكنا متحدين ، يصعب على الغير قهرنا .

كنت اردد على سمعك أن الأيام شريرة ، وأن الأشراك منصوبة في سبيلنا . لقد انعدمت المحبة الحقيقية وحل مكانها الحسد القاتل . ما أكثر الاشخاص الذين يتربصون بنا ، ويهتبلون الفرص ليفيدوا من قطيعتنا ! ولن تجد انساناً

واحداً يحس معنا ما نحن فيه ، ويشاركنا بلاءنا . فلا نفترقنَّ اذن لئلا نكون سخرية للناس ، ومضغةً في الأفواه ، ونجلب علينا خسراناً عظيماً. « الأخ للأخ أمنع من مدينة محصنة » (امثال ١٨ : ١٩) . فلا تجعل في المدينة ثغرة ، ولا تفتح فيها مصراعاً . . هذا بعض ما كنت أردده على سمعك غالباً .

لَكَمْ كنت استبعد حدوث ما حدث ! وكنت أتصوّر أن كل شيء يسير نحو الأحسن . وكنت أرى أن صداقتنا في أشد قوتها ، ومع هذا فما زلت أعمل على تمكينها . ولكن ، على غير علم مني ، وكما برهن الواقع ، كانت صداقتنا مريضة ، على الرغم من عنايتي بها . وقد ذهبت كل معالجاتي أدراج الرياح ، ولم استفد من جميع الاحتياطات التي اتخذتها ! وأنتَ ! أنت الذي لم تتقيد بأي اعتبار ، اطَّرحتَ هذه الصداقة وقطعت علاقتي بك ودفعتني الى اليم الواسع كسفينة لامرسى لها ، من غير تقدير لغضب الأمواج التي تتجاذبني فيه ، وعليّ أن اقاومها وحيداً ! فمَن لي باليمين تسندني يوم تثور عليّ شياطين النميمة والسخرية والحقد والاضطهاد ، ويعلم الله ما أكثرها ! ؟ الى مَن أفتح قلبي في أحزاني ؟ من يدافع عني ؟ ومن يأخذ السبل على أعدائي ؟ ومن يمنعهم من سحقي بضرباتهم ؟ من يعزيني ؟ ومن يساعدني على الحملات الجديدة ؟ لن أجد لي سنداً ،بعد أن انسحبت بعيداً عن ساحة المعركة، فبت لا تسمع لي صوتاً ، ولا تأتيني منك نجدة ؟ هل تبينت الآن مدى البلاء الذي أنزلته بي ؟ . . . ولكن لا نتكلم عن هذا . ما قد حدث فقد حدث . لا نلتمس مخرجاً من حيث لا مخرج . وانما يهمنا ان نعلم ماذا يجب أن نقول للناس الذين يهاجموننا وأي جواب عندك على شكاياتهم ؟

يوحنا

على رِسلك أيها الصديق !ثق واطمئن .ان جوابي حاضر . وعندي ردّ على ما تفضلت باعفائي من الرد عليه . ولأبدأ به أولا . فانه يقبح بي أن أسكت عما يُنسب اليّ من قلة الوفاء والكفر بالصداقة ، وعدم الاهتمام بالرد على ما يتهمني به صديقي من غشي وخيانتي وقطيعتي، وأن أحصر الاهتمام بالرد فقط على مطاعن وفريّات تأتيني من أناس لا تصلني بهم صلة من الصداقة .

فما هو ذنبي عندك أيها الصديق الكريم ؟ أهو أني خدعتك وأخفيت عنك مقصدي ؟ حبذا الذنب هذا ! وانني لعلى يقين من أنـي بعملي هذا أحسنت اليك ، والى الذين خدعتهم معك . واذا كان من الجائز استخدام الخدعة لأجل النفع ، فاسمح لي بأني استخدمتها، واني مطالب بعد هذا ، بطائلة المضرة التي جلبتها عليك كما يطالب المجرمون . ولهذا لا يجوز لك ان تتهمني بأني غششتك وأضررت بك . أوردْ بينة واحدة فقط على أني استعملت الخدعة لغير النفع .
واذا افترضنا ، عكس ما أبرهن لك أنا ، برهاناً من السفسطة ، فان مثـل هذه الخدعة لا تستحق غير الإعجاب في نظر الذين يعرفون معنى العدالة . ان الخدعة المفيدة في الحروب مثلا ، يا صديقي ، هي من الأهمية بحيث أن أسمى ألقاب المجد لأكبر القادة قديماً ، انما أطلقت في أكثرها على الذين فازوا بالخدعة والمهارة الممدوحة ، لا بالانتصارات القائمة على القوة الغاشمة . ان الانتصارات التـي دُفع ثمنَها مالٌ كثير ، أو حياة رجال كثيرين لا تفيذ المنتصر شيئاً : يكون قد خرج من المعارك بعد أن مُحِقَت جيوشه ، وفرغـت خزائنـه من المال ، فلا ينالـه من انتصاره أكثر من المغلوب ولا أقل منه . ولعلك تقول انها أفادته مجداً . فأجيبك كلاً ! ان المجد انما يناله أولئك الذين صُرعوا في القتال كما يناله الغالبون لأن من يُصرع في ساحة القتال ، انما يُصرع جسده فقط اما نفسه فلا . فقد يسلم المقاتل ويموت ، ولكن كفاءته تبقى سالمة ، وقيمته لا تنقص ، ومجده لا يموت. امـا الانتصار القائم على الخدعة ، فلا يلحق بالعدو ضرراً ، بل يجعل هزيمته أشد نكرا وسخراً . في معارك القتال يكون الفريقان : الغالب والمغلوب مستحقـين الثناء . وأما في حرب الخدعة فلا يحق الثناء الا لمن أبدى المهارة ، وبالتالي فيكون المجد للغالب غير منازع . وهناك شيء آخر في انتصار الخدعة جدير بالتقدير ، فضلاً عن توفير الخسائر في المال والرجال ، هو المجد الذي يثمر فرحاً لا يعكره شيء . وشيء ثالث ، هو الفرق الكبـير بـين استخـدام القـوى المادية الحـربية والقـوى الفـكرية . فقـد تتعطـل الأولى في الحـروب ، وبـين أيدي الـذين يستعملونها ، فيصبح أصحابها عزلاً لا قوة لهم ، على حين تزداد قوى الفكر على الاستعمال نمواً وقوة ، وكلما استعملت تضاعفت قوتها وفعاليتها .

وليس استعمال الخدعة مقصوراً على الحروب . بل في أوقات السلم يجد

الانسان عدة مناسبات يجُبر فيها على الالتجاء الى الخدعة ، لا في الشؤون العامة فحسب ، بل في الخاصة ، حتى في داخل البيت . يستخدمها الزوج مع امرأته ، والمرأة مع زوجها ، والأب مع أولاده ، والصديق مع صديقه ، والأبناء مع آبائهم . ان ميكال امرأة داود ما كانت لتنجح في انقاذ زوجها من يد أبيها لو لم تلجأ الى الخدعة . وكذلك أخوها يوناتان ، ما كان لينجح مرة ثانية ، في انقاذ داود من الخطر لو لم يخدع أباه أيضاً .

باسيليوس

لسنا في شيء مما تقول : فليست القضية قضية أعداء أو خصوم أو أشخاص سعوا الى مضرتك . وانما هي قضية رجل تقيد برأيك ومشورتك ، ولم يعمل شيئاً بغير موافقتك ؟

يوحنـا

أجل أيها الصديق الكريم ! ولهذا قلت لك آنفاً إن الخدعة جائزة الاستعمال لا في الحروب ومع الأعداء فقط ، بل مع الذين هم أحب الناس الينا . ولكي تقدّر ان الخدعة تفيد المخدوعين بها والخادعين ، اسأل الطبيب كيف يعالج أكثر الأحيان مرضاه ، يقلْ لك ان طبه لا يجديه نفعا اذا لم يعتمد على الخدعة في أكثر المعالجات . فحينما تستعصي الامراض ، وينفد صبر المريض ، وتسوء قابليته للعقاقير ، يكون الالتجاء الى الخدعة ، واختراع وجوه التضليل ، أفضل وسيلة لشفائه . واليك شاهداً سمعته من هذا القبيل عن أحدهم :

كان رجل يئن تحت حمّى شديدة الوطأة .وكانت حرارته تزداد ساعة فساعة، ولم يكن هذا المريض ليقبل شيئاً من الأدوية يخفف لهيب هذه الحمّى . كان به عَطَش محرق ، ولم يكن يطلب سوى خمرة صرف تلطف حرارته . وكان الطبيب يحذر بشدة ، من إجابته الى طلبه ، لأن من يجيبه الى طلبه ، كمن يدفع في النار المشتعلة وقوداً جديداً . ويخُشى من ارتفاع درجة الحرارة الى حد ان يصاب المحموم بالهستيريا أو الجنون . ولما عجز الطب عن حمل هذا المريض على تجرع الدواء الشافي ، جاءت الخدعة لتقوم مقام الفن . أخذ الطبيب قدحاً خزفياً

وغمسه في الخمر ، ثم ملأه ماءً طيباً ، وأمر فأُسجفَت الغرفة حتى انقلب النور فيها ظلاماً دامساً . وأعطي المريض في وسط الظلمة أن يكتاب[1] ذلك الدواء. تناول المريض الكوب بيده ، فانخدع بريحه ، ولم تسمح له الظلمة أن يرى ما في داخله .وبدافع من شهوته الملحة جرعه حتى الثمالة من غير فحص أو تدقيق. واذا بالحمّى تفارقه ، واذا به لم يعد يشعر بالعطش . واخيراً تعافى . . . فهذا هو فعل الخدعة ! وكنت أود أن أسوق لك شواهد أخرى ليس هذا مقامها . ولا يقتصر استعمال الخدعة على معالجة أمراض الأجسام . بل يفيد في أمراض النفوس أيضاً . فقد التجأ اليها القديس بولس الرسول لأجل إقناع اليهود واكتسابهم الى الايمان : فنجد أنه قد أمر تلميذه تيموثاوس بأن يختتن في حين أنه قد شرع في رسالته للغلاطيين بأن المختونين لا يستفيدون من ختانهم شيئاً عند المسيح . وقد طبق هو نفسه الناموس اليهودي على حين يجزم بأنه ، بعد التبرير والخلاص بالمسيح ، ليس في الناموس القديم تبرير ولا خلاص .

هذه هي أهمية الدور الذي تلعبه الخدعة شريطة ألاّ تُستخدم إلا في مقصد نبيل ومفيد . وفي هذه الحالة لا تسمى خدعة ، بل فطانة وحسن تصرف . فإذ قد تبين لك أيها الصديق الحبيب مما سبق من كلامي أن الخدعة حسنة اذا استُعملت في سبيل الخير ، لا أرى حاجة إلى أن أزيد على ما قلت شيئاً كما أنه لا سبيل لك بعد الآن إلى أن تقول إني خدعتك . ولم يبق عليك سوى أمر واحد ، هو أن تثبت لي أنني أسأت اليك ولم أعمل لخيرك .

باسيليوس

ما هي المنفعة الكبرى التي حصلت عليها من وراء فطنتك وحسن تصرفك مهما يكن الاسم الذي تطلقه عليها ؟ وكيف لي إلاّ أن أسميها خدعة مشؤومة ؟

(١) يشرب بالكوب

المقالة الثانية

هيبة الكهنوت

يوحنا

وهل نحصل على منفعة أكبر من منفعة القيام بالخدمة التي هي حسب قول السيد المسيح ، الشهادة على محبتنا له ؟ : « أتحبني يا بطرس ؟ . . نعم يا سيد ! . . اذن ارعَ خرافي » (يوحنا ٢١ : ١٥) . إن السيد في سؤاله بطرس ، لا يقصد أن يستعلم ، وهو العلاّم بذات الصدور ، بل أن يعلمنا نحن مبلغ اهتمامه برعيته ، وأهمية وعظمة الرسالة التي يقوم بها راعي قطيع المسيح الروحي . والشيء الذي لا يقل أهمية عن هذا ، انما هو ذلك الأجر الكبير الذي يحفظه السيد لخادمه . حين نرى خادمنا يعنى جيداً بقطيعنا ، نتخذ من عنايته دليلاً قوياً على محبته لنا ، والأمر ،أمر قطيع اشتري بالمال. فأية مكافأة أعظم من المكافأة التي ينالها من يرعى للمسيح قطيعاً ، لم يشتره بمال ولا بما يشبه المال ، بل اشتراه بدمه الخاص!؟ وحين نسمع بطرس يقول: «أنت تعلم يا سيد أني أحبك»ـكأنه يؤكد للسيد محبته له ـ نظن أن السيد قد اقتنع من محبته وأخذ الجواب على سؤاله . غير أن السيد لم يقصد هذا ابداً . وانما كان يقصد أن يعرّف بطرس ، كما يعرّفنا نحن ، طريقة إظهار محبتنا له ، بمحبتنا للكنيسة ، التي أراد أن يهدي بطرس ويهدينا نحن إلى محبتها .

لماذا أعطانا الله تعالى ابنه الحبيب ؟ ولماذا لم يوفر هذا الابن الوحيد ؟ لأنه كان يريد أن يجتذب اليه قلوباً كانت تتباعد عنه ، ولأنه كان يريد أن يختار لنفسه شعباً . ولماذا بلغت به محبته الإلهية الى أن أهرق دمه ؟ انما اهرق دمه لكي يشتري هذا القطيع الذي وكل برعايته الرسل القديسين . « من هو ذلك الخادم الأمين الحكيم الذي أقامه سيده على أهل بيته ؟»(متى ٢٤ : ٤٥) . الظاهر هنا أن

السيد المسيح ، يسأل عن شيء ، مع أنه يعلم جيداً ما يسأل عنه.وهكذا فقد سأل بطرس لا لكي يعرف محبته له ، بل ليعلمه الطريقة التي بها يظهر هذه المحبة . وهنا يسأل أيضاً : « من هو ذلك الخادم الامين الحكيم ؟» تعظيما لشأن ذلك الخادم وخدمته ، وتعظيماً لمكافأته ان سيده يقيمه على جميع أعماله .

اتلومني أيضا على أنني خدعتك وأنت الآن على رأس القطيع الذي يملكه المسيح ، تقوم بنفس الوظيفة التي استحق الرسل الأطهار أن يقوموا بها ؟ «أتحبني أكثر من هؤلاء يا بطرس؟-قال له السيد المسيح - اذن ارعَ غنمي».فلقد كان من الجائز أن يقول له : اذا كنت تحبني فصم الأصوام الطويلة ، وافترش الأرض القاسية ، واقطع الليالي سهراً وتهجداً ، وكن للمظلومين نصيراً وللأيتام أباً ، ولأمهاتهم سنداً . لم يقل شيئاً من هذا بل قال « ارعَ غنمي».وما عدا هذه من الأعمال المسيحية ، فيستطيع أكثر المؤمنين البسطاء أن يقوموا بها بسهولة ، سواء في ذلك الرجال والنساء . ولكن عندما تكون القضية ، قضية ادارة الكنيسة ، وقيادة النفوس ، فتلك اذن مهمة جلىً ، يُبعد عنها النساء ، ولا يُدعى الى الاضطلاع بها ، الا نفرٌ قليلون من البشر . فلا ينبغي أن يُرفع الى مقام الكهنوت الأ الذين يمتازون عن غيرهم بالفضائل ، بقدر ما كان شاوول بنُ قيس يمتاز بطول قامته على كافة الشعب . وماذا اقول ؟ وأين وجه القياس ؟ بل يجب أن يكون الفرق بين الراعي وقطيعه ، كالفرق بين البشر والمخلوقات غير العاقلة . واذا شئت فقل اكثر من ذلك ، لأن مسؤولية الكاهن هي أعظم بما لا يقاس من مسؤولية الراعي .

إن الراعي ، اذا فقد شيئاً من أغنامه - سواء سطا عليها الذئاب ، أم اختطفها السارقون ، أم فتك بها المرض ،أم لغير ذلك من الأسباب- يستطيع أن يبرر نفسه أمام سيده . وإن وقعت عليه جريمة فقدها ، فإنه يستطيع ان يعوِّض عنها من أتعابه . أما مَن وُكِل رعاية النفوس ، أي قطيع المسيح الروحي ، فعليه أن يعوِّض عن فقد الأغنام ، لا بمال ، بل بنفسه . والجهاد الذي عليه أن يقوم به ، يختلف عن جهاد ذاك مشقةً وخطراً . فليس عليه ان يناضل الذئاب واللصوص والمرض . ان القديس بولس يقول في رسالته الى أهل أفسس : « ان

مصارعتنا ليست ضد لحم ودم بل ضد الرئاسات والسلاطين ، وولاة هذا العالم ، عالم الظلمة والأرواح الشريرة التي في الهواء » (افسس ٦ : ١٢). نضال الكاهن هو ضد هذه العصائب المخيفة من الأعداء ، وضد هذه الحملات المرعبة التي لا يحتاج جنودها الى سيف ونار ، لأن لها من طبيعتها أسلحة ، أين من فتكها أسلحة البشر جميعاً ؟ . . . واستمع أيضاً الى بُولس نفسه ، بعد أن اشهدنا من الأعداء جحفلاً غير منظور ، يُشهدنا جحفلاً آخر عنيداً مكشوف الحرب والعداوة في عمل اللحم والدم وهو : « الزنى والنجاسة ، والعهر ، وعبادة الأوثان ، والسحر ، والعداوات ، والخصام ، والغيرة ، والمغاضبات والمنازعات ، والمشاقات ، والبدع ، والمحاسدات ، والقتل ، والسكر ، والقصوف ، وما يشبه ذلك » (غلاطية ٥ : ١٩ - ٢١) ، وهو لا يسمي الكل بل يترك لنا أن نفطن إلى الباقي مما يقوله .

ولْنعد الى مقابلتنا بين الراعي والكاهن . ان الغزاة عندما يغزون قطيعاً لا يرغبون من راعيه في شيء ، ولا يطاردونه ، بل يكفيهم أن يضعوا ايديهم على القطيع . وليست الحال هكذا مع قطيع المؤمنين ، لأن الغزاة لا يكتفون بسلب القطيع ،بل يرغبون في سيادة الحظيرة كلها. لذلك فهم لا يعفّون عن الراعي بل تراهم لا يندفعون بجنون شديد الا عليه فيبلغ مجهودهم أقصى جد . ولا يتراجعون أبدا ما لم يصرعوه ، أو ينهزموا فيخسروا المعركة .

واذا نظرنا من ناحية ثانية الى أمراض الحيوانات نرى أنه يسهل على الانسان معرفة اسبابها : فقد يكون الجوع هو السبب ،وقد يكون الطاعون ، وقد يكون بعض الجراح تصاب بها. لذلك فطرق معالجتها وشفائها متوفرة. وهناك تسهيلات كثيرة للرعاة في معالجة أغنامهم من أمراضها ، اذ أنهم يستطيعون ان يجبروها على اتخاذ الدواء حتى في حال نفورها منه ، فليس أسهل على الرعاة من ربط أغنامهم اذا ارادوا كيّها أو قطع شيء من أعضائها . وليس أسهل عليهم من ان يحبسوها في حظائرها عندما تدعو الحاجة الى أن يعلفوها بغير علفها المعتاد ، والى أن يبعدوها عن مجاري المياه الخطرة ، وبعبارة واحدة الى أن يوفروا لها السلامة والعافية .

أما أمراض النفوس فعلى خلاف ذلك تماماً . فليس من السهل قبل كل

شيء اكتشافها: «ما من انسان يعرف ما في نفس انسان آخر» (١كور ٢ : ١١).
فكيف يمكن ان نصف علاجاً لمرض نجهله، بل نجهل على الغالب وجوده؟ وهب أنك توصلت الى معرفة المرض، ترى عندئذ أن الصعوبات تزداد، لأننا لا نستطيع ان نعالج النفوس المريضة بالسهولة التي بها يعالج الراعي أغنامه. اننا نحتاج في هذه المعالجة أيضاً الى ربط المريض وحرمانه من الطعام والى كيّه، أو قطع شيء من الزوائد الفاسدة فيه. ونجاح الدواء لا يتوقف على مقدرة الطبيب، وانما يتوقف على ارادة المريض. وهذا ما فهمه حسناً بولس العجيب حين قال: «لسنا نفرض عليكم إيماننا وانما نلتمس سعادتكم» (٢ كو ١ : ٢٣) فليس في المسيحية اكراه للمرء على إصلاح نفسه.

إن قانون العدالة المدنية إذا تناول مسيئاً، فإن السلطة المدنية تملك جميع الوسائل لمنعه من الإساءة. أما نحن، فلا نستطيع أن نستعمل معه القوة. وليس لنا سوى وسيلة الإقناع ليحسن حالته. والقانون المدني لا يخولنا الحق بإكراه الخاطىء، وإذا خولنا هذا الحق، فلا نستطيع أن نعمل به، لأن الله لم يعد بالمكافأة الذين يبتعدون عن الشر مكرهين بل الذين يبتعدون عنه، بمحض إرادتهم.

ولهذا فينبغي أن يستعمل الكاهن كثيراً من المهارة ليحمل الخاطىء على الخضوع بطيبة خاطر إلى معالجته، وأن يقبل منفعة العلاج والأدوية.

إن المريض الموثق، إذا حاول أن يحل وثاقه، فلا نستطيع أن نمنعه من ذلك، ولكن عمله يزيد في سوء حالته الصحية. وإذا طرح النصائح الصحية، فلا تفيده مكابرته سوى توسيع جرحه، وبالنتيجة فليس للدواء فعل إلا في استفحال المرض. وأخيراً فإن شفاء المريض بالقوة هو أمر مستحيل.

فما العمل إذن، إذا استعمل التساهل حيث ينبغي التشدد؟ في التساهل عدم الشفاء، وفي التشدد تنفير المريض وإيقاعه في القنوط واليأس. وأستطيع أن أعدد لك كثيرين من الذين وقعوا في هوة اليأس لأنهم عوملوا بقسوة على خطاياهم.

فلا يلزم أن تقاس العقوبة بالخطيئة ، بل يجب أن يوضع في الحساب وضع مرتكب الخطيئة ، حتى لا يزاد الفتق من حيث يراد رتقه ، ولكي لا يزاد في عظم سقطته من حيث يراد إنهاضه منها . إن ذوي النفوس الضعيفة المتعلقين بالدنيا المأخوذين بنفوذهم وغرورهم ، إذا اقتيدوا بلطف وبحسن تصرف الى الطريق المستقيم فإنهم يستطيعون أن يتخلصوا شيئاً فشيئاً من أغلال خطاياهم . في حين أنهم اذا أخذوا بالعنف يحدث ذلك عندهم رد فعل معكوس .

إن الذي ذهب التعنيف الشديد بماء وجهه ، فأفقده الحياء ، يُصاب بعدم المبالاة ، فلا يشعر بقيمة الأقوال الجميلة ، ولا يفعل فيه تهديد أو وعيد ، ولا يلمس الإحسان قلبه ، بل يُصبح أشد رداءة من تلك المدينة التي يعنيها النبي بقوله : « وصارت لك جبهة امرأة زانية وأبيت أن تستحيي »(أرميا ٣ : ٣).

وإلى كم من التمييز ووضوح الرؤية يحتاج الكاهن لكيما يتفحص دخائل النفس من كل الوجوه ؟ فإذا كان هناك أناس زهدوا بالمعالجة بعد أن يئسوا من شفائهم لعدم احتمالهم مرارة الدواء ، فهناك آخرون يقعون في اللامبالاة لأنهم لم يعاملوا بالصرامة التي تستحقها خطاياهم، فيصبحون أردأ من ذي قبل، ويجرهم الاسترسال في لامبالاتهم إلى ارتكاب قبائح شر من الأولى . فيجب إذن على الكاهن أن يفحص كل شيء ويقدره ، قبل أن يقدم عليه ، حتى لا يذهب عمله سدىً .

هذا ، ولا ينحصر سعي الكاهن ونشاطه في معالجة امراض النفوس فقط ، بل إن عليه مهمة أخرى ، لا تقل شأناً عن هذه ، هي أن يضم إلى جسد الكنيسة الأعضاء التي تنفصل عنها . وهذا يكلف الكاهن جهداً كبيراً .

إن راعي الغنم له قطيعه الذي يتبعه إلى كل جهة حيث يقوده . فإذا ابتعدت بعض الأغنام عن الطريق السوي ، أو ضلت مراعيها الطيبة ، وذهبت ترعى في أرض مجدبة ، أو على أطراف الهاويات العميقة فليس عليه إلاَّ أن يصوّت لها ليردها إلى مراعيها التي انفصلت عنها. أما النفوس فإذا ابتعدت عن الإيمان الحقيقي، فعلى الراعي، من أجل ردها، واجب أكبر من الصبر والثبات. ولا

يفكر أن يرجعها بالقوة، وأن يقتادها بالتخويف، لكن بالمثابرة وحدها يستطيع أن يقتادها إلى الحقيقة. أجل يجب ان يكون عندها الشيء الكثير من القوة والثبات حتى لا ييأس من خلاص التائهين، ولكي يقول في نفسه: «من يدري لعلّ الله يعطيهم يوماً أن يعودوا إلى نور الحقيقة. لعلهم يتخلصون يوماً ما من فخاخ الشيطان»: وهكذا، مرة أخرى نردد مع الانجيل: «من هو ذلك الخادم الأمين الحكيم»؟ هذا هو الكاهن.

نعم هو الكاهن ، لا الناسك . الناسك لا يعمل إلا لنفسه . أما الكاهن فيعمل لأجل الشعب كله . لا شك أن هناك طرائق عديدة لخدمة الآخرين . فهناك من يفرّق أمواله على الفقراء ، أو من يساعد بطريقة ما البؤساء والمساكين . هذا أمر نافع للقريب ، ولكن بين هذه الخدمات وبين خدمات الكاهن من الفرق مثل الفرق فيما بين قيمة الجسد وقيمة النفس . فالإحسان إلى النفوس هو في نظر السيد أفضل طريقة نقدم بها شاهداً على محبتنا له .

باسيليوس

أوَ لا تحب المسيح إذاً؟

يوحنا

آه ! بلى إني أحبه وأحبه كثيراً . ولن أنقطع عن محبته ولكني أخشى أن أسيء خدمة من أحبه .

باسيليوس

ما هذا السر الذي لا أستطيع أن أفهم منه شيئاً ؟ المسيح ، كما تقول ، يطلب من الذي يحبه أن يرعى له خرافه وأنت ترفض رعاية خرافه خاصة لأنك تحبه !

يوحنا

ليس هناك سر . الأمر واضح وسهل . آه ! لو أنِستُ من نفسي المقدرة على أن أشغل وظيفة الكهنوت ، ثم هربت منها لمّا دُعيت إليها ، لكان من الحق أن أُلام على هربي . ولكن لمّا كانت إمكاناتي الضعيفة لم تترك لي شكاً في عدم

كفاءتي ، فلِمَ التعلل بغير ذلك ؟ أأتسلّم قيادة قطيع المسيح الحي النامي لأجعله هزيلاً ضعيفاً بسبب عدم كفاءتي ؟ كلاّ ! وإذا فعلت هذا ألا أكون قد استثرت غضب الله ، الذي أحب خرافه حتى أنه أسلم ذاته للموت لكي يشتريها ويخلصها ؟

باسيليوس

لأنتَ ماجن ، وإن تكن تقصد الجد في مقالك . فلست أفهم كيف سِقت أقوالا بليغة سامية ، هي في ذاتها برهان على أن لي الحق أن أحزن . ولقد عرفت قبلاً أنك خدعتني وأنك خنتني . أما الآن وأنت تحاول تبرير نفسك ، فقد أصبحت أشد تصديقاً وأبلغ فهماً وتقديراً لجسامة المساءة التي جلبتها عليّ !

إذا كنت قد تخلصت من الكهنوت لأنك تحققت أنه حمل ثقيل فوق كتفيك ، أفما كان أحرى بك أن تبعدني عنه حتى ولو اتفق أنه كان لي ميل كبير إليه،لا سيما وإني كنت قد أسلمت كل أمري إليك؟ غير أنك لم تتطلع إلا إلى مصلحتك الخاصة وأعرضت عني إعراضاً تاماً . ولو أنك تركتني وشأني لكان الأمر هيناً ولكنك رحت تحفر لي الحفر لتسهل وقوعي في أيدي الذين كانوا يريدون أن يقبضوا عليّ . ولا عذر لذيك عن هذا . ولو لم تكن أعرف الناس جميعاً بدخائل نفسي ، لقلت أنك لم تتعمد إغرائي ، ولكن فلندع هذا الآن . . فهلاّ قلت لي ، رعاك الله ، بماذا نردّ على لائمينا ؟

يوحنـــا

إن الشكايات تأتي بدرجة ثانية من الأهمية . يجب أنَ ننظر قبل كل شيء وفوق كل شيء إلى استحقاق المنتخَب بغض النظر عن صوت الرأي العام . فإن بولس الرسول يقول انه يجب أن يتمتع بحسن السمعة ، ولكن السمعة الحسنة لا تحتل المكان الأول من الأهمية في استحقاقات المنتخَب للكهنوت . وقد أضاف الرسول شرط حسن السمعة إلى كثير من الشروط التي اشترطها للكهنوت ، وبما أني أنا أعرفك جيداً وأكثر من أبويك ، كما تعترف أنت ، فلا سبيل لك إلى لومي بعد.

باسيليوس

إنك مجرم بحقي وخصوصاً لأنك تعرفني ، وبناء على معرفتك لي أنت تستحق اللوم كثيراً . أنسيت سريعاً ؟ ألم تظهر لك حقيقتي عارية ؟ ألم تلاحظ ضعف نفسي ؟ ألم تسخر مني مراراً لأجل قلة نشاطي وسهولة وقوعي في الغضب والارتباك ؟

يوحنا

كنت قد سمعتك فعلاً تتكلم عن هذا الأمر . وإذا صدف لي أني كنت أعيِّرك هذا فإنه كان في معرض المزاح لا الجد . ولندع الآن هذا وأرجو أن تصغي إليّ بطيبة خاطر إذا أنا أردت أن أعدد لك مناقبك . فلا تجرب أن تعارض أو تكذب . وأنا لن يكون في حديثي مراعاة لك أو مجاملة . وسأريك أنه التواضع ، وليس الحقيقة ، هو الذي يجعلك تتكلم . ولن أتخذ شاهداً على كلامي هذا سوى كلامك نفسه وسوى أعمالك ذاتها . دعني أطرح عليك هذا السؤال : هل تعترف بالأهمية الفريدة التي للمحبة ؟ ان السيد المسيح وضع علامة التلمذة له في المحبة حين قال لتلاميذه : « بهذا يعرف الناس أنكم تلاميذي إذا أحببتم بعضكم بعضاً». والمحبة في نظر القديس بولس هي تمام كل فضيلة وبدونها لا تساوي كل الفضائل الباقية شيئاً . وقد عرفت نفساً غرست فيها هذه الفضيلة ونمت وأثمرت ثماراً عجيبة . تلك النفس هي نفسك .

باسيليوس

نعم أعترف بوجود هذه الفضيلة عندي ، وقد اجتهدت في أن أمارسها عملياً . غير أني لم أبلغ بعد منتصف الطريق التي يجب قطعها . ولا شك أنك مقتنع بهذا معي إذا أنت تركت المجاملة ، وقصدت إظهار الحقيقة وحدها .

يوحنا

أنك تتستر وتغالط بما عندك من الصفات . وأنت تحكِّم التواضع لا

الحقيقة كما أسلفت القول . إسمح لي أن أورد شاهداً عملياً واحداً من حياتك الواقعية . لقد سيق مرة أحد أصدقائنا إلى المحكمة متهماً ظلماً بأنه قذف أحد الناس بشتائم بذيئة جداً ، فاسرعت أنت لتخليصه متعرضاً لتلك النار، نار المحكمة الثائرة على ذلك البريء، من غير أن يكون لك أية علاقة بتلك القضية، ومن غير أن تسمع من المتهم كلمة إستنجاد بك ، وقلت بإخلاص يومئذ : «أو يقتضي الأمر موتي ؟ أنا مستعد لذلك . فإني لا أعرف طريقة أخرى أحب بها سوى أن أهب حياتي نفسها عندما تدعو الحاجة إلى إنقاذ أحد أصدقائي » هذا ما خرج من فمك . وكان في جملة ما قلت معنى قول السيد المسيح نفسه حين أراد أن يسمو بنا إلى أعلى ذرى المحبة حين قال : ليس حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عمن يحب . فلست إذن في منتصف الطريق بل أنت بالغ ذروة المحبة . ولهذا تراني خدعتك وخنتك وأسلمتك وكان عملي من أجل الخير فقط .

باسيليوس

ولكن أتظن أن المحبة وحدها كافية لخلاص النفوس ؟

يوحنا

هي الأهم من كل شيء وهي المطلوبة بالدرجة الأولى . ولكن إذا أردت، فعندي براهين كثيرة على حكمتك وبُعد نظرك ، وعلى أن عندك من الحزم بقدر ما عندك من المحبة . ولكني أرى أن كلامي هذا يجرح تواضع صديقي ، لأن حمرة الخجل قد صبغت محياه .

باسيليوس

لا تتكلمن فيما يتعلق بي ، وقد قلت لك من أول الحديث أنه ليس هذا هو المقصود . إن ما أريده منك هو جواب مقنع نردّ به على أهل العالم . فدع ما نحن فيه من أمري وأعطني جواباً مقنعاً في دفاعك عن نفسك . كيف انسحبت وهربت ؟

يوحنا

إني لنازل عند رغبتك . وهذا أيضاً ما كنت متعجلاً إلى إجابتك عنه . فأمّا

وقد ختمت دفاعي معك فليس عندي سوى الارتياح الكبير لكي أقدم القسم الثاني من دفاعي عن نفسي .

بأية شكاية يُشتكى عليّ؟ وما الذي يأخذه عليّ الناس ؟

ألأني أهنت ناخبيّ ، ولم أعرف لهم كرامة ، بعدم قبولي الكرامة التي كانوا يريدون أن يشرفوني بها ؟ وأجيبك قبل كل شيء انه لا يجب أن تهتم مطلقاً بغضب البشر عندما يكون في ذلك إجتناب لغضب الله . والقضية هنا إنما هي قضيتنا مع الله ، وفي خدمة الله . إن من يرفض أن يسخط الله ، لا يهين أحداً من الناس مطلقاً ، وليس لأحد الحق أن يشكوه بشيء . ولا أرى حاجة إلى أن أقول أن فكرة إسخاط رؤسائي لم تخطر لي ببال . ولو أني أردت إسخاطهم حقيقة ـ كما يأخذ عليّ ذلك كثيرون ـ لحقّ لهم أن يعدّوني في صف أكبر المجرمين ، وذلك لأني أكون قد احتقرت الفضل والإحسان حين لم يكن عليّ من الواجب إلا مقابلتهم بالمعروف . فإذا كان من الجريمة أن نقابل بالإساءة من أساء إلينا ، فأي إسم يجب أن نعطي إلى الإهانة التي نقابل بها قوماً أرادوا أن يسبغوا علينا شرفاً وكرامة ؟ وإذ ذاك أفلا أكون قد ارتكبت جريمة كبرى ، ووجب عليّ الهوان إذا أنا قابلت الخير بالشر ؟

ولكن إذا كان شيء من هذا لم يقع في خلدي ، وإذا كنت ، لغير هذا السبب ، قد تملصت من مسؤولية ثقيلة ، فلِمَ يأخذون عليّ إشفاقي على نفسي؟

إن رفضي لم يكن إهانة لرؤسائي . وإنما كان على العكس حفاظاً على شرفهم .وليس لك أن تدهش إذ قد يبدو لك هذا الموقف متناقضاً . وسأوضح لك ذلك .لو أنني قبلت الكهنوت لكان أكثر الناس ، ولا سيما أولئك الذين يجدون لذة في مذمة الآخرين ، أثاروا مئات الشكوك والشبهات ، واصطنعوا الأقاويل والافتراءات عليّ وعلى الكنيسة .إذن لقال قائلهم : أن رجال الكنيسة لا يعتبرون إلا الغنى وشرف الأصل ، وينخدعون بمن يتملقهم ويتزلف إليهم . ومن يدري لعلهم يقولون أني رشوت رجال الكنيسة . أو لقال قائلهم : إن السيد المسيح

دعا الصيادين والفقراء والبسطاء لحمل رسالته . أما اليوم فإن الذين يعيشون من كسبهم اليومي ومن عرق جبينهم ،يُنبذون ، ويُنتخب إلى شرف الكهنوت أولئك الذين أضاعوا الوقت ليتثقفوا بثقافة العالم ! رفضوا من تعبوا وجاهدوا وشاب شعر رؤوسهم في خدمة الكنيسة ، ورفعوا إلى هذه المنصة العالية شاباً لم يعمل في سبيل الكنيسة شيئاً ، ولا شغل يوماً وظيفة من وظائفها ، وصرف وقته كله في تحصيل علوم العصر الباطلة. هذا ما كان قاله الناس لو أنني قبلت الكهنوت. بل لكانوا قالوا أردأ منه، في حين أن رفضي قد وضع حدا لكل هذه الافتراءات. أما اليوم فلا يستطيع إلا من كان به مس من الجنون أن يرميني بالخبث، ويرمي رؤسائي بالغرور. إذا تملق الإنسان الآخرين ، أو صرف من ماله من أجل الحصول على وظيفة، فلا يُعقل أن يتخلى عنها لغيره إذا أوشكت أن تتم له. لأن مثله يكون كمثل الفلاح الذي، بعد ان يسكب أعراقاً كثيرة ، وينفق مصاريف كثيرة لكي يحصل على غلال وافرة، يتخلى لغيره في وقت الحصاد عن ثماره وأتعابه!

وأنت ترى أن الألسنة الثالبة قد كان يمكن أن تمضي في افترائها على الأساقفة لإساءتهم اختيارنا، لو كنت نزلت تحت رغبتهم. ولكن، بامتناعي عن قبول الكهنوت، قد أخرست هذه الألسنة، وقطعت عليها مجال الثلب والافتراء.

هذا من غير أن أتكلم بزيادة - لو أني قبلت الرسامة - عن الشكايات الكثيرة ، من أجل الهفوات التي أنا معرّض لها بسبب حداثة سني . فلكم كنت جلبت على رؤسائي من الإهانات ! إذن لقالوا : إنهم قلدوا الوظائف السامية المقدسة صبيانا جهلة حمقى وطائشين ! ماذا سيصيب الشعب المسيحي أمام هذه الأوضاع الشاذة ؟ إنه قطيع متروك ! والكنيسة ؟ إنها لمهزلة! يا للسخرية! ومن حسن الحظ أنه لم يكن شيء من هذا ، «فقد سدّت أفواه المتكلمين بالظلم» (مز ١٠٦ : ٤٢) .ولو أراد أحد أن يفتري على انتخابك بمثل هذه الأقاويل لما تسنى له ذلك ، وإذن لكانت حياتك الخاصة جواباً على افتراءاتهم . أجل تعلمهم حياتك الخاصة أن الحكمة والتعقل لا تقاس بعدد السنين ، ولا بأنواع التجارب ، ولا ببياض الشعر . لا يجب أن يمُنع الكهنوت عن حديث السن مطلقاً ، بل عن حديث الإيمان الغير المجرب ، وبين الإثنين هوة كبيرة وفرق عظيم.

١

المقالة الثالثة

حقيقة الكهنوت والكاهن المسؤول

يوحنـا

وليسـت الكبـرياء البغيضـة هي التي جعلتـي اعتـزل الكهنـوت كما يزعمون . إن موقفي لم يكن موقف متكبر . وإليك البيان : لو كنت رفضت أن أكون قائداً لمعسكر ، أو حاكماً لدولة ، فقد كان يمكن أن أرمى بالكبرياء ، بل بالجنون ! ولكن إذا أنا اعتزلت وظيفة سامية تقيم فرقاً بينها وبين وظائف الدنيا ، كالفرق الذي بين النفس والجسد ، فكيف للناس أن يصموني بالكبرياء ؟

أفَلَيْسَ إذن مما يضاد العقل والصواب أن يرمى الإنسان بالجنون ، إذا هو رفض قبول وظيفة بسيطة ، وأن يرمى بالكبرياء إذا رفض قبول وظيفة سامية ؟ ولست أعتقد أن بين البشر من يبلغ بهم التفكير إلى مثل هذه الادعاءات المخالفة لناموس المنطق . ومن يخطر له مثل هذا التفكير ، إنما يخطـىء ذاتـه ، ويسفّـه رأيه . زد على ذلك أن مثل هذا التفكير الخاطىء يفسد معنى وظيفة الكهنـوت السامية التي يحطونها الى مستوى المهن العادية .

كيف لي أن أهرب من الكهنوت متكبرا ، وأنا الحدث الـذي ما إن ملك أشده ، حتى تسنّى له أن يجذب إليه الأبصار ، ويحجـب بغتـة خدام الكنيسـة المعمرين ، ويفوز برضا الجمهور وثقته ؟ كيف لي أن أهرب من المجد ، وقـد بات لقمة سائغة في فمي ، وبعد أن تهيأ لي أن أكون من الأشخاص الذين يشار إليهم بالبنان ؟

والواقع أن الجميع في الكنيسة يجهلون حتى إسمي . ويبدو للكثيرين أنني لم أرشح للكهنوت أبداً وأنني أُقصيت عنه لعدم استحقاقي ، ولم يكن لي في الأمر اختيار .

باسيليوس

صحيح هذا . ولكن الذين يعرفون الحقيقة سيحفظون إعجابهم بك .

يوحنا

ولكن هؤلاء هم الذين قلت انهم يتهمونني بمحبة المجد الباطل والكبرياء .

وعلى هذا فممّن أتوقّع إذن ملامة ومطعناً ؟ أمن الجمهور وهو يجهل كل شيء ؟ أم من الجماعة القليلة التي نوّهنا عنها ، وهم الذين انبروا لملامتي والنيل مني ؟ ولم تأت أنت إلا لتعرف ماذا يجب أن نجيبهم ؟

عندما تنجلي الحقيقةُ لجميع الناس ، فاتهامات الكبرياء والمجد الباطل لن تقوم لها قائمة .

وإذا كان هناك من لا يقدِّر الكهنوت حق قدره (وهذا مما لا شك فيه) فإني أريد أن أجيبهم وأن أطالعهم ببعض التعريف به .

ان الكهنوت يمارَس على الأرض في الواقع ، ولكن محله في السماء . ولم يحلّه هذا المحل إنسان ، أو ملاك ، أو رئيس ملائكة ، بل الروح القدس نفسه ، هو الذي أذِن لخلائق بشرية من لحم ودم أن تقوم بخدمة الملائكة . ولأجل هذا يجب أن يكون الكاهن من الطهارة والنقاوة كما لو كان يقطن السموات بين الطغمات الملائكية . ان الكهنوت العبراني كان يوحي مهابة وخوفاً مقدساً بما كان على ثياب الكاهن من الجلاجل والحواشي المزركشة والحجارة الكريمة البارقة فوق صدره ومنكبيه ، والمنطقة ولباس الرأس والجلباب الضافي الفضفاض ، وقدس الأقداس الذي كان يدخله وحده ، وهيبة السكينة المهيمنة فيه .

غير أننا إذا اعتبرنا الكهنوت في العهد الجديد نرى أن ما يتملكنا من الرهبة والخوف غير ما يتملكنا في ذاك لأن بريق الأول ليس شيئاً أمام مجد الثاني (٢ كور٣ : ١٠) .

ألا قل لي ، رعاك الله ، لدى معاينتك الإله ذبيحاً ممدداً على المذبح الطاهر ، والكاهن واقفاً ، والحربة في يديه ، ينحني ويصلي فوق الذبيحة ، وجميع الحاضرين ، وقد شربوا هذا الدم الطاهر ، فأشرقت وجوههم غبطة ، قل لي هل تحس نفسك في تلك الساعة على الأرض وبين البشر ؟ ألا ترى ذاتك منسلخاً عن الجسد ، ومنتقلاً حالاً إلى السماء ، متأملاً بعقلك المنعتق من كل رباط أرضي الغرائب السماوية المدهشة ؟ فيا للعجب ! ويا لمحبة الله للبشر ! إن المستوي في الأعالي مع أبيه السماوي ، يؤخذ في هذه اللحظات ، بين أيدي جميع الحاضرين ، ويهب ذاته طعاماً لكل من يريده . هذا ما تراه عين الإيمان ! أفليس

كل شيء عظيماً رائعاً ؟ وأمام هذه العظمة وتلك الروعة ، أفلا ينبغي أن تتلاشى كل كبرياء وعظمة ؟ أوَتريد أن تعرف روعة أسرارنا المقدسة أيضاً بالمقابلة إلى عجب آخر؟ تمثل مشهد جبل الكرمل : إيليا النبي في رأس الجبل ، وجمهور لا يحصى واقف حوله ، والضحية ممددة على حجارة المذبح ، الشعب كله منتصب في هيبة الصمت العميقة ، النبي وحده يصلي بصوت عال . وإذا اللهيب يهبط من السماء على الضحية ويأكلها . يا له من عجب يأسر النفس ! فانتقل الآن الى تمثل روعة أسرارنا المقدسة لترى عجباً غير ذلك العجب ، وتحس تأثيراً غير ذلك التأثير . هنا الكاهن واقف لا ليستنزل ناراً من السماء ، بل الروح القدس نفسه الذي يُطهِّر بالدم الإلهي نفوس الحاضرين ، ويجعلهم أشد بريقاً ولمعاناً من الذهب المنصهر بالنار .

وأمام هذه الأسرار الرهيبة السامية ، يجب أن يكون الإنسان فاقد الحس ومسلوب العقل ، لكي لا يشعر بعظمتها وسموها . إذا قدَّرنا جيداً هذا السر « وهو أن رجلاً تحت سلطان اللحم والدم ، يستطيع ان يقترب من هذه الطبيعة المغبطة والروح النقي الطاهر ، إذا قدَّرنا هذا السر ، عرفنا أهمية السلطة التي خولها الروح القدس للكهنة ، لأنه على أيديهم تتم هذه الأسرار السامية ، كما تتم أيضاً عجائب أسرار أخرى لا تقل أهمية عن هذه لأجل خلاصنا .

مخلوقات تعيش على الأرض ، وتتصل أسباب حياتهم بالعالم إتصالاً وثيقاً ، يُنتدبون لخدمة أسرار السماء ، ويقبلون من الله سلطاناً لم يعطه للملائكة ولا لرؤساء الملائكة ، لأنه لم يقل للملائكة : « كل ما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما حللتموه على الأرض يكون محلولاً في السماء ».

إن عظماء هذا العالم يملكون أيضاً سلطان الربط والحل ، ولكن ليس لهم هذا السلطان إلا على الجسد . غير أن السلطان الذي يعطيه المسيح للكهنة إنما هو على النفوس أيضاً ، ومفعوله يسري في السماء : ان ما يقرره الكاهن على الأرض يُقرَّر في السماء ، والحكم الذي يلفظه الخادم هنا يبرمه المعلم في السماء .

ألَمْ يمنح الكهنة كل سلطان في السماء ؟ : « من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم » (يو ٢٠ : ٢٢) . وهل يوجد سلطان أعظم

من هذا السلطان ؟ ان الآب أعطى لابنه كل سلطان الحكم ، وأرى أن الابن بدوره قد خوّل الكهنة هذا السلطان بكامله . أفلا يجب ان يقال ان الله إذ خولهم مثل هذا السلطان أقامهم في السماء ، ورفعهم فوق الطبيعة البشرية ، وأعفاهم من الخدمات البشرية ؟ إذا أراد ملك أن يشاركه أحد أتباعه في سلطانه ، أي أن يخوله الحق في أن يسجن من يريد،ويطلق من يريد، ترى الجميع يحسدون هذا الإنسان ويشيرون إليه بالبنان . أفهل يجوز أن يُستخف أو يُستهان بسلطان وهبه الله نفسه لإنسان ؟ ولهذا السلطان من الأهمية بقدر ما بين السماء والأرض ، وبمقدار ما بين النفس والجسد ؟ وما أخلقنا بالبعد عن هذا الجنون!

وفعلا أليس من الجنون المطبق ألا يسلّم بأهمية خدمة بدونها لا يتيسر لنا الخلاص ، ولا البلوغ الى المجد الذي وعدنا به الله ؟ فما دام من المحقق أنه لا يستطيع أحد أن يدخل الى ملكوت السموات إلا بعد أن يولد من جديد بالماء والروح القدس ، وأنه لا يحصل على الحياة الأبدية إلا من أكل جسد السيد وشرب دمه ، فمن المحقق أيضاً أن كل هذه المواهب لا نستطيع الحصول عليها إلا من يدي الكاهن المقدستين . وإذ ذاك فكيف لنا أن نجتنب نار جهنم ، أو ننال الإكليل السماوي بدون الكاهن ؟

أجل،هم الكهنة الذين يلدوننا بحياة النعمة ويلدوننا روحياً بالمعمودية . هم الكهنة الذين يلبسوننا المسيح ويدفنوننا معه في القبر ، ويقيموننا بجسده . هم الذين يجعلون من المسيح لنا رأساً، ويجعلون منا لجسده أعضاء . ويجب أن نكرمهم أكثر من تكريمنا للأمراء والملوك ، وأن نحبهم ونقدرهم أكثر من محبتنا وتقديرنا لآبائنا في اللحم والدم . فآباؤنا قد أعطونا الحياة الطبيعية من دمهم ومن شهوة أجسادهم ، أما الكهنة فإنهم يعطوننا الحياة الروحية التي هي من الله ، ونحن مدينون لهم بولادتنا الجديدة السعيدة وبحريتنا الحقيقية وبلقب « أبناء الله ».

إن كهنة الناموس القديم كان لهم سلطان أن يشفوا من البرص ، أو بالأحرى ما كانوا يشفون منه بأنفسهم أحداً ، بل كانوا يلاحظون الشفاء فقط . ومع هذا فمن المعلوم أن الكهنة كانوا على جانب من الشرف والكرامة . وأما كهنة

الناموس الجديد فقد مُنحوا سلطانا أعظم من سلطان شفاء البرص الا وهو شفاء برص النفوس . وليسوا مكلفين بملاحظة الشفاء ، بل إنهم هم الذين يجرون عملية الشفاء بأنفسهم .

إن من يحتقر الكهنوت ينقلب أشد نجاسة وأكثر إستحقاقاً للقصاص الهائل من داثان وأبيروم. فإذا كان داثان وأبيروم قد طالبا بوظيفة ليست لهما ، فادعاؤهما وقتالهما في سبيل الحصول على الكهنوت يدل على عظم تقديرهما له . أما الآن ، وقد أصبح لنا كهنوت جديد يفوق القديم عظمة وجمالاً وسلطاناً ، فإن احتقاره لا يعني فقط جريمة مثل جريمة داثان وأبيروم ، بل جريمة أشد هولا وفظاعة من تلك . ولكن يا لتعاسة تلك النفس التي يبلغ بها الجهل حد احتقار مقام سام كهذا المقام ! لا يمكن أن تُعتبر إلا أنها منقادة بالشيطان .

وأعود الى الكلام عن سلطان الكهنة . الكهنة يلدوننا لحياة خالدة مستقبلة ، ووالدونا يلدوننا لحياة حاضرة فانية . إن والدينا لا يعرفون أن يخلصوا أجسادنا من المرض ،ولا من الموت ، في حين أن الكهنة يستطيعون أن يخلصوا نفوسنا من المرض ومن الموت . يعرفون أن يصفوا العلاج ، ويعرفون كيف يتلافون سقطاتنا ، ليس فقط بواسطة تعليمهم ونصحهم ، بل بواسطة صلواتهم . ليس للكهنة مهمة غفران خطايانا وتجديدنا بماء المعمودية فقط ، بل إن لهم سلطان ترك الخطايا التي نرتكبها بعد المعمودية . قال يعقوب الرسول : « إذا مرض أحدكم فليدع قسوس الكنيسة وليصلوا عليه باسم الرب ويمسحوه بزيت فيبرأ ، وإذا كان له خطايا تُغفر » (يع ٥ : ١٤ - ١٥). ثم أن الأبناء إذا وقعوا تحت غضب سلاطين العالم ، فليس لهم أن يرجوا من والديهم أية مساعدة ، ولكن الكهنة ، على العكس ، لا يصالحوننا مع سلاطين العالم وملوكه ، بل مع الله الذي يحاكم ويعاقب السلاطين والملوك أنفسهم .

والآن ماذاترى ،هل لأحد أن يرميني بالكبرياء ؟ وأرجو أن أكون قد وفقت إلى إظهار الكهنوت حيث هو من الاعتبار والاحترام ،حتى لا يُرمى بالكبرياء والتهور الذين يهربون منه ، بل الذين يقتربون منه ،وليست عندهم الدعوة ، ويستعملون كل الوسائل من أجل الوصول إلى هذه الرتبة السامية .

إذا أوليت تقاليد الأمور في الدولة الى رجل ليست فيه كفاءة واستقامة فتكون النتيجة جر هذا الإنسان إلى التعاسة والسير بالبلاد إلى الخراب . وإذا قُلد إنسان أمر سياسة كنيسة المسيح وعروسته ، فعلى كم من الصفات السامية يجب ان يكون حائزا ؟ وكم من النِعَم السماوية يجب أن تكنفه حتى لا يعرِّض الكنيسة وسلامته الى الخطر .

ما من أحد أحب يسوع كما أحبه القديس بولس الرسول . وما من أحد أظهر مثل غيرته . وما من أحد تلقى من النعم مثلما تلقى هذا الرسول ، وعلى الرغم مما كان يتمتع به من الهمة العالية ، وكثرة الإنعامات، كان يرتعد أيضاً أمام عظمة الخدمة والرسالة ، كما كان يقلق ويخاف على النفوس التي تكلف بقيادتها : « لكنني أخاف كما أن الحية أغوت حواء باحتيالها ، كذلك تفسد بصائركم عن الإخلاص الذي للمسيح» (٢ كو ١١ : ٣) . وكما يقول في غير هذا المقام: «كنت دائما في القلق والمخاوف من أجلكم» (١ كو ٢ : ٣) .

هوذا إنسان نُقل إلى السماء الثالثة ، وسمع الأسرار الإلهية . هذا إنسان منذ يوم ارتدّ الى المسيحية ، كان يذوق طعم الموت عدد الأيام التي عاشها . ولكي لا يُعثر المؤمنين ، كثيرا ما كان يرفض أن يستخدم في المسيح سلطانه عليهم . وكان مثالاً بالعلم والعمل بالناموس ، ولم يلتمس مطلقاً منفعة شخصية ، بل كان يلتمس منفعة المؤمنين ! لنتأمل هذا الإنسان ولنقل : إذا رأينا إنسانا مثل هذا يرتعب أمام عظمة خدمته ، فكم من الخوف يتملكنا نحن أمام الكهنوت ؟ نحن الذين لا نفتش إلا على مصالحنا الخاصة، وإذ نكون أبعد من أن نعمل بالوصايا ، نتجاوز التعاليم نفسها . « من منكم يضعف ولا أضعف أنا ؟ من منكم يتشكك ولا احترق أنا»؟(٢ كو ١٢ : ٢٩) . انظر ما يجب ان يكونه، بل ويجب ان يكون أكثر من هذا . لأن هذا ليس بشيء أمام الكلام الذي يضيفه الرسول بولس قائلاً : « إن لي غماً شديداً ووجعاً في قلبي لا ينقطع ، وتمنيت لو أكون أنا نفسي هالكاً بدل اخوتي وأقربائي بالجسد »(رو ٩ : ٣) .

إن الهرب من الكهنوت هو تعاسة لمن يستطيع ان يقول هذه الأقوال ، وأن يصلي مثل هذه الصلاة . ولكن من كان مثلي بعيداً عن درجة هذه الفضيلة ،

فليس الهرب من الكهنوت هائلاً بالنسبة إليه ، بل قبول الكهنوت يكون هائلاً عنده .

إذا أتي بإسكاف أو حداد وكلف قيادة حملة عسكرية والقيام بمهمات حربية ، فماذا نسمي هذا الرجل التعس إذا هو رضي بذلك ، ولم يعمل كل ما في وسعه للإفلات والنجاة من الهاوية التي يُرمى فيها ؟ إذا اشتُرط فيمن يحمل مسؤولية الكهنوت أن يكون من ذوي الحزم والمرونة ، وأن يكون مع هذا ذا نفس مستقيمة ، وحياة طاهرة، وفضيلة تتزايد يوماً بعد يوم ، إذا اشتُرط في صاحب الكهنوت أن يكون كما ذكرت ، فما أحقك بمعذرتي إذا أنا لم أقبل به دون تفكير ولا تروٍ ، وأن أرمي بنفسي في هذه الهاوية !

لو أن صاحب باخرة كبيرة ، مشحونة بالبضائع ، وقف بي عند ساريتها ، وعرض عليّ أن أسيرّها وأجتاز بها بحر إيجه أو بحر تيرينيين ، لعاد بي الخوف الى الوراء من أول كلمة أسمعها . وإذا سُئلت: ما السبب؟ أجيب: يعتريني خوف عظيم من غرق الرجال والبضائع والتطويح بهم وبنفسي وبالباخرة في قلب البحر. وما من أحد يعيرّني قلة نباهتي وفطنتي، مع أن الأمر هنا هو أمر فقدان مال وموت أجساد . فكيف بالناس يأخذونني باللوم والعنف ، ويريدونني على المجازفة عندما تكون القضية قضية هلاك النفوس ، لا في بحر بل في أعماق جهنم ؟ وعندما يكون الموت موت النفس والجسد معاً بالعقاب الأبدي ؟ كلا ! فليس هذا من المعقول . أنني أعرف نفسي . أعرف ضعفها وحقارتها ، كما أني اعرف عظمة الكاهن ومصاعب وظيفته وأعرف أن عليه ان يجابه من العواصف ما لم تثرها ريح فوق سطح البحر .

وأولى الصخور التي يصطدم بها إنما هي محبة المجد الباطل . وخطر هذه الصخرة يختلف عن خطر السيرين [1] التي تُفيض الميتولوجيا اليونانية بذكرها .

---

(١) السيرين هي حيوانات بحرية زعمت الأساطير اليونانية انها كانت تجتذب اليها المسافرين بصوت صفيرها الجميل حتى يعدلوا اليها فتبتلعهم.

لأن خطر هذه السيرين قد تنبَّه له كثير من المسافرين فاجتنبوه وجازوا بمراكبهم ، في حين أن محبة المجد الباطل أشد خطراً . إني أحس الآن بكثير من الصعوبة في اجتنابه مع أني خارج الكهنوت . فكأني بمن يريد أن يحمّلني عبء الكهنوت ، قد أوثق يدي ، وتركني الى هذه الوحوش المفترسة التي تقطن فوق صخور محبة المجد الباطل لأرعاها كل الأيام . ولا أظنك تجهل تلك الوحوش : فهي الغضب والجبن ، والحسد ، وروح الخصومة ، والنميمة ، والوشايات ، والكذب ، والرياء ، والتآمر ، والتحامل على من لم يسيء إلينا والفرح بسقطات خدام القدسات ، والحزن من نجاح الآخرين ، ومحبة المديح ، والتعطش إلى السمعة (وهذه من الشهوات التي تجعل الإنسان طاغية باغياً) والوعظ الذي لا يُقصد به غالبا سوى إرضاء الجمهور ، والتملق الذميم ، والغشوش الرديئة واحتقار الفقراء ، والبشاشة للأغنياء ، والتعظم الذي لا يخلو من مضرة للآخرين ، والمنن التي لا يكون خطرها على الممتن أقل من خطرها على من منّ عليه ، والمخاوف الوضيعة التي هي اخلق بالعبيد منها بالسادة ، وفقدان الثقة والتواضع ، والتظاهر الكاذب الذي ليس في الحقيقة شيئاً ، وفقدان الجرأة على التوبيخ والتأنيب ، أو بالأحرى استعمال هذا الحق مع الضعفاء (لأنه عندما يقتضي الأمر توبيخ العظماء فلا يستطيع أحد أن ينبس معهم ببنت شفة) ،هذه هي الوحوش التي تربى على هذه الصخور البحرية مع كثير غيرها . فإذا اتفق للإنسان مرة أن يقع بين مخالبها ، يصبح لها عبداً ، وإذ به يعمل أحيانا في سبيل مرضاة بعض النساء أشياء لا يليق ذكرها . ذلك أن النساء ، وقد منع الناموس إدخالهن في الكهنوت ، يحاولن ذلك بالقوة ، فيمارسن التأثير على الآخرين . وقد يبلغ من تأثيرهن أنهن يقصين من الكهنوت من يردن ،ويقربن من يردن ،ويعكسن معاني الأشياء رأساً على عقب كما يشأن . ومن هنا يصح المثل القائل : الأمراء ينقادون لأتباعهم ! وأي أتباع هؤلاء الأتباع ؟ إنهم لو كانوا رجالاً لما كان على الأسياد غضاضة ، وكلهم من النساء اللواتي ليس لهن حق بالوعظ . وماذا أقول حق الوعظ ؟ إن القديس بولس الرسول لم يسمح لهن حتى بإبداء رأيهن في الكنيسة . وقد يحدث لهن أن يوبخن بسلطان الأساقفة ويعاملنهم معاملة أردأ من معاملة الأسياد للعبيد !

وهكذا تجد أن المسؤولين هم الذين يوسّخون الكهنوت ويدنسونه بإعطائهم إياه لأول قادم . والمتخَبون الذين لم يتفحصوا خبايا نفوسهم ، ولا قدّروا ثقل المسؤولية يرمون بأنفسهم إلى الكهنوت . ولكنهم عندما يمارسون عملياً واجبات وظيفتهم ، يتخبطون عمياناً على غير هدى في ظلمات عدم اختبارهم ، ويبذرون المتاعب والشكوك بين المؤمنين الذين كلفوا رعايتهم.

هذا هو عمق الشقاء الذي أوشكت أن أقع فيه لولا أن الله أسرع الى إنقاذي من خطره وأخذته الرأفة بي وبكنيسته .

وما هو ، حسب رأيك ، سبب هذا الاضطراب العظيم الذي تتخبط فيه الكنيسة الآن ؟ ليس له من سبب ، في نظري ، سوى أن اختيار الكهنة والأساقفة يجري دون معرفة تامة بنفوسهم ، ودون معرفة للناس بهم .

إن الرأس يجب ان يكون من الصحة والقوة بحيث يتمكن من أن يخضع او ينبذ الميول المضرة التي تثور على أجزاءالجسد .وأما إذا كان من الضعف بحيث لا يستطيع أن يدفع التأثيرات المفسدة ، فإنه يفقد هو نفسه ما يبقى له من القوة والصحة ، وينتهي به الأمر إلى أنه يصير بباقي الجسم الى الخراب . فلكي يجنبني الله مثل هذا الشقاء قد استبقاني حيث أنا من الدنيا . لأنه ، أيها الصديق ، فضلا عن الصفات التي عددتها لك آنفاً توجد صفات لازمة للكاهن ليس عندي شيء منها .

وأولى هذه الصفات هي تحرر النفس من الطمع . ان من اتخذ رتبة الكهنوت ، وهو يحمل بين جنبيه أقل شهوة من الشهوات ، فلا يكاد يباشر هذه المهنة السماوية حتى تضطرم نار هذه الشهوة ويضطر لكي يشبع هذا الميل ، إلى التملق والتزلف والدناءة وإلى كل ما يسيء إلى الكرامة وإلى المتاجرة والمكسب الخسيس . ولا أريد أن أتكلم عن أنواع من الشدة والارتكابات التي ملأ بها بعض الناس الكنائس ، ولا التخريب الذي زرعوه في أكثر من مدينة ليصلوا إلى الأسقفية ! وما أظن أن أحداً كان يصدقني لو ذكرت مثل هذا الذي يبدو غير معقول لو لم يحصل شيء منه فعلاً .

آه ! لو كان للبعض أن يقدِّروا الكهنوت بمثل ما يجب أن يقدَّر به ، لخافوا أو لهربوا من ثقل مسؤوليته . وإذا اتفق لمن ناله عن استحقاق ، أن يرتكب خطيئة تفترض اعتزاله للكهنوت ، فيجب أن يعتزله من ذاته قبل أن ينتظر محاكمة أحد ، وإذن فيكون قد اجتذب إليه رحمة الله . والإصرار على البقاء في خدمة ليس الإنسان لها أهلاً ، معناه إغلاقه أبواب الغفران في وجهه، وإضافته إلى خطيئته خطيئة أفظع . ولكن الويل لمن يجسر على هذا الفعل ! حقا أن اشتهاء الكهنوت شقاء :أي شقاء لأصحابه ، ويجب أن لا تعتقد ، إذ أقول هذا ، أني على تناقض مع القديس بولس الرسول عندما يقول لتلميذه :إن من يشتهي الأسقفية يشتهي شيئاً حسناً . وما أجده شقاء ليس اشتهاء مثل هذا الشيء الحسن ، بل اشتهاء النفوذ والسلطة من وراء الكهنوت . هذا هو الطمع الذي يجب أن يستأصله الإنسان من قلبه . ويجب على الإنسان ألا يبقي له منذ البداية في قلبه تربة صالحة لنمو بذوره، لكي يتمكن الروح أن يفعل في تلك النفس بحرية ودون مقاومة .

حين لا تكون عند الإنسان شهوة للارتفاع إلى شرف الكهنوت فلا يخاف حتى أن يتنازل عنه . وعندما لا تكون القضية قضية خسارة شيء ، فعندئذ نستطيع ان نتصرف بكل حرية كأبناء الله الحقيقيين . أما من كان على العكس من هذا ، مضطرباً دائماً ، وخائفاً من ضياع مركزه ، فإنه يعيش في العبودية المخجلة ، وفي شقاء دائم يقوده غالباً إلى التقصير بنفس الوقت فيما يجب للناس وفيما يجب لله . ومثل هذه الحال لا يجب ان تكون حال الكاهن خادم الرب . فهو جندي يخوض غمار الحروب بشجاعة ويموت موت الأبطال . والكاهن الجدير بهذا اللقب الشريف هو ذاك الذي لا يهمه سوى أن يجاهد . وحين يختم جهاده كمحارب باسل سينال في نهاية جهاده إكليلاً يستحقه الدور الذي قام به .

إن الأسقف الذي يُعزل عن أسقفيته لرفضه المسايرة بما لا يتفق مع كرامة الأسقفية ، يعرف تماماً أن عزله الجائر يضاعف قصاص خصومه ويزيد في أجره . « طوبى لكم إذا عيَّروكم واضطهدوكم وقالوا عنكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين ،افرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم في السموات»(متى ٥ : ١١ - ١٢) .

ولنعد إلى الكلام عن الطمع ، فنقول : على الإنسان أن يتفحص جيداً

دخائل نفسه ، ويحاسبها بشدة من كل الوجوه حتى لا يبقى فيها شرارة من هذه الشهوة الخطرة مستورة تحت الرماد . وان من ينجح من البداية في التخلص من هذه الشهوة ، يستطيع أن يجتنب خطر العودة إليها متى حصل على رتبة الكهنوت . ولكن الذي يغذي في نفسه هذا الوحش الهائل قبل أن يرتقي العرش الأسقفي ، فلا يستطيع أحد ان يعلم مبلغ هول الأتون الذي يزج نفسه فيه .

أما أنا فإن هذه الشهوة تتملكني (ولا تظن أني أقول هذا من تواضع أو بقصد التهرب) .وهذا من أعظم الأسباب التي جعلتني أهرب من الكهنوت . وكما أن القلوب التي اكتوت بنار الحب لا تبلو شدة العذاب إلا عندما تقترب من المحبوب ، وعلى العكس تخبو نارها المشبوبة عندما تبتعد عنه ، كذلك فإن القلوب المولهة بحب الكهنوت ، إذا تحققت شهوتها بنيله ،فإن نار هذه الشهوة لا تنطفىء بل تزداد ضراماً ، وإذا انقطع أملهم بنيلها خمدت النار وانطفأت .

فأنت ترى أنه كان عندي من هذا القبيل سبب وجيه في اجتناب الكهنوت ولعله كان وحده كافياً ومبرراً لهذاالاجتناب .على أن عندي غيره من الأسباب التي لا تقلّ أهمية عنه . وإذا سألتني ما هي ؟ أجبتك : إن الكاهن يجب أن يكون حذرا بصيراً وأن يكون له ، بعبارة أخرى ، ألف عين ليرى كل ما حوله وما يحيط به ، لأن الكاهن لا يحيا لذاته ، بل للجمهور الكثير الذي يحيط به . أما أنا فإني كسول مهمل لا أكاد أقوم بحاجات نفسي ، ولا أظنك تجهل ما بي من هذا القبيل إذا لم تغضّ طرف حبك عن الأقرار به . فإن الصوم والسهر والنوم الخشن وكل ما من شأنه أن يخشن الجسد هي شروط تعرف كم أنا بعيد عنها .

أنا أقبل بفائدة التقشف للمتوحد القابع في صومعته والذي ليس عليه أن يهتم إلا بنفسه . ثم ان احتقار نعومة العيش في المآكل والمشرب والمنام ليس بالأمر المهم عند الكثيرين ، ولا سيما عند ذوي الطبائع الخشنة ، والذين نشأوا عليها منذ الصغر . وكثيرون غيرهم ، لهم من أمزجتهم وتعوّدهم هذا النمط من العيش ، ما يجعله سهلاً وهيناً . ولكن احتمال الهوان والإهانات والكلام المُمِض، وتعيير من هم أدنى منك والشكايات الملفقة عليك أمام المحاكم ، والتأنيب الموجع ينهال عليك من الرؤساء وأتباعهم بغير سبب ولا تروٍ: هذا ما لا

يحتمله إلا القليلون . ولعلك لا تستطيع أن تعدّ على أصابع اليد من يستطيعون احتماله . إننا نعرف كثيرين ممن يستطيعون احتمال النوع الأول من المعيشة ، ولكننا نعرف كثيرين يفقدون عقولهم في احتمال النوع الثاني ، فيثورون ويغضبون ويخرجون عن طورهم حتى يغدوا في مثل شراسة الوحوش الضارية وفي وجه مثل هؤلاء يجب ان نغلق أبواب الكهنوت المقدس .

إن الأسقف إذا لم يرهق نفسه بالأصوام ، ولم يحتمل المشي عاري القدمين ، ولم يأخذ نفسه بأنواع التقشف والإماتات ، فإن هذا لا يضر بشركة المؤمنين ، في حين أن صاحب الخلق الأحمق والأهوج ، يسبب تعاسة كبرى لنفسه وللذين قُدِّر لهم أن يحتملوه .

ثم أنك لا تسمع تهديداً سماوياً لمن لا يمارس التقشف،في حين أن من يتفوه بكلمة غضب يهدده الله بنار جهنم ، وكما أن الطماع في المجد ، متى وصل إلى السلطة يجد فيها غذاء لطمعه الذي يتآكله ، هكذا أيضاً فإن خليقة الغضب التي لا يستطيع صاحبها أن يقيِّدها حتى مع أخصائه ، لا يكاد صاحبها يتسلم رئاسة الشعب حتى ينقلب وحشاً مفترساً ، بل أشد ضراوة من الوحوش بما يهيج فيه الضراوة من آلاف المطاعن والمآخذ التي تغشاه من كل جهة . وإذ أنه لا يستطيع إلى الهدوء سبيلاً ، يروح يُسبّب الأضرار والدمار للقطيع الذي اؤتمن عليه .

وبالفعل فإنه ما من شيء يستطيع أن يُعكر صفاء الذهن ويُشوه جمال الروح مثل الغضب الثائر . قال صاحب الأمثال : « الغضب يهلك العقلاء » (أمثال ١٥ : ١). فالغضب يشبه القتل في الظلام ، حيث لا يميز بين العدو والصديق وبين المحسن والمسيء . وهو طاغية شؤم يطغى على النفس فيخبطها خبط الأمواج ، ويقلب سكينتها رأساً على عقب جاراً معه كل الرذائل الجنونية ! فإنه يسبب العداوات الشديدة والأحقاد التي لا سبب لها والتعديّات المجانية . وترى النفس مجبرة على الخضوع الى هذه النزوة الجامحة لا تستطيع الثبات والمقاومة أمام عواصفها الثائرة .

باسيليوس

لست أريدك أن تمضي في خداعك . ما شأن الغضب في هذا المقام ؟ وكل

الناس يعرفون أن لا سبيل للغضب الى نفسك .

يوحنا

أتريد أن تدني الوقود من النار ، وتهيّج الحيوان المفترس الذي يرقد في داخلي ؟ أنا لا أجهل ان ما فيّ من هدوء وحلم ليس فضيلة ، وإنما هو ناتج عن محبتي للسّكينة والطمأنينة .

ان من كان من طبعه الغضب ، يجب أن يعتزل الناس على قدر الإمكان وألا يتخذ من الأصدقاء سوى اثنين أو ثلاثة . وهكذا فبابعاده الوقود من النار، يستطيع ان يجتنب الحريق الذي يمكن أن يشب . وليس من سبيل لاجتناب الوقوع في النار إذا هو زج نفسه في هوة الخطر ، واضطلع بأعباء الناس وشؤونهم ، لأنه في مثل هذه الحال لا يكون وحده ، بل في وسط الجمهور الكبير الذي لا يمكنه ان يسلم من شر الاصطدام معه وجره الى الحفرة التي يتردى فيها . وان من شأن الجمهور أن يتمثل بمسلك رؤسائه وأن يتخذهم نموذجاً لسلوكه . وإذ ذاك فكيف لك أن تحدّ من غضب الجمهور إذا كنت لا تستطيع أن تمسك وتكظّم غيظك ؟ وأي مؤمن يمسك نفسه ويحفظ اتزانه،إذا هو رأى رئيسه خارجاً عن طوره ؟ إذ أنه ليس من سبيل إلى إخفاء عيوب الكاهن . فإن أصغر هفواته تنتشر بسرعة أمام عيون الملأ .

إن المصارع الذي لا يزال خارج الميدان ولم تكشفه التجارب يستطيع ان يخفي ما فيه من ضعف مهما يكن عظيما ، ولكنه يوم ينزل إلى ساحة الصراع ، فسرعان ما تتلاشى الأوهام التي موّه بها على الناس . وهكذا قل في سائر الرجال الذين يعيشون لأنفسهم دون ان يتمرسوا في الأعمال والشؤون فإن عزلتهم كالستار يحجب عيون الناس عنهم . ولكنهم يوم يختلطون بالمجتمع يزاح الستار وتظهر عيوبهم في جلاء وتظهر نفوسهم على حقيقتها . وعلى قدر ما تقتاد الأمثلة الحسنة أناساً إلى الفضيلة ، هكذا تقتاد الأمثلة السيئة آخرين إلى الاستهتار واللامبالاة . ولأجل ذلك يجب على الكاهن أن يشعّ جمال نفسه من كل الجهات حتى ينير ويفرح نفوس الذين حوله . ان عيوب الرجال العاديين تبقى غير معروفة ولا تلحق الضرر إلا بالذين يرتكبونها ، في حين أن عيوب الرجل المنظور اليه،

تكون معروضة أمام أعين الجميع ، وتكون معثرة عامة تزيد في تأخير المتأخرين ، وتشجع على الاسترسال في طريق الغواية الذين يسلكون على أهوائهم .

زد على ذلك أن هفوات الناس العاديين ولو عرفت ، فإنها لا تؤثر في شيء علي الآخرين . وأما الكاهن فبالنظر الى المكانة العالية التي يحتلها ، فإن أقل هفواته تنتشر بين الناس ، وتضر بنسبة مدى انتشارها. لأن الناس لا يقيسون الهفوة بنسبة فظاعتها ، بل بنسبة قيمة الشخص الذي ارتكبها .

فيجب على الكاهن أن يكون دائماً محتاطاً لنفسه ،ومتسلحاً وساهراً بغير تعب ، فاتحاً عينيه إلى كل الجهات ، لكي لا تأتيه الضربة المهلكة من حيث لا يدري ، وذلك لأنه محاط بقوم مستعدين دائماً لضربه وإلقائه إلى الحضيض لا من أعدائه وخصومه بل من الذين يدّعون صداقته .

لأجل هذا ينبغي أن نختار للكهنوت النفوس التي لا تتغير ، النفوس الشبيهة ، من كل الجهات ، بالفتية الثلاثة الذين ألقوا في أتون بابل. فإن الأتون الذي يزج فيه الكاهن نفسه ، ليس وقوده من الحطب والنفط ، بل ان وقوده شيء أفظع من هذا . فإن لهيبه المستعر لا يقع تحت الحواس الظاهرة . هو لهيب الحسد الذي يشبّ من كل مكان ويلتهم كل شيء ، ويسري إلى أعماق النفوس ليفتك بها فتكاً أشد من فتك نار الأتون الحقيقي بضحاياه . وإذا لاقى الحسد في طريقه قشة صغيرة فبها يحرق ما حولها ، وإذا كان البيت الذي يدخله نظيفاً لامعاً كأشعة الشمس ، فإنه يسوِّده بلهيبه ودخانه .

فما دامت حياة الكاهن متلائمة تماماً مع وظيفته ، فليس عليه خوف من أشراك أعدائه. وأما إذا زلّت قدمه مرة (وهذا شيء طبيعي لأنه آدمي كباقي الناس عليه أن يجتاز هذا البحر المضطرب الذي نسميه العالم) فمع ان كل سلوكه يكوّن خالياً من العيب ،لا يحفظ له الناس شيئاً من حسناته، فتلوكه الأفواه والألسنة ، ويكتنف سيرته ظلام كثيف . فما من أحد يرى في الكاهن كائناً مخلوقاً من لحم ودم ، وجبلة بشرية ، بل يريد أن يرى فيه ملاكاً انعتق من كل ضعف بشري .

ما دام السلطان الظالم قوياً في سلطته فإن الناس يخافونه ويتوددون إليه ،

لأنهم يعرفون أنه ليس في قدرتهم قلب سلطته . ولكن إذا تزعزعت سلطته ، زالت الحواجز بينه وبينهم ، وانقلب أصدقاؤه أعداء له . ولأنهم أعرف الناس بمواطن ضعفه ، تراهم أول من يهجم عليه ليصرعه . وهكذا الأمر في سلطة الأسقف . فالذين كانوا يرونه منذ قليل ثابتاً في عرشه ، وكانوا يحيطونه بأنواع التملق والخدمات تراهم أول من يغتنم تزعزع عرشه لكي يستجمعوا قواهم ويقلبوه، لا كأنه ظالم ، بل كأنه شر من الطاغية. وكما أن على الظالم أن يتخوَّف من حرّاسه أنفسهم ويرتاب فيهم،هكذا على الأسقف أيضاً أن يتخوَّف على نفسه من الذين يحيطون به والذين يساعدونه على تتميم خدماته المقدسة . إذ أن هؤلاء هم الذين يحلمون دائماً بمركزه وينافسونه فيه ، وهم الذين يكونون أعرف الناس بحياته . وبما أنهم شاهدون كل يوم لأعماله ، تراهم أول من يمسك عليه خطيئة تبدر منه . ومهما تكن هذه الهفوة بسيطة ، فإنهم يعظمونها ويبالغون في تكبيرها . ومهما يقولوا يسرع الناس إلى تصديقهم لأنهم يعرفون قربهم من الأسقف وعلمهم بشؤونه وأحواله . والأمر هنا على عكس ما قال بولس الرسول الإلهي: «إذا تألم عضو تفرح به الأعضاء الباقية ، وإذا فرح عضو تحزن الأعضاء الباقية» .

فهذه هي النار التي تريد ان تلقيني فيها !أو هل كنت تحسبني قادراً على ان أثبت أمام أعداء ذوي خطر كبير ، يتزيون بكل الأزياء ، ويتقنعون بكل الأقنعة ؟ من يجعلك تصدق هذا ؟ أهل هو الله ؟ فبرهن لي وَحْيَه لأصدق به وأخضع له . وإذا كنت لم تبن رأيك في كفاءتي للكهنوت إلا على رأي الجمهور ، فاعترف منذ الآن أنك مخطىء . فالجمهور لا يعرفني كما أعرف أنا نفسي . « لا يعرف بما في نفس الإنسان إلا الإنسان نفسه» (١ كو١١ : ١). أوَما تظن، أيها الصديق انني لو قبلت الكهنوت لغدوت ضحكة في الأفواه ، ولغدا الآباء الذين انتخبوني عرضة للهزء والسخرية ؟ولو أنني قبلته ثم تركته ، أفما كنت قد جلبت على نفسي شقاء كبيراً ؟ فإذا كنت لم تفهم هذا بعد فيجب ان تفهمه الآن .

وهناك ، غير الحسد ، شهوة أخرى أشد منه ، هي شهوة الحصول على مركز الأسقف . فكما أن بعض الأبناء تثور فيهم الرغبة في أن يصيروا أرباب

البيت ، إذ تُصوّر لهم هذه الرغبة أن حياة والديهم الطويلة أصبحت مرهقة ومملة ، كذلك يوجد رجال يستطيلون أسقفية رؤسائهم ، وإذ لا يستطيعون سبيلاً الى إخفائه ، يسعون الى قلب عرشه ، تحدو كلاً منهم رغبة الحصول على مركزه .

أوَ تُريد أن أكشف لك عن مشهد آخر من مشاهد هذه الحرب التي يتعرض فيها الانسان لآلاف من الأخطار ؟ فتمثّل نفسك الآن أمام مشهد بعض الاجتماعات العامة التي تجري فيها حسب العادة الانتخابات الكنسية . فهناك على عدد المؤمنين ، ألسنة تنطلق مشحوذة لثلب المنتَخَبين. وينقسم المؤمنون أحزاباً وشيعاً، ويعسر عليك أن تجد بين جماعات الناخبين كهنة على وفاق فيما بينهم على رئيس معين .

ولا تجد سبباً لهذه الانقسامات سوى أن الناخبين لا يتفقون على اعتبار ما يجب اعتباره ، أعني فضيلة المنتخَب . وفي الواقع أنك لن تجد لفضيلة المنتخَب حظاً من أسباب انتخابه : هناك من يُنتخب لكونه ابن أسرة عريقة، وغيره يُنتخب لوفرة ثروته الشخصية، والثالث لكونه منافساً لخصومه وهكذا دواليك. يُنتخب هذا على أساس قرابة، أو على أساس صداقة، ويُنتخب غير هذين لأنه احسن تملق للناس وخداعهم . . . وأما أن يكون المنتخَب حائزاً على المؤهلات المطلوبة، والفضائل اللاّزمة، فهذا ما لا يدخل في حساب أحد.

أما أنا فاني لا أكتفي بأن أعتبر حتى التقوى نفسها سبباً لانتخاب الانسان الى الكهنوت (مع أن التقوى هي من النقاط الهامة لهذه الخدمة) ، إذا لم تكن هذه التقوى مقرونة بفطنة وتمرن على الأعمال وحسن إدارة . فلقد عرفت أكثر من واحد ، ممن قضوا أكثر حياتهم بين جدران صوامعهم يميتون أجسادهم بالأصوام . ولما كانوا دائماً عائشين في صوامعهم وفي عزلتهم ، ولم يكونوا يهتمون إلا بأنفسهم ، كانوا حسني الأرضاء لله ، وكانوا كل يوم يضيفون زهرة جديدة الى أزهار قداستهم . ولكن ما ان صعدوا الى مسرح العالم ، ورأوا أن عليهم أن يصلحوا أخلاق المجتمع ، حتى رأى البعض منهم أنهم غير أكفاء للقيام بواجبات وظيفتهم ، فاعتزلوها ، ونشط الآخرون في طريقهم ، فأُجبروا

على أن يهجروا حياة التقشف الأولى، فخسروا نفوسهم دون أن يقدِّموا خيراً للقريب .

وأما من علا الشيب رأسه في الدرجات الدنيا من الكهنوت ، فلا يجب أن يكون الشيب مدعاة لإعلائه الى أرفع درجات الرئاسة الروحية . ولِمَ يكون الشيب مدعاة لانتخابه إذا ليست فيه الكفاءة؟ فلا التقوى ولا الشيخوخة تكفيان لارتقاء درجة رئاسة الكهنوت إذا كان صاحبهما خاليا من الشروط المطلوبة مع التقوى والشيخوخة .

واليك أسباباً أتفه من هذه الأسباب وأغرب ! فقد يرفعون الى رتبة الاكليروس أشخاصاً لا لشيء الا خوفاً من أن ينخرطوا في صف خصومهم . ويقبلون آخرين خوفاً من شرهم فقط ، إذ يخشون على أنفسهم من أذاهم إذاهم أقصوا عن الكهنوت !وكيف يمكن أن نتصور مثل هذه الأشياء التي تَضَادُّ العقل؟ أنظر وتعجب ! أشقياء تغطيهم الرذائل ، يكسبون من سوء مسلكهم شرفاً في حين أنهم كانوا يستحقون العقوبات ! وحين يكونون غير مستحقين لأن يطأوا عتبة الكنيسة ، تراهم يصعدون حتى على كرسي الأسقفية ! وبعد ، فقل لي ، رعاك الله ، هل من سبب أشد من هذا السبب يثير غضب الله ، حين تُسلم الخدمات المقدسة والأسرار الشريفة ، الى أيدي أشقياء وغير مستحقين ؟

وهكذا ترى أن الكهنوت يُسلم تارة الى أيد غير نقية لتدنس قداسته ، وتارة أخرى لأيد ضعيفة لا تستطيع تحمل ثقل مسؤوليته . ولهذا السبب نرى الكنيسة اليوم أكثر اضطراباً من أمواج الأفريب[1] .

كنت قبلاً أسخر من حكام العالم ، لمراعاتهم ، في توزيع الوظائف والالقاب ، الغنى والسن والنفوذ ، دون الاستحقاق الشخصي ، فغدوت الآن ، أخف لوماً لهم لمّا رأيت أن الأمر يجري في الكنيسة على هذا النحو .

أجل ليس مما يُستغرَب ، في أمر الحكام الزمنيين ، إذا هم أخطأوا في توزيع

(١) ممر صغير موّاج بين ايفيا وفيوتياس من بحر ايجه .

ألقاب الشرف الزائلة ، ومما يدور حول حطام الدنيا . ولكن مما يُستغرب فعلاً ، هو أن نرى رجال الدين يعتبرون الأمور السماوية الخالدة كالأرضية الفانية ، ويسلمون الى أيدي أناس غير مستحقين رعاية النفوس، التي، من أجل خلاصها ، لم يستنكف ابن الله الوحيد أن يتعرى من مجده ، ويصير انساناً ، ويهان كالعبد ، ويُصفق، ويُبصق في وجهه، ويحكم عليه بأبشع الميتات وأقبحها !

وزد على هذا أنهم لا يقفون عند هذا الحد ، بل يذهبون الى ما هو أبعد منه وأشد شناعة! لا يكتفون بقبول الأشرار في الكهنوت ، بل يقصون منه الصالحين . وبهذا العمل يقوّضون أسس الكنيسة ، ويستثيرون غضب الله مضاعفاً ! إذ أنهم يسدّون باب كل تعزية وراحة في وجه هذا القطيع ، قطيع المسيح ، ويخنقونه خنقاً .

ومع هذا جميعه فإن يسوع يتألم ويتحمل من جرائمنا ما يتحمل. وهو الذي لا يريد هلاك الخاطىء بل يتمنى توبته وخلاصه . فكيف لا نصرخ متعجبين أمام مثل هذه المحبة للبشر؟ وكيف لا نقف منذهلين متحيرين أمام هذا الفيض من الصلاح ؟ إن أبناء المسيحية يلحقون من الشر بالكنيسة أكثر من أخصامها وأعدائها ، والمسيح في صلاحه ، ينعطف نحونا ويحنو علينا ويدعونا الى التوبة ! فالمجد لك أيها السيد، المجد لك! يا لعمق محبتك لنا ! ويا لغنى صبرك علينا !

إن البشر الذين بفضلك خرجوا من الظلمات الى النور، ومن الذل والهوان الى المجد والكرامة ، لكي يكونوا نوراً للناس ، قد انقلبوا ضدك ، وأساؤوا الى عطيتك ونعمتك، ودنسوا مقادسك ، يطردون منها خدامك الأمناء ، ليخلو لهم الجو ويعملوا ما يريدون !

وإذا أنت التمست سبباً لهذه البلايا كلها ، فلن تجد سوى سبب واحد وهو الحسد الذي يولّد كل هذه الشرور تحت أشكال مختلفة : « هذا حديث السن ، فليبعد عن الكهنوت! وهذا لا يعرف أن يتملق أهل الدنيا ! وذاك سيّء العلاقات بفلان من الناس! وذلك لم يكن انتخابه موافقاً لهوى فلان، فينبغي أن

يعاد مرة ثانية حتى يعمل على أسقاطه ! وهذا طيب القلب كثير اللـين ، وذاك شديد وقاس وهكذا دواليك . . . . ».

والناس إذا أرادوا أن ينتقصوا من المنتخَب ، فلا يعدمـون العلل . وإذا عدموا سبباً ، فيبلغ بهم أن يعيروه من جهة غناه ذاته وغير ذلك من العلل الكثيرة التي يخلقونها . فهلا أجبتني ماذا يستطيع أن يفعل الأسقف في وسط مثل هذه الرياح المضادة ؟ وكيف له أن يتماسك أمام هول هذه الأمواج ؟ وحال الأسقف في هذا الشأن كحال الربان الذي يركب سفينة ويسير في البحر بجانب القرصان. يرى نفسه في كل ساعة وفي كل لحظة أمـام خطـر الغرق هو والسفينـة والبحـارة والمسافرين . فإذا آثر الأسقف مرضاة الناس على خلاص نفسه فما يفوز برضا ربه ، ويا ويله من حكم رهيب قاطع حكم به على نفسه ! وإذا هو نزل تحت حكم أعدائه يغدو موقفه أشد صعوبة ، إذ يتضافر عليه أعداؤه وأصحابه معاً لأن ساعد أعدائه يكون قد اشتد عندئذ . وعندما تثور الرياح بقوة وتخالف بعضها في مهابها ، تشتبك في تنازع وتجاذب ، فيغدو البحر الساكن مضطرباً يسخط ويعج حتى يبتلع المراكب التي على سطحه . وهـكذا الكنيسـة فإنهـا بحـر يخيِّم عليه السكون ، ولكنها عندما تقبل فيها ، أو تأتي اليها برجال غير مستحقين فعندئذ تثور فيها العواصف والأعاصير .

فافتكر ، حماك الله ، كيف يجب أن يكون الانسان حتى يثبت أمـام هذه الهجمات ، ويتغلب على مثل هذه الموانع التي تقف في وجه السلام ! إذ أنه يجب على الأسقف أن يجمع بين الوقار وسلامة النية ، والصرامة والرحمة ، والحزم ودماثة الخلق ، وأن يكون مساعداً للآخرين دون ترجي المكافأة ، متواضعاً على غـير دنـاءة ، وأن يكون ذا حيوية ونشـاط مع نعومـة ولـطف . بهـذه الشروط وحدها ، ينجح رئيس الكهنة في تعيين الأعضاء الصالحين المستحقين ، والتغلب على الصعوبات التي تقف في طريقه . وبهذه الطريقـة يستـطيع أن يقصي من الكهنوت ، وعلى الرغم من ارادة الشعب ، الغيرالمستحقين، غير واضع أمـام عينيه سوى اعتبار واحد وهو خير الكنيسة مجتنباً كل ما من شأنه أن يكسبه كراهية الناس أو ولاءهم .

والآن ألست ترى أني على حق في تهربي من مثل هذه المسؤوليات ؟ هذا وإني لم أعدد لك كل ما يجب أن أعدده وأشرحه من متاعب هذه الخدمة . فقد بقي أمامي الشيء الكثير . لا يأخذنك الملل من الإصغاء الى حديث صديق مخلص يريد أن يغتسل من أوساخ التهم والشكايات التي حملتها إليه .

وسأتم حديثي ، لا لأدافع فقط عن نفسي ، بل لأني أرغب في أن يعود حديثي عليك بالفائدة من أجل خدمتك نفسها . إن الذين يدخلون في هذه الحياة الجديدة ، لا يكونون بعد قد تهيأوا لها تماماً ، ولا درسوا جيداً كل شيء قبل مباشرة العمل في هذه الخدمة . ومتى كان الانسان محتاطاً لنفسه ، يكون ، إذا غشيته الشدائد ، رجلاً حذراً مستعداً أن يذللها ويجتازها .

وهل تريد أن نتكلم أولاً عن الاعتناء بالأرامل ، والاهتمام بتربية العذارى ، أوعن مصاعب الادارة الكنسية ؟ وهمّ الأسقف في كل قطاع من هذه القطاعات يختلف عن الآخر . وما أريد أن أعرفك عنه خصوصاً هو أن في كل منها اخطاراً كثيرة وهموماً متفاقمة .

ولنبدأ بما يظهر أقل صعوبة من غيره من القطاعات ، وهو الاعتناء بالأرامل . فقد يظهر أن ليس في هذا القطاع من عمل سوى توزيع المساعدات المالية . ولكن هناك أشياء كثيرة غير هذه .

وقبل كل شيء نلاحظ أنه يلزم ، حتى في التوزيع نفسه ، كثير من التمييز عندما يجب أن تنظم لوائح التوزيع في الكنيسة . لأن التوزيع ، إذا كان اعتباطياً وبدون تمييز ،فإن ذلك يكون مجلبة لمتاعب كثيرة . فقد وجدت أرامل يدمرن البيوت بفسادهن ، ويتدنسن وينفضحن بالسرقة وارتياد الملاهي العمومية ، ويأتين كثيراً من الأعمال المخزية . فإن في إعالة مثل هؤلاء الأرامل من عائدات الكنيسة إستنزالاً لغضب الله ، ومجلبة لكره الناس ، وجعل المحسنين يترددون في عمل الخير . لأنه إذا طُلب إليك أن تقدم من مالك للمسيح ، فليس معنى هذا أن يُعطى هذا المال لأناس يدنسون اسم المسيح . ولا يجوز مطلقاً للأرامل اللائي يكفين أنفسهن أن يشاركن الفقراء في أموالهم .

وإذا فرغ الأسقف من ترتيب لائحته ، يجد صعوبة ثانية لا تقل عن الأولى ، وهي تأمين أرزاقهن من غير إنقطاع وتأمين الموارد بغير نفاد . وكثيراً ما ترى الأرامل غير قانعات بما يوزع لهن ، فيتذمرن ويشكين ولا يعرفن للمحسن يداً . فينبغي أن يكون الرجل بصيراً وحكيماً ومخلصاً لكي يسكتهن ، ولا يدع لهن مجالاً للتذمر والشكوى . والشعب عندما يرى إنساناً مترفعاً عن المال يعلن بسرعة كفاءته لأن يقوم بهذه الخدمات . أما أنا فأعتقد بأن هذه الفضيلة لا تكفي وحدها ، مع تسليمي بأهميتها وأسبقيتها لغيرها من الشروط. أما إذا فقدت هذه الفضيلة في الموزع ،فلا شك في أن ينقلب ،عندئذ ،حامي الأموال سارقاً وراعي الخراف ذئباً .

ولكن يجب أن تقترن صفة التمييز بصفة الصبر أيضاً التي هي منبع لسعادة الإنسان فعلاً، الصبر الذي هو المرفأ الهادىء حيث تستطيع النفس أن تثبت في مأمن من العواصف .

وفي الواقع أن الأرامل لا حد لحرية ألسنتهن وثرثرتهن (وقد يكون هذا ناجماً عن فقرهن وسنهن وأنوثتهن) ،فتراهن ساخطات ناقمات شاكيات من كل حال وجدن فيها . يقابلن بدل الشكر بالتذمر ، وبدل التسليم والرضا بالنقد والاحتجاج . ويجب أن يكون الأسقف من الصبر وقوة الاحتمال ، بحيث لا يخرج به ،عن حدود حلمه وهدوئه ، الصياح المثير والسخط الناقم .وعلى كل حال يجب أن تأخذه بهن رأفة ، كما يجب أن يتجنب العنف والقسوة ، لأنه من القسوة القصوى أن يضاف الى فقرهن وبؤسهن العنف والشتم . ولأجل هذا تسمع أخا الحكمة سليمان الذي سبر غور الطبيعة البشرية ، فعرف ما فيها من أثرة وكبرياء ، وعرف أن الفقر يرغم أشد النفوس إباء على أعمال تخجل من فعلها بغير عذر الفقر . لأجل ذلك ترى هذا الحكيم يطلب إلى الرجل متوسلاً ألا يغضب ولا يعبس في وجه من يطلب منه معونة وأن يبقى دائماً محسناً راضياً مسهلاً السبيل لمن هو بحاجة إليه . « انعطف بحنو واصغ الى الفقير الذي يكلمك ، أجبه بلطف وقل له قولاً كريماً يلقي السلام في نفسه » (سير ٤ : ٨) .

وأنت ترى أن الحكيم لا يلوم السؤول الملحاح . (وأي لوم لرجل منطرح

على الأقدام ؟) ولكنه يتوجه الى من يريد أن ينهضه ، ويطلب منه ، قبل أن يقدم له الحسنة ، أن يشهده في وجهه ملامح البشاشة واللطف ، وفي كلامه كل ما بوسعه من الجودة والكرم . هب أنك تحاملت على الأرامل ورشقتهن بالتوبيخ والإهانات ، (من غير أن تتعدى على أموالهن) ، فإن ما تعطيهن لا يخفف شيئاً من عبء فقرهن بل يزيد في ثقله . وإذا أجبرهن الجوع على ترك الحياء ، فإنهن يشتمن بسهولة . فإن العوز يضطرهن الى المسألة ، والمسألة تفقدهن الحياء . وفقدان الحياء يجرهن الى عدم الاكتراث بالشتائم ، وكل هذه الأمور تفقد النفس إحساسها وتنتهي بها الى السقوط في هوة اليأس .

فيلزم إذن ، من يتولى تدبير مثل هذه النفوس ، كثير من الحلم وطول الأناة . وعليه أن يجتنب الغضب ، لا خوفاً من أن يزيد في يأسها ، بل لكي ينجح في حمل التعزية الى الأرامل ، وتخفيف وطأة الحزن عن قلوبهن . إن الفقير الذي نشتمه ، مهما نزد له من قيمة الزكاة ، فلا تلمس الحسنة قلبه إلا قليلاً إذ يحس بأن عزة نفسه قد أنجرحت . وعلى العكس فإن الذي يسمع كلاماً حسناً ، يجد مع الحسنة تعزية ، ويظهر لك سروراً عميقاً يلوح على وجهه حالاً . فطريقة العطاء تضاعف قيمة العطية . وفي هذا المعنى يقول الحكيم نفسه : « يا بني لا تجعل التوبيخ مع الاحسان ، وإذا أعطيت فلا تقل كلاماً يؤلم » (سير ١٨ : ١٥) . وكما يفعل النسيم العليل في تلطيف شدة الحر ، هكذا يفعل الكلام الحسن في نفس المحسَن اليه ، بل قد يفوق قيمة الحسنة نفسها . والمحسن الحقيقي يجب أن يعطي الاثنتين معاً .

هذا ، ويجب أيضاً فيمن يكلَّف الاعتناء بالأرامل أن يكون عنده ، مع فضيلتي الدعة والصبر، فضيلة حسن التدبير. وإذا نقصته هذه الخلَّة ، فإن احوال الفقراء تتعرض لخطر الضياع . إن الكنيسة يجب عليها ألاّ تخزن أموالاً ، كما يجب ألا تنقصها الموارد . فما يأتيك من صدقات ، أسرع في توزيعه على ذوي الاحتياج واخزن كنوز الكنيسة في قلوب المؤمنين .

والآن يجب أن نضيف الى العناية بالأرامل ضيافة الغرباء ومساعدة المرضى . وهذه الخدمات تستوجب مبالغ طائلة . وعلى الأسقف أن يحسن

التصرف والتدبير. والنفقات في هاتين الناحيتين، قد تفوق النفقات على الأرامل. وعلى الأسقف أن يسعى لتأمين هذه النفقات، ولكن يجب عليه أن يعرف كيف يجب أن يستعملها. ويجب أن يكون على جانب من المهارة واللباقة، ليجتذب المحسنين الى الاحسان بسخاء وبطيبة خاطر.

وعيادة المرضى ومساعدتهم يجب أن يرافقها عدم المحاباة بينهم وعدم جرح شعور المحسن إليهم.

والعناية بالمرضى تتطلب، على الغالب، كثيراً من الغيرة والإخلاص. وفي مساعدتك للمرضى يجب أن تكون في غاية التحفظ، لأن أقل إهمال يلحظونه منك يسبب لهم ضرراً كبيراً.

أما العناية بالعذارى[1]، فالمسؤولية فيها تعظم بمقدار ما تقتضي من اللين لهن والرفق بهن، لأنهن يؤلفن من قطيع المسيح القسم الأحب الى الملك الأعظم، لفضل عذريتهن.

وقد دخل، لسوء الحظ، في عداد هذه الطائفة من عرائس المسيح الطاهرات بنات فاسقات، كنّ معثرة ومجلبة لآلاف الرذائل، وسببن حزناً عظيماً للكنيسة. وكما أن خطيئة الفتاة الحرة تختلف عن خطيئة العبدة، هكذا فإن خطيئة العذراء تختلف عن خطيئة الأرملة. إن الأرامل لهن أن يفعلن ما يشأن: يثرثرن، ويشاجرن، ويختفين وراء التدجيل والمداهنة، وتكون لهن الجرأة ليذهبن أين أردن، ويجلن في الأسواق، وما من أحد يلاحظ عليهن في شيء. أما العذارى، فقد دخلن ساحة الجهاد لهدف أرفع وأسمى. فإنهن إنما ينشدن الكمال المثالي، فهن يرغبن أن يعشن على الأرض حياة الملائكة، ويتممن في الجسد المائت، ما هو من خصائص الملائكة الطاهرين. فلا يليق بهن التردد الكثير لغير قصد[2]، ويحظر عليهن التحدث بغير قصد في الحديث، أو بغير حق، ولا يجوز أن يعرفن معنى للتملق والمداهنة.

---

(١) الراهبات وكل فتاة عذراء

(٢) - القصد يعني هنا الإقلال.

فعليهن ، من الجهة الواحدة ، أن يحترسن كل الاحتراس من عدو كل قداسة ، إبليس الذي يستشري خصوصاً ضدهن ، ويقف لهن دوماً بالمرصاد ، حتى إذا أنس منهن غفلة ،وثب عليهن ليصرعهن . ومن الجهة الثانية ، عليهن أن يحتطن لأنفسهن من الرجال الذين ينصبون لهن الاشراك والمزالق ، مقدرات ثورات طبيعتهن الغضوبة، ويقظات شعورهن العنيف . فهن والحالة هذه أمام حرب مضاعفة يجب أن يثبتن إزاءها : حرب هجومية من الخارج ، وحرب من الداخل مفزعة هائلة . ويا لسوء طالع من يتولى تدبيرهن ! ما أعظم بؤسه وأشد حزنه إذا انتشرت ، لا سمح الله ، بينهن معثرة ! إذا ألقينا نظرة حولنا في هذا العالم ، نرى أن البنت في بيت أبيها ، يكون وجودها داعياً لقلقه وحرمانه لذة النوم، تعذبه الهواجس من عقريتها ،ومن صحة بلوغها،ومن حساب عنوستها أو تطليقها إذا تزوجت . . . فإذا كان الأمر هكذا في البيوت ، فكم يكون همّ مدبر العذارى ؟ إنه أفظع وأشد هولاً !

اذ ليس الامر هنا امر عدم ارضاء رجل بل عدم ارضاء السيد المسيح . وليست القضية قضية عقرية الجسد بل عقرية النفس. لأن «كل غصن لا يأتي بثمر يُقطع ويُلقى في النار» (متى ٣ : ١٠) ، والعذراء التي يطلقها الختن السماوي لا تترك لتأخذ كتاب طلاق وتنصرف، بل ان هناك عذاباً ابدياً يكون قصاص طلاقها .

وان الأب الجسدي له كل المسهلات لحماية وحفظ ابنته : فهناك الأم والمربية والخادمات وطمأنينة البيت الابوي ، فلا يدعها تخرج دائما الى المفترجات العامة ، واذا خرجت فانها تستطيع ان تحتجب . وفي غير ذلك فليس لها ان تخرج . فليس عليها ان تهتم بالاحتياجات الضرورية اليومية ولا بدخول البيت ولا في شيء من هذا لأن اباها يكفيها من كل هذا . فلا يبقى امامها الا امرٌ واحد : ان لا تعمل شيئاً ، ولا تقول شيئاً من شأنه ان يلوث حياة الفتاة .

وأما الكاهن فليس له شيء من هذه التسهيلات في تربية العذارى حتى ان مراقبة العذراء والعناية بها هي بالنسبة اليه مستحيلة . فانه لا يستطيع أن يعيش وإياها في منزل واحد ، لأن هذا الأمر لا يليق به ، كما أنه لا يخلو من المخاطر

والمعاثر (وسواء أخطأ أم لم يخطأ ، فان حياتها تكون معثرة للنفوس) . فكيف للكاهن اذن أن يتتبع مراقبة نفس العذراء ؟وأنّى له أن يقطع عليها مجال الخلاعة والفجور ؟ وكيف له أن يحفظ لها مسلكها واعتدال تصرفها، وأن يعمل على تهذيبه وتنميته وتكييفه حسبما يريد ؟ ، وهو لا يستطيع مراقبتها في دخولها وخروجها . فهي على الغالب فقيرة وليس لها من يعينها ، ويجب أن تخرج وحدها . واذ ذاك فليس للكاهن أن يعرف شيئا صحيحا عن مسلكها . ويجب أن يساعدها بنفسه في تأمين احتياجاتها وضرورات معيشتها . وان شاءت أن تطلق لها حريتها، فلا تنقصها الأعذار والحجج .

وهمّ الأسقف يجب أن ينحصر في حمل العذارى على ملازمة بيوتهن ، وألاّ يدع لهن سبباً للخروج ، وأن يؤمن لهن كل ضرورات الحياة ، أو يكلف برعايتهن امرأة . فيجب أن يُحظّر عليهن الخروج الى الجنائز والأعياد الليلية (السهرانيات) ، لأن الحية المحتالة تعرف فعلاً أنها لكي تنفث سمها تنساب وتتسلل الى وسط الطقوس والاحتفالات الدينية . والعذراء يجب أن تلزم ديرها وألاّ تخرج منه الا نادراً في السنة ، ولأسباب قاهرة واستثنائية .

وقد يخطر لك أن تقول: ولماذا يكلَف الأسقف بكل هذه الأمور ؟فأجيبك انه يجب أن يُعرف أن الأسقف هو المسؤول عن كل ما يجري . وخير له أن يرتِّب كل شيء بذاته ، وأن يطرّح النميمة والشكايات التي تأتيه من أخطاء الكثيرين ، من أن يكون دائم القلق ، ومهتماً أن يقدم حسابا عن الأخطاء التي تُقترف باسمه . وفضلا عن ذلك ، فان الانسان عندما يعمل كل شيء بنفسه ، فلا عائق يعوقه في أشغاله . ولكن عندما يكلف غيره بأعماله ، فلا يستفيد من تكليف الغير وخدماته بقدر ما يلحقه من انشغال البال وتعقد المشاكل .

ولا يستطاع تعداد المصاعب التي في تربية العذارى ، واذا لم يكن فيها سوى صعوبة اختيارهن وقبولهن ، فليس الأمر هيناً على المكلف بهذا. واذا نحن قابلنا بين واجبات الاسقف وواجبات القاضي المدني ، نجد أن واجبات الأسقف اشد تعقداً وعسراً وتعباً : فإن معرفة الحق صعبة وأصعب منها تنفيذ احقاق الحق.

وليست وظيفة الأسقف صعبة ومتعبة فقط بل هي مليئة بالأخطار . فقد يحدث لضعاف الايمان بين المسيحيين ، أن يفقدوا ايمانهم لأنهم أخفقوا في بعض أعمالهم وشؤونهم ناسبين ذلك الى نقص المدافعة والحماية من قبل الكاهن . والذين يخسرون دعاواهم ، لا يكون بغضهم لمن اغتصبوا حقوقهم بأقل من بغضهم لمن لم يدافع عن حقوقهم ، ويحققها لهم . فلا يقيمون وزناً لتعقد القضايا وصعوبتها ، ولا لمعاكسة الظروف ، ولا لحدود قدرة الكاهن ولا لشيء من هذا . ولو صاروا هم قضاة لما عرفوا الا مخرجاً واحداً لدعاواهم : هو كفالة النجاح لهذه الدعاوى. ولا مغفرة للكاهن عندهم اذا لم ينقذهم مما يقعون فيه من خطر ضياع حقوقهم .

والآن لنكشف لك عن مصدر آخر للتشكيات والملامة التي يلقاها الأسقف في طريق رعايته . فإذا لم يذهب كل يوم ، من بيت الى بيت ، كأنه التاجر المتجوّل ، أو كمن لا عمل له ، فإنه يسيء الى عدد غفير من المؤمنين وينفرهم منه . ولا ينبغي أن تكون زياراته مقصورة على ذوي الأمراض ، بل يجب أن تشمل أيضاً الأصحاء والمعافين . وليس الايمان والتقوى هما الباعثين على طلب هذه الزيارة ، بل المجد العالمي ، وإيثار أنفسهم . وإذا اتفق للأسقف ، في أحوال خاصة وضرورية ، أو بقصد منفعة الكنيسة ، أن يكثر من زيارة رجل غني وصاحب نفوذ ، فسرعان ما ينعته الناس بالمتملق والمداهن ! بل ما لنا نتكلم في الزيارات ؟ السلام البسيط ، يسلم به الأسقف على أحد الناس ، قد يجلب عليه ملامات كثيرة ، تبلغ حد خزيه وإرتمائه في أحضان اليأس . بل ان الناس ليحاسبونه عن كل نظرة وكل حركة خاصة : فنغمة صوته، ونظراته ، وابتساماته لها عندهم حساب وقياس ووزن : إن له إهتماماً خاصاً بفلان ، وهو عابس الوجه ، وقد سلّم بصوت عال ، وأنا لم يكلف نفسه مخاطبتي إلا بإشعار من فلان . . . ! وإذا دخل مجلساً ، ونسي ، وهو يطوف بالتحية ، أن يوجه نظرة أو يقول كلمة لأحدهم : فيا ويله من ذلك !

فمن يستطيع أن يحفظ عقله سالماً أمام الناس الضعاف النفوس الناقدين الثالبين ، لكي يدفع هجماتهم أو يتلافاها إذا لم يكن ذا نفس فوق أنفس البشر

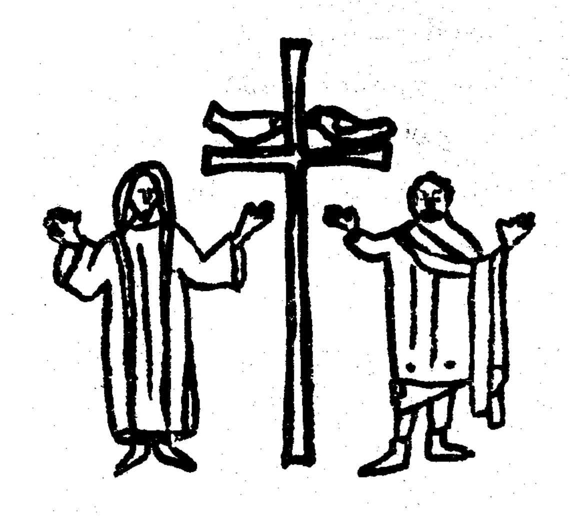
جميعاً؟ ويحسن بالإنسان أن يسالم جميع الناس، وأن يكون بلا شاكين أو لائمين، ولكن ما العمل إذا كان هذا الأمر غير ممكن، فيجب على الأقل أن يرد على شكاياتهم. وإذا لم يكن من السهل أن يلاشيها (لأن هناك كثيرين ممن يلذ لهم أن يطلقوا شكايات وانتقادات لا تستند الى سبب) فيجب على الأقل أن يبقى الإنسان ثابتاً لا يقلقه الخوف والجبن. إن الملامة المستوجبة تُحتمل بسهولة، لأن موبخنا المخيف إنما هو ضميرنا. وعندما يوبخنا هذا الشاهد القاسي، تبدو لك أصوات الآخرين أقل إخافة، وحملاتهم أسهل احتمالاً. ولكن عندما نُشكَى بغير حق، لا نشعر بتوبيخ في ضميرنا. وعليه يجب ألا نتأثر من الشكايات التي تأتينا بغير سبب منا. وإذا لم نتعود احتمال الإهانات والشتم فنقع بسهولة في اليأس والهوان. فإذا وشى بك واشٍ وحكم عليك ظلماً، فليس من الأمر السهل أن تمسك نفسك عن الاضطراب والتأثر، وألاّ يستثيرك أمام مثل هذا الجور والتعدي.

هذا ما يحيط بالأسقف من المصاعب والمتاعب، ناهيك عن الألم والتحسُّب اللذين يشعر بهما الأسقف عندما يرى نفسه مجبراً على قطع أحد من شركة الكنيسة! وليت الحزن وحده هو الشيء الذي يجب أن يخافه! إذن لكان الأمر هيناً! فقد يحدث للخاطيء الذي عوقب بصرامة أن يصل به الأمر الى النهاية التي ذكرها القديس بولس الرسول، فلا يستطيع أن يثبت ويقاوم تفاقم آلامه (٢ كور - ٢ : ٧). وهنا يلزم كثير من الحذر حتى لا يكون الدواء جالباً شراً بدل الخير. وكل النتائج، في مثل هذه الحالات تترتب على الطبيب الذي لم يحسن عملية قطع هذا العضو. فانظر الى أي قصاص يتعرض ذاك الذي عليه أن يرد جواباً، لا عن ذنوبه فقط، بل عن ذنوب الآخرين الذين يجعلونه في هذه الأوضاع الخطرة! فإذا كان مجرد تفكيرنا بما علينا من الحساب عن خطايانا الخاصة يرجفنا، فكم هي المخاوف التي تجتاح نفس ذلك الذي يفكر بأن عليه أن يجيب عن أخطاء الآخرين عندما يتصور الخوف من النار الخالدة؟!

إن القديس بولس، أو بالأحرى يسوع المسيح الذي يتكلم بفمه هو الذي قال: « أطيعوا أساقفتكم، واخضعوا لهم، فإنهم يسهرون على نفوسكم،

ولأنهم يعلمون أنهم سيقدمون حساباً عنكم » (عبر ١٣ : ١٧) . فيا له من كلام مخوف وتهديد رهيب، لا تستطيع الألسن البشرية أن تنطق بأفظع منه !

إن ما قلته ، يكفي على ما أظن ، أن يفحم الغير المقتنعين والمكابرين، أنه لا الكبرياء ، ولا المجد الباطل جعلاني أتهرب من الكهنوت ، وإنما هو الخوف الوحيد من تحمل هذه المسؤولية .



المقالة الرابعة

عذر في التقصير وضرورة العلم

كنت أنتظر جواب باسيليوس الذي بعد أن فكر لحظات أجاب قائلاً :

قد تكون على حق في تخوفك من حمل هذه المسؤولية ، لو كنت أنت هو الساعي الى الكهنوت. والحق أن من يسعى وراء هذه الخدمة ، ويقصر فيها ، فلا معذرة له ، ولا حجة له في أن يقول: لقد أجبرت عليها. وجوابه عند القاضي العادل هو: ماذا تفعل؟ كنت تعرف عدم خبرتك ، وعدم كفاءتك أن تشغل هذه الوظيفة حسناً ! ومع هذا فلماذا سعيت وراءها؟ ألم تخش من تحمل مسؤولية هي فوق مقدورك؟ ومن الذي أجبرك؟ ومن الذي جرك اليها قسراً ؟ وهل أبديت مقاومة؟ وهل حاولت أن تتخلص؟ ولكن ليست هذه الحال حالك ، ولا أظن أنه يلحق بك مثل هذه الشكوى: وضميرك لا يبكتك على شيء. فالكل يعرفون أنك لم تسع من قريب أو بعيد لتنال هذه الرتبة ، وأن كل ما قد حصل ، حصل من الآخرين. وأن رفضك يمنع كل عذر عن خطاياهم.

أما أنا ، فكنت أهز رأسي ، ولـم أتمالك الابتسام الخفيف من بساطة صديقي ، مع إعجابي به ، فقلت له :

يوحنا

قد كنت أريد أن يكون الأمر على ماذكرت ، أيها الصديق الوفي الصالح . ذلك لكي لا أقبل ما رفضته (لأنه إذا لم يكن من قصاص أخافه ، إذا أنا قبلت ، من غير خبرة ، رعاية قطيع المسيح ، فيكفيني قصاص عذاب ضميري ؛ وشعوري الدائم بتقصيري ، وعدم استحقاقي ، واجرامي الى الذي قلدني مثل هذا المنصب) . وإذا سألتني مرة ثانية لماذا إذن كنت تريد أن يكون الأمر على ما ذكرت ؟ أجبتك ليس من أجلي أنا ، بل من أجل أولئك التعساء المنكودي الحظ الذين لم يقوموا بواجبات وظائفهم . ولذلك سيقعون في نار جهنم الخالدة حيث الظلمة الخارجية ، والدود الذي لا ينام ، في الفصل من رحمة الله .

إذا لا يدخلَنّ في روع أحد أنه ، إذا دعي الانسان الى تقلد وظيفة ، وقبل بها ، على معرفته بعدم كفاءته لها ، لا يدخلَنّ في الروع ، أن هذه الدعوة ، او هذا التكليف يخفف عنه العقوبة التي يستحقها على خطاياه وتقصيره إذا هو قصر أو أخطأ . ولأبرهن لك صحة ما أقول من المقابلة بين الملك الأرضي وبين الكهنوت الذي هو أسمى من الملك الأرضي .

إن شاول بن قيس لم يسعَ لكي يصير ملكاً ، بل إنه قبِل أمر المُلك من صموئيل النبي حين كان راجعاً من التفتيش عن أتُن أبيه . فما اكتفى بأنه لم يظهر قبوله لهذا الكنز العظيم من رجل الله ، بل احتج ايضاً وقال : «من تكلم؟ أتعرف

من أنا ومن هو بيت أبي»؟ (١ صموئيل ٩ : ٢١). فهل أنقذه رفضه الملك من غضب الله لما انحرف وأساء استعمال سلطته فيما بعد؟ وحين سمع التوبيخ القاسي من صموئيل، أما كان بامكانه أن يجيب: لست أنا الذي سعيت وركضت وراء الملك، ولم أصعد على العرش من تلقاء ذاتي. أنا لم أكن أرغب إلا في أن أعيش كما يعيش باقي الناس حياة هادئة وأنت الذي رفعتني الى هذه المرتبة! ولو بقيت منسياً بين الشعب، ولم أتحمل هذا التكليف، لما عهد الله الَيّ بمحاربة عماليق. ولما أثرت هذه الحرب ووقعت في هذه الخطيئة! ولكنها احتجاجات باطلة! وماذا أقول؟ إنها احتجاجات مجرمة، وليس من شأنها إلا أن تثير غضب الله! عندما يتلقى الانسان منصباً فوق استحقاقه، فيجب أن يكون أبعد من أن يحتج بعظمة هذا المنصب، ليعتذر عن هفواته، بل يجب أن يفيد من الإنعامات الإلهية، لكي يرتفع الى أعلى ذرى الكمال. ومن ادعى عدم جواز قصاصه، لخطيئة ارتكبها، لأنه رُفع الى كرامة ما كان يطلبها، يجعل العزة الإلهية مسؤولة عن خطاياه الشخصية. وهذا كلام هراء، وكلام أناس بغير منطق، وبغير مخافة الله. ولا يجب أن يكون من كلامنا نحن. فلا نقعنّ في مثل هذا التجديف، بل يجب أن تكون كل أعمالنا وأقوالنا، في جميع المناسبات، عائدة لتمجيد الله، والا نتكلم ولا نفكر إلا بمديحه تعالى. ولنأخذ مثلاً آخر، لا من الملك بل من الكهنوت نفسه لأننا نتكلم عنه: ان عالي رئيس الكهنة، لم يسع هو ايضاً وراء الكهنوت. وهل نفعه هذا شيئاً بعد خطيئته؟ ماذا أقول؟ إنه لم يسع، ولم يطلب الكهنوت، وعلى الرغم من أنه لم يرد، لم يستطع أن يستعفي منه، والناموس أجبره على القبول، لأنه هو كان من عشيرة اللاويين التي كانت تتوارث الكهنوت منذ الأصل. ومع هذا فقد أجبر هو أن يدفع ثمن مخالفات ولديه حفني وفنحاس اللذين لم يحسن تربيتهما. وهارون نفسه الذي كان أعظم من كل رؤساء الكهنة، هارون الذي كان الله بواسطته يكلم موسى، لما خالف الله، وأضاع عقله، بموافقته الشعب، أفما كان حل به الهلاك مع كافة الشعب، لولم تحول صلاة أخيه موسى غضب الله عنهم؟ بل وعلى ذكر موسى، لنأخذ من حياته برهاناً أقوى من كل ما تقدم. هذا النبي أيضاً الذي لم يُظهر أقل ميل لقبول أمر ربه ليكون على رأس الشعب العبراني، حتى أنه رفض هذا التكليف وقاوم أوامر

الله الى حد استثارة غضبه تعالى، والذي لما وقع في قبول هذا التكليف، كان يتمنى الموت مختاراً لكي يتخلص منه («وقال موسى للرب: امتني إذا كنت تريد أن تعاملني على هذا النوع» (عدد ١١ : ١٥). هل دفعت عنه شيئاً تلك المقاومات؟ وهل حال رفضه المتواصل دون نزول عقوبة الله به عند تردده في التكلم مع الصخرة، لتفجر الماء، بدلاً من ضربها بالعصا؟ (لأن قوة الله هي التي تفجر الماء من الصخرة، لا الكلام ولا العصا . ولكن الكلام أظهرَ للعجيبة أمام الشعب) . وهل من سبب آخر لحرمانه من دخول أرض الميعاد ؟ ولأجل هذه الخطيئة وحدها ، رأينا هذا الرجل العظيم قد حرم من الفرح الذي ناله شعبه. بعد تلك الحروب والمتاعب والأهوال، وبعد أن قضى زمن التيه في القفر، وبعد وقائع وانتصارات كثيرة ، حُكم عليه بالموت بعيداً عن أرض الميعاد! فبعد أن تخلص من متاعب البحر وأهواله، حُرم من فرح الوصول الى الشاطىء.

وهكذا فأنت ترى أنه سواء أقدم الانسان من نفسه على الكهنوت أم أنه كان مدفوعاً من غيره ، فلا مغفرة له فيما يخطىء . وفي الحقيقة إذا كان هؤلاء الرجال الذين قاوموا إرادة الله كثيراً ، قد عوقبوا بشدة ، وإذا لم يحل شيء دون عقوبة هارون وعالي وحتى العظيم موسى، الذي كان أقدس وأعجب كل الأنبياء والذي كانت له دالة التكلم مع الله كدالة الصديق مع صديقه ، فكيف لنا ، نحن الذين أبعد من أن ندانيه في فضيلته ، كيف لنا أن ندافع عن أنفسنا ، ونتبرر أمام الله ، باحتجاجنا أننا لم نسع من أنفسنا وراء الكهنوت ، خصوصاً وان الأمر هنا ليس دعوة من الله بل انتخاب بشر أرضيين؟

إن الرب يسوع هو الذي اختار يهوذا وأحله في صف الرسل القديسين وفوض اليه كالباقين حمل رسالته . وقد خصه أيضاً بثقة خصوصية ، إذ أقامه أميناً على صندوق تلك الجماعة القليلة . ولما أساء استعمال هذه الحرية والكرامة ، وحوّلها الى غايات مناقضة ، ولما خانه الذي كان ينبغي أن يبشر به ، هل نجاه اختيار الله له من القصاص ؟

فيجب أن نستعمل الكرامة التي شرّفنا الله بها ، في سبيل مرضاته ومزيد إحسانه ، لا في اسخاطه علينا . ومثَلُ من يحتج عن خطاياه بعظيم ما أعطي من

الكرامة ، كمثل اليهود الجاحدين الذين كانوا يأخذون على مخلصهم والمحسان اليهم ، حسناته نفسها. وكانوا يقولون له : « لماذا تفعل العجائب؟ ألكي تزيد في عقوبتنا وتعذيبنا؟» والمسيح له المجد قال عنهم : « لو لم آت وأكلمهم ، لم تكن لهم خطيئة . وأما الآن فليس لهم حُجة في خطيئتهم» . ولكن مثل هذا الكلام يدل على الجنون المطبق وفقدان الحس .

إن الطبيب الإلهي لم يأت ليوقعك في المرض ، بل ليشفيك . لم يأت ليمر بك ويتركك في الملك ، بل ليخلصك منه نهائياً . ولكنك أنت الذي لم ترد أن تستفيد منه . فحق عليك القصاص الهائل . وإذا أنت أبقيت نفسك بكليتها بين يديه ، فقد تطهرت من كل آثار برصك القديم . وإذا أنت لم تغتنم فرصة زيارته لك ، فلن تحسن تطهير نفسك ، وإذا لم تتطهر ، فستعاقب ، ويكون عقابك فظيعاً لأنك أوتيت من الله إحساناً ومحبة لم تستفد منهما . فالاحتجاج إذن لا يفيد شيئاً. وإذ يكون الاحتجاج اعجز من أن يخلص الخاطىء يزيد في سوء حاله .

باسيليوس

آوآه! أين أنا وأين مكاني ! لست أدري أين أنا لكثرة ما أخفتني وأرعبتني ! ؟

يوحنا

لا ! أيها الصديق العزيز ! أرجوك ، وأعيذك ألا تقع في اليأس . فهنالك وسيلة ، ووسيلة أمينة للإفلات من الخطر . اما من كان ضعيفاً مثلي ، فوسيلة النجاة من الخطر هي في عدم التعرض له . وأما من كان قوياً مثلك ، ففي الإقدام ، وعدم الإساءة الى الكهنوت ، ولا الى الله الذي شرفك به ، فضلاً عن الاعتماد على المعونة الالهية . لأن الذين دفعوا الى الكهنوت ، ثم دنسوه بالإهمال والسقطات يعاقبون . وهذا يعني أن هذا الانتقام الالهي يلحق الذين لم يسعوا إليه من أنفسهم .

إذا تعالت آلاف الأصوات في يوم انتخابك تهتف لك وتدفعك الى

القبول ، فلا تعوّل على هذا مطلقاً ، ولا تنزل عند رغبتهم إلا بعد فحص عميق لنفسك ، وتقدير صحيح لمقدرتك وأهليتك . وما من أحد يبني بيتاً إذا لم يكن بنّاءً، وما من أحد يطبب مريضاً إذا لم يكن طبيباً . وإذا ما دعي الى أن يفعل هذا ، ولو بألف طلب ، فإنه يرفض على الأقل ، ولا يكون عنده أقل خجل في إعلان جهله .

وإذ ذاك فكيف يقبل المرء الكهنوت ، وليس عنده شيء من آلة الكهنوت! والكهنوت هو العلم الذي يُعنى بالنفوس الخالدة ؟ كيف يقبل دون التفات الى مقدرته ، وعدم خبرته في هذا العلم ؟ أوَ لأنّ فلاناً يريد ذلك ؟ أو لأن فلاناً يدفعه إليه ، أو لأنه لا يريد أن يغضب فلاناً من الناس ؟ أليس معنى هذا أنه يريد أن يتكردس مع هؤلاء الأشخاص في الهاوية ؟ وقد كان يمكن له أن يخلص نفسه قبلاً ، أما بعد تسليمه لرغبة غيره ، فإنه يحكم على نفسه وعليهم بالهلاك .

وفي الواقع من يستطيع أن يخلصك ؟ من يستطيع أن يشفع لك ؟ ومن هم الذين يساعدونك ، في القضاء الأخير ، على الخلاص مما وقعت به ؟ أهم هؤلاء الذين يصفقون لك الآن ويدفعونك الى قبول الكهنوت ؟ وهم الذين سينالهم القصاص قبلك ؟ وهم سيكونون أشد حاجة منك الى غيرهم ليتخلصوا من النار الخالدة ؟ وإنما أقول لك هذا القول لا لكي أخيفك بل لكي أظهر لك الحقيقة عارية .

انتبه الى ما يقول القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس ، ذاك الذي كان ولده الروحي الحقيقي والحبيب اليه كثيراً : « لا تستعجل بوضع يديك على أحد حتى لا تكون مسؤولاً عن خطايا الآخرين » (١ تيمو ٥ : ٢٢) . أرأيت من أية ملامة ، بل من أي قصاص خلصت أنا أولئك الذين كانوا يريدون أن يرسموني ؟ فكما أنه لا يكفي المنتخَب أن يحتج ويقول إنني لم أقدم نفسي ، ولأنني لم أشتبه في شيء قد استسلمت ، كذلك لا يفيد الناخبين أن يقولوا أنهم لم يكونوا يعرفون المنتخَب . إذ أنهم يزيدون في إعلان جريمتهم لانتخابهم من لا يعرفونه . واحتجاجهم يزيد قصاصهم .

قل لي ، رعاك الله ، أليس فيما يحدث عجب وغرابة؟ إذا أردنا أن نشتري

عبداً ،مثلاً، فإننا نعرضه على الطبيب ، ونطلب من صاحبه كفالة ، ونسأل عنه جيرانه ومعارفه ، ولا نكتفي بكل هذا حتى نختبره زماناً يسيراً . عجباً ! هذا ما هو حال العبيد . وعندما نريد أن نختار رجلاً مخصصاً لأسمى خدمة ، يجري انتخابه بغير فحص وتنفيذاً لرغبة فلان أو فلان ؟ فمن يشفع لنا إذن في يوم القضاء الأخير إذ يكون الملزمون بالدفاع عنا تحت طائلة الدينونة والعذاب ؟ والعقوبة تنال الناخبين والمنتخَب معاً ، لان الناخبين لا يفحصون عن المنتخَب ، بل لأغراض عالمية محض ينتدبونه الى هذه الرتبة . والمنتخَب لا يفحص نفسه، بل ينزل عند رغبتهم ، فيقع تحت طائلة القصاص مثلهم . وإذا صح للناخبين أن يحتجوا بأنهم انخدعوا برأي الجمهور فمع هذا لا ينجون من القصاص ، ولكن قصاصهم يكون أخف ، لأنه قد يحدث أن ينخدعوا بالشهرة الكاذبة . في حين أن المنتخَب ليس له أن يحتج بعدم معرفته نفسه .وعليه، إذا انخدع الناس به أن يبادر هو الى تفهيمهم بعدم استحقاقه وأهليته لمثل هذه الرتبة حتى ينجو هو من العقاب .

فكيف بنا في الأمور الحربية مثلاً أو التجارية أو الزراعية وغيرها من الأمور المادية ، لا نرى مطلقاً فلاحاً يصير رباناً أو جندياً يسعى وراء المحراث ، أو بحاراً يتعاطى الجندية حتى ولو هدد بالموت الشنيع ؟ أليس هذا لأن كلاً منهم يرى في ذلك الخطر الذي سيسوقه اليه جهله بتلك المهنة؟فإذا كنا في المصالح التي ليست مهمة ، نعرف أن نُقدِّر كل شيء ولا يجبرنا على قبولها شدة أو إكراه ، فكيف نندفع الى الكهنوت مستسلمين ومتعامين لنوقع أنفسنا في التهلكة وفي العقاب الخالد ، محتجين بإكراه الناس لنا على قبوله .

غير أن القاضي السماوي لا يقضي مثل قضاتنا ،ولا يفكر مثل تفكيرنا. ذلك أن الأمور السماوية تقتضينا احتراساً وتحفظاً أكثر مما تقتضينا الأمور الأرضية ومع هذا لم نحترس ولم نتحفظ . إذا عزمت على بناء بيت ، وعرض لك رجل فأخذته كمهندس ، وهو لا يسمع بالهندسة ، ليهندس لك البيت ، فإذا به يفسد كل شيء في العمارة . فإذا تهدم ذلك البيت أهَلْ يكفي الرجل أن يحتج بأنه أُجبر ولم يأت من تلقاء ذاته ؟ كلا ! لأنه كان عليه أن يرفض هذا التكليف قبل

الشروع في العمل .

وإذا كان الذي يتلف خشباً ويهدم حجارة ، يَعدَم الحجة ، لينجو من القصاص ، فكيف يسوغ لمن يهلك أنفسنا أن يحتج بأنه انتدب الى الكهنوت على غير رغبة منه ؟ وهل ينجو من القصاص ؟ هذا مع أنه ليس من المعقول أن يجبر أنسان على قبول شيء لا يريده ، ولكن فلنفترض أنه خضع للقوة ، أو وقع في حبائل نصبت له ، أوَهل تظن أنه ينجو من العذاب ؟ كلا ! أؤكد لك ذلك . ولا نخدعن أنفسنا، ولا نتجاهل فيما يعرفه الأولاد الصغار . وهذه المزاعم لا تنطلي على أحد في أيامنا .

هل شعرت بضعفك فلم تسع الى الكهنوت ؟ هذا صحيح وحسن . إذن كان عليك أن تتهرب منه حالاً عندما دُعيت إليه . ولما رأيت الناس يفتشون عنك ليرفعوك الى تلك الدرجة ، وجدت نفسك فجأة رجلاً آخر ؟ أوليست هذه مهزلة ! أوليست جهالة وحماقة تستحق أشنع العقوبات ؟ ! ألم يحذر السيد من الاقدام على بناء قلعة قبل عمل حساب للموارد والنفقات حتى لا يصير عرضة لهزء الناس ؟ (لو ١٤ : ٢٨).ولو لم يكن هناك غير هزء الناس لكان الأمر هيناً ، ولكن هناك خشية النار الأبدية ، والدود الذي لا ينام ، وصرير الأسنان، والظلمة الخارجية ، والانفصال عن الصالحين ، والسقوط مع المحكوم عليهم . وهذا ما لم يره ويقدره الذين يشكونني .

فليست القضية هنا قضية قمح أو شعير ، ولا بقر ولا غنم ولا شيء من هذا ، بل هي قضية جسد المسيح نفسه ، الكنيسة التي يعهد بها الى الإنسان . والذي يعهد اليه بالكنيسة ، يجب أن يحفظ لها سلامة تامة ، وجمالاً خالياً من العيب . ويجب أن يكون دائماً ساهراً عليها حتى لا يعلق بها غبار أو وسخ يفسد بهاءها ونضارتها . أوَليس من أول واجباته أن يجعلها جديرة بختنها الإلهي الخالد ؟

فإذا كان الرجال الذين يتعاطون المصارعة ، يحتاجون ، لكي يحفظوا صحتهم وسلامتهم ، الى أطباء وأساتذة ، والى اتباع نظام معيَّن صارم ، والى تمرينات ورياضات دائمة ، والى ألف نوع من العناية ، بحيث أنه إذا نقص

واحد منها ، قد يعطل كل شيء ، فكيف لرجل الكنيسة الذي كَلف الاهتمام بجسد المسيح وتهيئته للصراع لا ضد مصارعين منظورين ، بل ضد قوات خفية غير منظورة ، كيف لمثل هذا الرجل أن يحفظ نفسه صحيحاً قوياً إذا لم يكن ذا فضيلة تسمو على فضيلة الرجال العاديين ، ودون أن يعرف كيف يطبب ويشفي آلام النفس ؟

ولا أظنك تجهل أن الأمراض التي يتعرض لها جسد الكنيسة هي أكثر من أمراض جسدنا ، وهي أشد فعالية ، وأوسع انتشاراً وأبطأ شفاء . وقد أوجد الأطباء لأجل تطبيب أمراض الجسد كل نوع من أنواع العلاجات ، واخترعوا كل نوع من الآلات والأدوات ، ووصفوا لكل مرض علاجاً ونظاماً. فكثيراً ما يكون تغيير الهواء كافياً لإعادة الصحة ، وقد يكون قليل من النوم والراحة أمراً كافياً لإعادة الاعتدال الى الجسم. أما أمراض النفس ، فليس لها من هذه الأمور السهلة شيء . وبعد المثال الصالح ، لا يبقى إلا وسيلة وحيدة ومورد واحد للشفاء ، هو التعليم بالكلام .

الكلام هو أداة طبيب النفوس . وهو يحل محل كل شيء : النظام وتغيير الهواء وكل الأدوية . الكلام هو الذي يشخص المرَض ويشفي المريض . وإذا فقدت موهبة الكلام فقد فُقد معها كل شيء . هو الذي يُنهض النفس الساقطة ، وهو الذي يخمد نار الغضب ، ويقوم مقام النار والحديد في الكي والقطع (للأعضاء المريضة وغير النافعة) . صحيح أن المثال الصالح هو خير واسطة للإقتداء به في السلوك . واما في شفاء النفس المريضة بسم الضلال، فلا واسطة غير الكلام ، لا لأجل حفظ إيمان المسيحيين فقط، بل لأجل مقاومة الأعداء الخارجيين.

كنا نتمنى لو سلّحنا الله بدرع الهي ، وقلّدنا سيفاً روحياً حتى نستطيع فعل العجائب ! ولو كانت العجائب التي تجري على أيدينا تستطيع دائماً أن تخرس ألسنة الذين يتجاسرون على مقاومة النور ، لما كنا بحاجة الى واسطة الكلام ! معاذ الله !ماذا اقول؟ هل يصبح الكلام ، مع العجائب ، غير نافع ؟ كلا ! بل ولو تسلحنا بموهبة صنع العجائب ، فنكون أشد اضطراراً الى موهبة الكلام. إن القديس بولس الرسول كان يعتمد على الكلام دائماً على الرغم مـ

عجائبه التي كان يدهش بها العالم. وهو ليس الوحيد بين الرسل يأمرنا بأن نعتمد على قوة الكلام. فقد قال القديس بطرس: «كونوا مستعدين دوماً لكي تجاوبوا الذين يجادلونكم في إيمانكم» (١ بطر ٣: ١٥). ولم يعهد الرسل القديسون قديماً الى القديس رئيس الشمامسة استفانوس الاعتناء بالأرامل إلا لكي ينصرفوا هم الى التعليم وخدمة الكلمة بالكلام والكرازة.

وعلى كل حال، فلو كانت لنا الآن موهبة صنع العجائب، لما كنا نشعر بشدة الحاجة القصوى الى الكلام. ولكن بما أنه لم يبق لتلك الموهبة (موهبة العجائب) أثر، وبما أن أعداء الكنيسة يتزايدون في كل يوم، آتين من كل حدب وصوب، لزم أن نتسلح بالسلاح الذي بقي لنا حتى لا ننغلب أمام الأعداء، أو بالأحرى لكي نجتذبهم إلينا بالإقناع.

فعلينا اذاً أن ننشط الى إغناء أنفسنا بكلام المسيح، لأنه علينا أن نكون مستعدين لكل نوع من أنواع المعارك، ونثبت للحرب التي تتزيى بكل الأزياء، ونقاتل الأعداء المختلفين. فليس للكل سلاح واحد، وليست للكل طريقة واحدة في المقاتلة. وإذا كان على الانسان أن يمارس كل أنواع القتال، يجب أن يعرف كل طرائق القتال، فيحسن الرماية، وتقسيم الجيش الى كتائب وكراديس، وأن يكون جندياً وقائداً، راجلاً وفارساً، يحسن قيادة الأساطيل في البحار، ويحسن الحصار على الأسوار. وفي المعارك العادية يقوم كسر العدو على أن يلزم كل جندي مكانه ودفاعه، ولكن في الكنيسة، فلكي نغلب، يجب أن نعرف كل أنواع الحيل في هذه المهنة. وذلك لأنه إذا اتفق أن تهمل ناحية من النواحي، فمن تلك الناحية ينسل الذئب الى داخل حظيرة الخراف لكي يخطفها. والشيء الوحيد الذي يعطل أو يلاشي محاولاته، هو حذر الراعي وسهره. فيجب إذاً أن نسهر من كل النواحي.

إن المدينة حين تكون مسلحة من كل النواحي بحامية قوية، فإنها تهزأ بالمحاصرين، ويعيش سكانها في طمأنينة، ولكن إذا فتحت فيها ثغرة صغيرة، لا يفيدها السور المنيع كله بشيء مهما يكن قوياً ومحصناً. وهكذا الأمر في مدينة الله. فما دام الراعي ساهراً عليها، وحافظاً لها من كل الجهات، تذهب جهود

الأعداء المحاصرين وأتعابهم سدىً ، ويعيش المؤمنون فيها بأمن وسلام . ولكن إذا نجح الأعداء بفتح ثغرة واحدة ، سهل عليهم فتح كل المدينة ، ولو كانت بقية النقاط محصنة .

وبالفعل ماذا يفيدنا لو نحن غلبنا الوثنيين، إذا حل اليهود محلهم ؟ وماذا يفيدنا أن ننتصر على هاتين الفئتين المهاجمتين إذا تسلل المانويون الى حظيرتنا ؟ أو إذا انهزم المانويون وحل مكانهم القدريون وغيرهم وغيرهم؟ ولكن لا نستطيع أن نحصي كل الهرطقات والبدع. والراعي يجب أن يقاومها كلها . والواحدة منها تكفي لأن تفسح المجال للذئب الى دخول الحظيرة.

- وفي الحرب إما حياة وإما موت ، أما هنا فليس الأمر هكذا. فقد يُرجحّ أن يربح المعركة أناس لم يكونوا فيها من أول الوقت ولم يقاتلوا ، بل كانوا يتفرجون من بعيد هادئين مطمئنين . ومن يتقلد سيفه ولم يستطع الضرب به،كونه بغير خبرة في القتال يسقط صريعاً ويغدو مضحكة لأعدائه وأصدقائه . وهكذا بينما ترى الماركيونيين واليهود في نزاع وشحناء فيما بينهم ، وقد حذف الأولون ناموس موسى وسائر الكتاب المقدس ، وتعصب اليهود على العكس ، وعلى الرغم من تغير الزمان وارادة الله للناموس الموسوي وتطبيقه بحذافيره ، ترى الكنيسة بعيدة عن آراء هاتين الفئتين قد اتخذت حلاً وسطاً، لا تتقيد بالناموس القديم تماماً ولا تحط من قدره . واستغناؤها عن الناموس الموسوي في الحاضر لا يمنعها من أن تمدحه وترى نفعه في الماضي .

فعندما يقتضينا الأمر مقاتلة فرقتين متضادتين يجب أن نعرف حفظ الاعتدال والاتزان. فإذا أردنا أن نبرهن لليهود أن الناموس ليس لعهدنا الجديد أبداً، وبدأنا نهاجمهم بدون مراعاة ولا تحفظ ، نكون قد ظاهرنا الهراطقة الذين يريدون الحط من قيمته. وإذا أردنا، من جهة أخرى ، أن نخرس اشياع ماركيون وقالنتينوس ، وأفرطنا في تقريظ الناموس الى درجة يظهر معها أننا ربما كنا على خطأ في نبذه الآن، نكون من هذه الجهة قد ظاهرنا اليهود حتى مكنّاهم من الغلبة.

والإفراط البالغ حد الغلو هو الذي جعل اتباع سافيلّيس المجانين واتباع آريوس المتلبكين، يحيدون كلهم عن الإيمان القويم ، وكلا الفريقين يدّعي أنه

مسيحي. ولكن إذا فحصنا نظرياتهم نجد أن الأولين لا يتميزون عن اليهود إلا بالاسم فقط، وأن الآخرين يقتربون كثيراً من هرطقة بولس السميساطي، ولكن الفريقين كليهما خارج الحقيقة.

وهكذا أرانا نتعرض لأخطار جمة في التقائنا بالهراطقة . فكأننا نمشي في طريق ضيقة ملتوية تكتنفها من جانبيها الحفر والعثرات. وكثيراً ما نخشى أن نكون تعرضنا لضربة عدو حينما نريد ضرب عدو آخر . وإذا قلت بالحقيقة أن الألوهية هي واحدة أسرع سافيليوس ، بالاستناد الى قولك ، الى تأييد زعمه بوحدة الأقنوم . وإذا أقمت التمييز بين الأقانيم وقلت أن كلاً من الآب والابن والروح القدس هو أقنوم ، يأتيك آريوس، بالاستناد الى هذا التمييز ، ليقول بتنوع الطبائع بين الأقانيم . فيجب أن نطرح ونجتنب خلط الأول الكفري وتنويع الثاني الغير معقول معاً ، ونعرف جيداً أن ألوهية الآب والابن والروح القدس هي واحدة ، ونميز جيداً ، بنفس الوقت ، الأقانيم الثلاثة عن بعضها ، ومن قلعة هذه الحقيقة نستطيع أن نصد هجوم الفريقين والتغلب عليهم جميعاً.

وأستطيع أن أعدد لك أيضاً شتى الاصطدامات الأخرى مع الأعداء حيث يجب أن يستعمل فيها الانسان كل شجاعته ومهارته، إذا لم يرد أن يخرج من المعركة مثخناً بالجراح.

وماذا عساني أقول ، من جهة أخرى ، في الخلافات والمناقشات التي تجري بين المؤمنين أنفسهم، وهي معارك لا تقل خطراً وإجهاداً عن المعارك مع الأعداء ، وقد تسببت كثيراً من الأذى لمن يكلّف بالتعليم : فهناك قوم ممن يدفعهم حب الاستطلاع لا يهتمون إلا بإثارة أسئلة ، ليس في معرفتها فائدة ، ولا يهتدي أحد السبيل الى حلها . وفريق آخر يريد أن يعرف أحكام الله وقضاءه ، ويريدك أن تكون سابراً غور عدالته تعالى ، على الرغم من أن النبي صاحب المزامير يقول : « أحكامك يا رب هي بحر لا يُسبر غوره» (مز ٣٥ : ٧) . ولا تجد إلا القليلين ممن يفهمون العقائد ببساطة أو قواعد الأخلاق. وتجد الأكثرين لا يثيرون إلا قضايا وأسئلة، مجرد التفكير فيها والتفتيش عنها يثير سخط الله . وعندما نريد أن نفهم فوق ما أعطانا الله أن نفهم ، لا نستغل سوى

الخطيئة من أجل اقتحامنا هذا الخطر ، وتعرضنا لما قد يضيع إيماننا . وإذا أردت أن تستعمل أنت سلطتك في مثل هذه الحالات لمنع هذه التفتيشات الباطلة،وتكم أفواه أصحابها ، ينظر اليك الناس كمبالغ متزمت ، أو كجاهل غبي . ومن هنا تعرف مقدار ما يجب أن يكون عليه الأسقف من الحذر ليبعد المسيحيين عن هذه التفتيشات الباطلة ، واجتناب الشكايات المثيرة المزعجة . وليس له سلاح في مقاومة هذه الهجمات والمعارك سوى سلاح الكلام فقط . فإذا عدم موهبة الكلام ، فإن النفوس التي عُهد اليه بإدارتها ، ولا سيما الضعيفة منها والمعذبة بحب الاستطلاع ، تصبح كأنها سفينة تتخبط بلا انقطاع في وسط العاصفة . ولأجل هذا السبب يجب على الكل أن يعمل كل ما في وسعه حتى يمتلك ناحية الكلام وقوة البلاغة .

باسيليوس

إذا كان الأمر هكذا فلماذا لم يسع القديس بولس الرسول الى الحصول عليها ؟ فهو من غير أن يخجل من فقره في الفصاحة يصرح بجهله وهو يخاطب على الأخص الكورنثيين وهم اليونان المشهورون بالفصاحة والبيان ، الأمر الذي كان من أكبر دواعي فخرهم ومجدهم ؟

يوحنا

إن هذا وهم وقع فيه كثيرون ، وحدا بهم الى عدم التسلح بقوة الكلام ، لأنهم إذ لم يستطيعوا أن ينفذوا الى عمق أفكار هذا الرسول أو أن يفهموا معاني كلامه ذاته ، قضوا حياتهم بالكسل والتواني متمسكين من وجهة دينية بالجهالة ،ولكنها ليست الجهالة التي يتكلم عنها القديس بولس ، بل تلك الجهالة التي لم يأت على ذكرها ، وهو عنها ، أبعد الناس طراً . ولنتكلم عن هذه الناحية الآن .

لنفترض الآن أن القديس بولس كان من الجهل بفن الكلام على النحو الذي يتصورونه ، فماذا نقول إذاً في رجال عصرنا الحاضر ؟ إن القديس بولس كانت له قوة فوق الكلام تحدث الأحداث العجيبة ، لأن وجوده من غير أن يتكلم

كان يرجف الأبالسة .

إن رجال العصر الحاضر جميعهم مع كل صلواتهم ، وكل دموعهم ، لا يحصلون على القوة التي كانت تنبعث من ثوب بولس وحده . إن صلاة هذا القديس كانت تقيم الموتى ، وعجائبه جعلت الوثنيين يؤلهونه . وفي هذه الحياة الحاضرة استحق أن يُخطف الى السماء الثالثة ويسمع كلاماً لا تستطيع طبيعة البشر أن تسمع مثله . ورجال العصر الحاضر (ولست أريد أن أقول ما يهين أو ما يجرح شعورهم ، لأنني إنما أتكلم مأخوذاً بإعجابي بهذا الرسول) ألا يرتجفون خوفاً من مجرد تفكيرهم بمضارعتهم لمثل هذا الرجل ؟

لندع عجائبه ، ولا نعتبر إلا بحياته . أفلا ترى أن وجوده الملائكي وحده ، قد هيأ له كل الانتصارات كجندي للمسيح ؟ وبالفعل من يستطيع من الناس أن يتكلم بكفاية عن غيرته وفضله وأن يصف الأخطار الدائمة التي كان يتعرض لها ، واهتماماته الدائمة ، وقلقه المتواصل على كل الكنائس، وحنوه على الضعفاء ، وشدائده الكثيرة المتنوعة، والاضطهادات الدائمة التي لحقت به، وموته اليومي من أجل المسيح ؟ فلكم رأته القفار ضارباً في مفاوزها يلتمس ملجأ من الأخطار ، لأن الناس نصبوا له كل نوع من الحبائل وتغلب عليها . ونحن نرى أن حياته إنما كانت صراعاً دائماً وغلبة دائمة . ولكن أراني قد أخطأت بتقريظي له . فإن كل ما فعله هو فوق ما أستطيع أن أتكلم عنه . وأنا أقل شأناً بكثير من سائر الكتَّاب . ولكن على الرغم من ذلك (والقديس لا ينظر الى كفاءتي بل ينظر الى نيتي) لا أستطيع إلا أن اذكر الميزة التي تفوق غيرها بمقدار ما يفوق هذا القديس بقية الرجال. تلك هي انه، بعد كل ذلك النضال الذي ناضله والانتصارات التي حازها، يطلب نار جهنم لنفسه، ويطلب القصاص الدائم ، ويفضل الهلاك لنفسه من أجل خلاص اليهود واقتيادهم الى المسيح. أجل أولئك اليهود الذين أبغضوه، والذين حاولوا مراراً أن يقتلوه ولكنهم لم يفلحوا . فمن أحب المسيح الى هذا الحد ؟ وهل نستطيع أن نسمي هذا محبة فقط وهل من كلمة تعبر عن هذا الموقف؟ وإنا إذ نرى مثل هذه الهبات الواردة إلينا من السماء، ونرى أنفسنا بحضرة مثل هذا الرجل المملوء بالاستحقاقات والكرامات، فكيف

نستطيع أن نقابل بيننا وبينه؟ إن هذا لعمري منتهى الجرأة!

والآن أريد أن أبرهن لك أنه لم يكن على شيء من الجهل الذي فهمه البعض وأرادوا أن ينسبوه إليه . فهناك نوعان من الجهل : جهل بصناعة الكلام ، وجهل بالدفاع عن الحقيقة .

إذا افترض في الخطيب أن يكون له اتساق فكر إيسوقراط وقوة ديموستين ، وفخامة إنشاء توكيذيذس، وسمو أفلاطون ، فإن القديس بولس يفوقهم جميعاً . ولكن ليس في هذا كله تكمن قيمة بولس الرسول . وإني أسامحك بهذه الزينة الخارجية الباطلة . وليس لك عند بولس أيضاً ، أن تلتمس قيمة للإنشاء والتأليف ،فقد يكون إنشاء بولس ضعيفاً ، وتأليفه بسيطاً في فنه ، ولكن المهم هو أن تعترف أنه كان على علم صحيح وعميق بالحقيقة . وهذه أعظم ميزة يمتاز بها ، وأعظم لقب من ألقاب مجده .

وقل لي الآن ، كيف نجح ، قبل أن يعطى موهبة صنع العجائب ، أن يقلب أفكار اليهود في دمشق ؟ وكيف أفحم وأخرس اليهود الهللينيين ؟ ولماذا أرسل إلى طرسوس ؟ أليس كل ذلك عائداً إلى ما كان عنده من قوة الكلام الغلابة التي كان يسحق بها قوة خصومه إلى حد أنهم يجربون أن يقتلوه عندما لا يتحملون الرد عليه ؟ وبما أنه لم يكن قد أعطي بعد نعمة صنع العجائب ، فلا يستطيع أحد أن يزعم أن ضجة عجائبه ودهشتها هي التي تقتاد الشعب إليه ، وأن أعداءه كانوا ينهزمون من اسمه وشهرته ، فإلى ذلك الحين كانت كل قوته منحصرة في كلامه . وكيف تصدى لليهود المتنصرين في إنطاكية وأفحمهم بالمناقشة والجدال ؟ أوليس بقوة كلامه فقط استطاع أن يقتاد إلى المسيحية قاضي قضاة أثينا ديونيسيوس أريوباتيس وامرأته ذامرس ،في أثينا المتشامخة على مدن العالم بأسره ؟ ألم يبق الناس إلى عمق الليل يسمعون كلامه ؟ أو لم يقض سحابة يومه وسواد ليله يشرح الكتب في تسالونيكي وكورنثوس وأفسس ورومية نفسها ؟ وماذا نقول في مجادلاته ووقائعه مع الأبيقوريين والرواقيين؟ ثم وإذا أردنا أن نأتي على ذكر كل شيء من هذا فالمجال يتسع كثيراً .

فعندما نرى القديس بولس الرسول يعتمد على الكلام كل الاعتماد سواء قبل أخذه موهبة صنع العجائب ، أو بعدها ، فكيف نعزو الجهل إلى من كان كلامه ، مع عجائبه ، يملأ العالم بأسره تعجباً واندهالاً ؟ وما السبب في أن أهل لاكؤنيا قد اتخذوه إلهاً وسموه هرماس ؟ لا شك أن عجائب بولس مع برنابا هي التي جعلتهم يؤلهونهما ، ولكن من أجل إله الفصاحة ألهوا بولس . ولذلك فإن تأليه بولس لم يكن مديناً لعجائبه ، بَل لكلامه فقط .

ومن أين له إذن التفرد والامتياز على سائر الرسل المجيدين ؟ ومن أين له أن يلهج العالم في جميع أقطاره بذكره ، وأن يسير ذكره على كل شفة ولسان ؟ ومن أين له هذا الإعجاب به أكثر من بقية الرسل ، ليس عند المسيحيين فقط ، بل عند اليونان واليهود أيضاً ؟ أليست القوة السارية في رسائله هي التي أفادت لا مسيحيي زماننا فقط ، بل المسيحيين قاطبة ؟ ولن تنقطع هذه الإفادة ما دام يولد بشر فوق البسيطة . فإن رسائله هي أشبه بحصنٍ من حديد يحيط بالكنيسة في كل أقطار العالم . ومن يقرأ رسائله يتمثل هذا القديس كأنه البطل الصنديد يقف في وسط ساحة القتال ، وينبري لكل من تحدثه نفسه أن يغيرٌ تعليم الله . ذلك هو فعل رسائله التي خلفها والمملوءة من الحكمة الإلهية ! . . .

ولسنا نستعمل رسائله لتفنيد البدع والهرطقات ، وإثبات الإيمان على نقاوته الأصلية فحسب ، بل على أساسها نبني قواعد الأخلاق . وبواسطة كتاباته يستطيع الأساقفة أن يزينوا العروس التي قدمها بولس للمسيح (الكنيسة) ويسبغوا عليها كل الجمال الروحي . وبواسطة كتابات بولس، يستطيعون أن يدفعوا عنها الأمراض التي تتهددها وأن يحفظوها سالمة من العيب . أجل هذه هي الأدوية التي خلفها لنا هذا الرسول (المحسوب جاهلاً) . وهذا هو تأثيرها القوي ، كما يعرفها بالاختبار الذين يطالعونها دائماً ويفهمونها !

وحرص القديس بولس على قيمة العلم والتعليم يُستنتج مما قاله هو نفسه . فاسمعه يوصي تلميذه تيموثاوس : « واظب على القراءة إلى حين قدومي وعلى الوعظ والتعليم » (١ تيمو ٤ : ١٣) .وفي موضع آخر أيضاً : « وعبد الرب يجب عليه أن لا يشاجر بل يكون ذا رفق نحو الجميع، قادراً على التعليم ، صبوراً»

(٢ تيمو ٢ : ٢٤).

واسمع إلآن ما يوصي به تيطس بشأن انتخاب الأسقف : « ملازماً الكلام الصادق المختص بالتعليم لكي يقدر أن يعظ بالتعليم الصحيح ويحاج المنافقين » (تيطس ١ : ٩). فكيف لجاهل ، كما يقال عنه ، أن يفحم خصومه ومهاجميه ؟ وعلام الاجتهاد في درس رسائله ودوام مطالعتها إذا لم يكن فيها غير الجهل ؟ فيا لها من حجج واهية ، واعتراضات باطلة وأعذار فاسدة ! وقد تقول لي أن كل هذه التعاليم ليست ضرورية إلا للكهنة ، لأنه هنا يتكلم عن الكهنة خصوصاً . فأجيبك :ولكنّ العلم ضروري أيضاً للمؤمنين كافةً، واسمع ما يقوله لهم القديس بولس في رسالة ثانية : « ولتحل كلمة المسيح فيكم بقوة، معلمين وناصحين بعضكم بعضاً بكل حكمة» (كولو ٣ :١٦). وبعد هذا ايضاً: «وليكن كلامكم ذا لطف كل حين مصلحاً بملح حتى تعلموا كيف ينبغي لكم ان تجاوبوا كل انسان» (كولو ٤ : ٦).وعندمايوصي بأن نكون دائما مستعدين للدفاع عن الإيمان يخاطب أيضاً الجميع قائلاً : «وأن تحرصوا على أن تكونوا هادئين تعلمون ما يعنيكم وتشتغلون بأيديكم كما أوصيتكم حتى تسلكوا سلوكاً لائقاً لدى الذين في الخارج ولا تكون بكم حاجة إلى أحد» (١ تسا ٤ : ١١). وأما فيما يختص بالكهنة فاسمع ما يقول لتيموثاوس: «لاحظ نفسك والتعليم واستمر على ذلك . فإنك إذا فعلته تخلص نفسك والذين يسمعونك» (١ تيمو ٤ :١٦). وفي هذا غاية خدمة الكاهن ان ينجح بالمثال والكلام في اقتياد الذين علمهم إلى الحياة الكاملة التي رسمها لنا المسيح. فالمثال وحده لا يكفي للتعليم. ولست أنا القائل هذا بل المسيح المخلص الذي يقول: «من عمل وعلم هذا يدعى عظيماً في ملكوت الله». فلو كان العمل دون التعليم كافياً، لكان من الفضول قوله: «وعلّم»، ولاكتفى بالقول: «من عمل » . ولكن السيد هنا أراد أن يجعل فرقاً بين العمل والكلام، وأن يبيّن لنا أنه لأجل تهذيب الأنفس وبنائها يسير العمل والكلام جنباً إلى جنب، ولا يغني الواحد عن الآخر.

واسمع أيضاً ما يقول القديس بولس الإناء المصطفى لكهنة أفسس : « لذلك اسهروا متذكرين اني ثلاث سنين ليلاً ونهاراً لم أفتر عن أن أعلم بدموع كل واحد منكم (اعمال ٢٠ : ٣١). ففيمَ الدموع ، ولِمَ الإقناع المتكرر ولو كانت

حياته الرسولية تشرق بالنور ؟

ولا أنكر أنه لأجل ممارسة الوصايا عملياً يلزمنا المثال الصالح ، ولكنه لا يكفي وحده . لأنه ماذا يفيد السلوك والمثال إذا اختصم الناس في نظرياتهم ، ونشب الجدال ، واعصوصب الشر ، ولم يكن للمحاربين من سلاح سوى الأقلام ؟ وماذا تفيد الناسك أعراق النسك والتقشف إذا أوقعه جهله في هرطقة فُصل لأجلها عن جسد المسيح على الرغم من صرامة سلوكه وحياته ؟ (وهذا ما حدث لكثيرين ممن عرفتهم) . لا شيء . فلأجل هذا يجب أن يكون الإنسان على معرفة تامة بجميع أنواع هذا النضال عندما يكون مكلفاً تعليم الآخرين . لأن الراعي ، ولو بقي صامداً في عقيدته ، وغير خائف من ضربات خصومه ، فإن شعبه ، ولا سيما ذوي النفوس الضعيفة ، عندما يرون رئيسهم مغلوباً وملازماً الصمت ، ينسون أن يعزوا ذلك إلى ضعفه بل يرون في موقفه ضعف العقيدة وتزعزعها . وهكذا فإن جهل رجل واحد قد يجر شعباً برمته إلى الهلاك . وقد لا يذهب الشعب كله ، وحالاً ، إلى صف الأعداء ، ولكن القضايا التي لم يكن يخامره فيها شك إلى ذلك الحين ، يبدأ الشك بغزوها والتسرب إليها ، ولا يعود الشعب يثبت فيما كان يعتقده بقوة ورسوخ . فاضطراب وضعف معلمهم قد أثار في نفوسهم عواصف الشك التي قد لا تنتهي إلاّ بأن تغرقها في اليم . ولست بحاجة إلى أن أعرفك عن القصاص الهائل الذي يجره فقدان هذه الأنفس على ذلك التعيس الذي كلف تعليمها والعناية بها لأنك تعرفه أكثر مني . فانظر أين ذهبت بكبريائي وإبائي ومجدي ، حتى لا أذهب بمثل هذه النفوس إلى الهلاك ولا أجر على نفسي من العقوبات فوق ما ينتظرها . فمن يشكوني ويلومني بعد هذا إلاّ المرضى بالثرثرة والإفتراء .



المقالة الخامسة

كيفية التعليم

الآن ، وقد انتهيت من الكلام عما يجب أن يكون عليه الكاهن من وفرة العلم في عرضه للحقيقة ودفاعه عنها ، أريد أن أتكلم عن المصاعب والأخطار التي يلقاها عند التكلم ، وعن الاهتمام الذي يجب أن يكون عنده في تهيئة مواعظه للشعب . وليس هناك من خطر إلا إذا كان المتكلم قليل الخبرة والكفاءة والتمرن فإذا جمع المتكلم بين الغيرة والكفاءة، فإن الكلام عندئذ يكون آلة عجيبة للسلام ومنبعاً غزيراً للخيرات.

وأولى الصعوبات التي يلقاها هي موقف المؤمنين منه . فالأكثرية الساحقة من المؤمنين لا يرون أبداً في الكاهن الرجل المكلف تعليمهم . وعندما يأتون إلى الكنيسة لا يأتون بقصد التعلّم بل كأنما يأتون إلى مشهد من المشاهد لتسجيل ملاحظاتهم . وكما يحدث ، في المشاهد العامة ، أن تنقسم الجماعة أحزاباً ،فلفلان أشياع وأتباع ، ولفلان مثله ، كذلك ترى في الكنيسة أنصاراً لخطيب وأنصاراً لخطيب آخر . وكلا الفريقين متعصبان لخطيبهما ومتحدان في الحكم له أوعليه قبل أن يفوه بكلمة . وإليك صعوبة أخرى لا تقل عن الأولى : إذا اتفق للخطيب أن تزل قدمه فيقع في الأخذ عن غيره ، والاستناد عليه في خطبته ، فسرعان ما تنطلق الصيحات ضده ، كما لو سرق مال الغير . وربما عدوه سارقاً في أكثر الأحيان من غير أن يسرق أو يستند ، ويكفيهم أن يشتبهوا بشيء من هذا حتى يأخذوه بالصيحة من ورائه . وقد لا يسمحون له بأن يأخذ عن ذاته باستعادته مقطعاً أو كلاماً قاله في غير موضع .

والناس ، إنما يأتون إلى سماع المواعظ لأجل اللذة والتسلية لا لأجل التعلّم . فكأنهم آتون إلى مسرح أو حفلة موسيقية . وإذ لا يكونون أبعد من أن

يأخذوا مع القديس بولس بزخرف الكلام الخارجي الذي تكلمنا عنه آنفاً ، يفرطون في طلب هذا الزخرف من الخطباء في مواعظهم[1]، واشتراطهم فيهم كاشتراطهم ذلك في السفسطائيين ، في خصوماتهم ومناظراتهم . فينبغي إذاً أن تكون النفس متحررة ومنطلقة وأرفع من نفسي أنا حتى تقطع علناً العلة مع عاطفة الجمهور الجنونية ، لتقود المؤمنين في طريق مفهوم أقدس وأنقى وأجدى عليهم فائدة ، مفهوم يعي قيمة الدور الذي يلعبه الكاهن ، كما يعي الهدف المقصود من الكلام . وإذ يلزم المتكلم ان يكون أبعد من أن ينساق لرغائب الجمهور ، يجب عليه أن يقتاده وراءه ليترسم خطاه.

غير أنه لا يستطاع بلوغ هذا الهدف إلا بهذين الشرطين معاً : احتقار المديح ، وامتلاك ناصية الكلام . وإذا نقص أحد هذين الشرطين فإن الثاني يصبح غير مفيد . فالخطيب إذا لم يضف إلى فضيلة احتقاره المديح فضل إجادة الكلام ، يبوء بالفشل . وإذا هو فاز بإجادة الكلام ، وكان مع هذا عبداً لمحبة المجد والمديح فيلذ له تصفيق الجماهير واستحسانهم ، ويروح يفتش عن رضا الجماهير لا عن فائدتهم ، فإن النتيجة تكون هي نفسها بل تكون أسوأ له وللسامعين .

إذا كنت لا تتأثر بالمديح ، ولكنك لا تحسن الكلام ، فإنك بالطبع تسد رغبة الجمهور ، ولكنك لا تأتيه بفائدة . وعلى العكس إذا كانت لك مواهب الخطابة القادرة على اقتياد الجمهور إلى الفضيلة ، ولكنك تحب أن تكون محاطاً بهالة من المديح . وبدلاً من أن تلتمس هداية الأنفس وإقناعها ، تروح تلتمس العبارات الطنانة الفارغة التي تطرب الاسماع ، فكأنك تكون قد أضعت الوقت سدىً . وإنما الواعظ الناجح هو ذاك الذي يجب ان يكون عنده من قلة الاكتراث لنفسه بقدر ما عنده من الفصاحة ومن الفصاحة، بقدر قلة الاكتراث للمديح . وفقدان أحد هذين الشرطين يمحو أثر الآخر .

قام الخطيب يتكلم في الجمهور ، وقد استهل خطبته حسناً ، وأثر كلامه الحسن على الفاترين وغير المكترثين ، وإذا به يتردد حالاً ويضطرب ثم يتوقف : فقد ارتج عليه ، وصبغت وجهه حمرة الخجل ، وإذا بمفعول كلامه الأول يضيع

سدىً . والذين شعروا بالتأثر في أول كلامه لا يجدون وسيلة أحب إليهم للاتئاد من أن ينعوا عليه جهله وينهالوا عليه بالشماتة والسخرية ساترين العيوب التي كان يحذرهم منها الكامن وراء ضحكهم عليه وشماتتهم به .

والواعظ يجب أن يكون حوذياً ماهراً يضبط بيديه عناني الجوادين اللذين يجران العربة نحو الغاية التي يريدها . ويلزمه الا يعير النقد اهتماماً لكي يستطيع أن يستعيد نشاطه ويصلح النفوس التي كلف العناية بها .

ولأن تدفع عدم الاكتراث إلى حد احتقار المديح لا يكفي . يجب أن تذهب إلى أبعد من هذا عندما ترى عدم فائدة كلامك . أجل يجب أن تذهب إلى حد عدم الاكتراث بخبث الناس وغيرتهم وحسدهم . وإزاء كل التعبيرات الكاذبة والشديدة التي لا يتخلص منها الأسقف ، يجب ألا يخافها ولا يثور عليها بشدة وألا يهملها بالكلية ، فقد تكون على الغالب كاذبة لا أساس لها . فيجب أن يبادر إلى خنقها . فما من شيء يزيد في انتشار سمعة حسنة أو سيئة إلا ألسنة الناس . ومن شيمة الناس أن يسمعوا ولا يحققوا ، ويرددوا كيفما اتفق لهم ما سمعوه دون تمحيص وتدقيق ودون نظر الى الحقيقة . لأجل هذا يجب أن يكون الخطيب محترساً لنفسه من الجمهور ، ويقطع مجرى الظنون السيئة ، ويرد على التعبيرات مهما تكن شديدة ولا يهمل شيئاً مما يقدر أن يخلص سمعته . وإذا بذلنا كل قوانا ولم نستطع إيقاف هجمات الألسنة ، فالسلاح الوحيد الذي يبقى لنا هو الاحتقار ، لأن الخطيب إذا اضطرب من أول الأمر من هذه المضايقات ، واستسلم لاضطرابه ، يحد نشاطه ، ويفقد حماسه ، إذ أنه ليس من شيء أقدر من اليأس والتشاؤم والقلق الدائم ، على شل قدرة النفس وإخماد نشاطها .

ومعاملة الراعي للمؤمنين يجب أن تكون كمعاملة الأب لبنيه الصغار : إذا غضب الصغار وضربوه وتعالى صراخهم ، لا يتأثر من ذلك أبداً . وإذا ضحكوا وقهقهوا أو ابتسموا مادحين وشاكرين فلا يعلق على ذلك أهمية . هكذا يجب على الكاهن ألا ينتفخ بروح الزهو والكبر لدى المغالاة في مدحه ، ولا أن يضطرب ويتكدر من الانتقادات التي لا تستند إلى أساس . وفي هذا من الصعوبة ما لا ريب فيه يا صديقي بل قد يبدو لي مستحيلاً .

أن لا يشعر الإنسان بنشوة السرور تهزه عندما يسمع مديحاً،هذا شيء على ما أظن فوق قدرة البشر . وإذا كان المديح ساراً فمن الطبيعي أن يتمناه الانسان ويشتهيه . وإذا اشتهاه ولم يحصل عليه فلا بد أن يشعر بالامتعاض والألم . وإذا تذوق الإنسان الغنى فيجد من القسوة الجائرة أن يتحول إلى الفقر . ومن كان معتاداً على رفاهية العيش ، يصعب عليه الارتداد إلى الشظف والخشونة . وهكذا الأمر في الذين تغذوا بالمديح ، فإنهم لا يستطيعون أن ينقطعوا عنه . ولا يستسهلون فقط احتمال الانتقاد يأتيهم بغير حق، بل لا يطيقون صبراً على انقطاع المدح والتملق ، كأن ظمأً مرمضاً يلهب أجوافهم، ولا سيما إذا كانوا قد اعتادوا المديح وعرفوا أنه انتقل إلى غيرهم. والواعظ الذي يطوي أحناءه على مثل هذه المشاعر والرغبات، ألا يكون كأنه يركض وراء الأحزان والعذاب؟ وأنه لأيسر أن تجد بحراً بغير عواصف من أن تجد نفساً محبة للمديح بغير قلق وعذاب.

ولو افتُرض في الكاهن أن يكون مالكاً ناصية الكلام (وهذا ما يكون نادراً)، فليس معنى هذا أن يسترسل الى الكسل والإهمال ، ويتخلى عن المطالعة والدرس . فالدرس هو الذي يكوّن الخطيب لا الموهبة الطبيعية . ولو بلغ الخطيب ذروة الفصاحة ، فسرعان ما تصبح فصاحته جوفاء ، وذهنه صدئاً إذا لم يغذهما بالمطالعة والدرس المتواصل .

وكلما ازداد الخطيب مهارة وإتقاناً لفنه ، كلما ازداد احتياجاً إلى الدرس ، لأنه يكثر استهلاكه وتعرضه للهفوات . إذا تكلم جاهل غبي ، ولم يحسن التكلم ، فليس في ذلك غرابة . ولكن الخطيب الحاصل على ثقة الناس ، إذا لم يأت كل يوم بشيء جديد ، يتجاوز به المعتاد في المزيد من الإجادة والإتقان ، فلا يكتفي أحد به ، ويكون حظه من النجاح قليلاً . وأقل توفيق أو نجاح يصادفه الخطيب الضعيف ، يكسبه مجداً وثناء كثيرا . في حين أن الخطيب المشهور ، إذا لم يؤثر باستمرار في سامعيه ، وينتزع منهم إعجابهم به يبوء بالفشل .

والخطيب إنما يحكم عليه بخطبته وليس بشهرته ، ولأجل هذا السبب يجب على من طارت شهرته أن يكثر اجتهاده وعلمه . والسامعون لا يغتفرون له سقطة

واحدة ، وإذا لم يرضهم في كل مرة فلا يجني من الجمهور سوى الهزء والتعيير .

وما من أحد يعذر الخطيب من أجل المؤثرات المعاكسة من يأس وتبرم ، وقلق أو على الغالب سورة غضب ، هذه وغيرها التي من شأنها ان تشل عمل الذاكرة ، وتفقدها صفاء الذهن ، وتمنعها من التعبير حسناً . وما من أحد يقدِّر أن الخطيب ما دام إنسانا ، لا يستطيع أن يكون دائماً في حالة واحدة ، وأن له حسنات وسيئات ، وإجادة وإخفاقاً ، وأنه معرض للخطأ والانحدار عن المستوى الرفيع الذي يكون عادة فيه . أجل لا يفهمون شيئاً من هذا ، بل يحكمون على الخطيب كأنه من غير جبلة بشرية .

بقي أن نذكر أيضاً ، ما هو من طبائع البشر ، أنهم لا يقدِّرون المواعظ الحسنة كل قدرها . بل سرعان ما ينسونها أو يتناسونها . وأقل تقصير يقع للخطيب ، فلا ينسونه ، بل يمسكونه عليه حتى ولو بعد به العهد . ومهما يكن هذا التقصير طفيفاً لا خطر له ، فإنه يكفي لهدم شهرة عدد كبير من الوعاظ الذين يحتلون في عالم الوعظ والخطابة أسمى منزلة .

هذا ويجب أن يضيف الخطيب إلى فضيلة الاجتهاد المتواصل فضيلة الصبر إلى أبعد الحدود . فهناك فريق من الناس لا ينفكون يثورون على الخطيب ، ويحملون عليه بغير سبب وبغير حق . وليس لهم ما يأخذون عليه سوى أنهم لا يسامحونه بالسمعة الطيبة التي يتمتع بها . ففي قلوبهم حسد نهاش يتآكلهم ؛ يجب على الخطيب ان يتحمله بشجاعة ، لأن ذلك الحقد الدفين الملتهب لا يلبث حتى يظهر علناً بعد الشتائم الخفية والتعييرات والنميمة والاغتياب. والنفس التي اعتادت أن تقابل أولى هذه الهجمات المغرضة بالحزن والثورة لا يطول بها الأمر حتى تقع في وهدة الحزن واليأس. ولا يكتفي المهاجمون بأن يهاجموا بأنفسهم، بل يعتمدون على غيرهم، فتراهم يأخذون رجلاً عادياً لا يعرف من الخطابة شيئاً فيرفعونه إلى مرتبة الخطابة العالية ويحيطونه بالمديح والثناء ولا يقصدون من كل ذلك إلا شيئاً واحدا ، هو الغض من شأن محسودهم، ومحو مجده الذي يعذبهم.

وليس على الخطيب أن يتحمل من الطبقة الراقية أكثر مما يتحمل من الطبقة الجاهلة التي تشكل السواد الأعظم من السامعين . وفي الأقلية من الطبقة الراقية لا

تجد سوى القليلين منهم أيضاً يستطيعون أن يفهموا الخطبة ويقدروها. فقد لا تجد سوى اثنين أو ثلاثة . فأفضل الخطب إذاً هي التي تكون أقل إستحسانا ، بل قد يتفق لأحسن الخطب أن لا تجد إستحساناً من أحد .

فينبغي إذن على الخطيب أن يترفع عن كل هذه السفاسف ، وأن يغتفر للجهال جهلهم ، وينعي على الحاسدين حسدهم ، ويأسف عليهم كأنهم تعساء لا يوحون بغير الإشفاق عليهم ، كما ينبغي ان يكون الخطيب من الثقة بنفسه ، بحيث لا يستطيع لا الجهل ولا الحسد أن ينقصا من مقدرته وسلطانه على الكلام .

إذا رأى مصوِّر بارع جهالاً يسخرون من أحسن لوحة رسمتها يداه ، فلا يجب أن تكون سخريتهم مدعاة ليأسه أو لشكه بقيمة لوحته . كما انه لا يجب أن يستحسن لوحة مستقبحة لمجرد إعجاب مثل هؤلاء الحمقى بها . فعلى الصانع نفسه أن يكون الحكم الوحيد على أعماله . والذوق الحسن هو الذي يجب أن يحكم عليها حسنة كانت أم سيئة.وخليق به أن لا يتوقف ولا يأبه لفكرة عرضها جاهل بعيد عن الفن وشؤونه .

وهكذا ، فعلى من ألقيت على عاتقه مهنة التعليم الشاقة ، ألا يتعلق بشهوة التصفيق من الجماهير ، ولا أن يذهب إلى حد اليأس، إذالم يسمع ثناءً ، وعندما يكون قد هيأ مواعظه ، وتعب عليها بقصد إرضاء الله (وهذا هو الهدف الوحيد الذي يجب أن يستهدفه) .

وإذا لم يأته المديح عفواً ، فليس له ان يطلبه أو يسعى إليه . ومكافأة واحدة على الأرض تكفيه ،الشهادة التي هي أسمى من كل الشهادات ، تلك التي يقدمها له ضميره على أنه كرس كل وقته واهتمامه في سبيل إرضاء الله .

وإذا لم يكن منقاداً إلاّ بشهوة جنونية للمدح ، فكل الجهود التي يبذلها وكل خطابته لا تنفعه بشيء . والنفس التي لا تستطيع أن تثبت وتتماسك أمام التعييرات التي تلقاها ، تفقد شجاعتها ولا تستطيع الوعظ والخطابة . لذلك فأولى فضيلة يجب أن يتملكها الواعظ إنما هي احتقار المديح . وبغير عدم محبة المديح، لا تكفي الموهبة الطبيعية لأن تثبت قوة الخطابة وسلطتها وفعلها في الأنفس .

واحتقار المديح لازم لمن لا يتمتع بأية موهبة خاصة للكلام . فإذا كان عبداً للمجد الباطل ، وعثر ، يلجُّ به العثار عثرة وراء عثرة . وحين يقـوى في نفسه الإحساس بعدم قدرته على التوصل إلى مستوى كبار الخطباء فلا يتـورع من أن يحقرهم ويهاجمهم ويوجه لهم بغير استناد النقد والتعيير المختلق ، ويتدنى إلى ما هو أحط من هذا فيضيع نفسه ،حتى يخفض مجد غيره إلى مستواه وعدم كفاءته . أو أن الأمل يعاوده عبثاً فيجهد نفسه فتستولي البلادة على عقله . يبذل الكثير من الجهود في سبيل النجاح القليل والمجد الهزيل فيتبلد عقله ويستولي عليه الخمول ، ويكون مثله كمثل الفلاح الذي يحرث أرضاً مجدبة ، أو يزرع حقلاً محجراً ، سرعان ما يستسلم للتعب إذا لم يكن عنده حافز على العمل ، أو لم يكن مهددا بالجوع .

وإذا كان أولئك الذين قد أوتوا موهبة الكلام مجبرين على إجهاد أنفسهم بالتعب والدرس لاستقامة ميزان قوة الخطابة عندهم ، فماذا نقول في ذاك الذي لا يمتلك الخطابـة ، وعليه ان يلتمس الأفكار أثنـاء الـكلام، فكم يصيبـه من الارتباك حتى يحصل على نتائج هزيلة !؟

وإذا وجد في الإكليروس التابع للأسقف من هو اقدر منه في عالم الوعظ أفلا يجب أن يكون عند الأسقف فضيلة فوق البشر حتى لا يتملكه شعور الحسد القتّال، أو يسحقه اليأس المهلك ؟ وأن ترى من هو أدنى منك رتبةً أكثر منك اعتباراً، وأن تحتمله بشجاعة وصبر ، فذاك ما يقتضي نفساً غير الأنفس البشرية، وهذا ما هو فوق إمكاني أنا .

وإذا كان من يفوقك هو من المعتدلين والموزونين، فيمكنك تحمله ، ولكن إذا كان من ذوي الغرور والصَلَف والتبجح ، فإنه يجعل حياة رئيسه مكروهة لا تحتمل ، ويحمله على أن يتمنى له الموت كل يوم ألف مرة ، إذ لا ينفك يهاجمه جهاراً ويهزأ منه في المحافل الصغيرة ، وينقص كل يوم شيئاً من سلطتـه ، راغباً في أن يكون هو كل شيء عوضه .

ويساعده على التمادي في تكبره على أسقفه اطمئنانه إلى حريتـه وراحتـه في الكلام ، وإلى المكانة التي يحتلها في قلوب الذين يقدرون كلهم الخطابة ، وتعلق

الناس جميعاً به . (لأنك ألا ترى تولع الناس بالفصاحة في يومنا الحاضر ، وأنه ما من اعتبار يعد شيئاً بجانب الاعتبار الذي يتمتع به الخطباء ليس فقط بين الوثنيين، بل بين المؤمنين أيضاً ؟) فيا له من مأزق ضيق وموقف حرج ، عندما ترى ، وأنت تتكلم، السامع غير متأثر ،بل متضجراً متأففاً ينتظر نهاية الخطبة كما ينتظر الإنعتاق من حبس .أو أن تراه ، على العكس ، مصغياً بلذة ، ومتشرباً بشغف خطاب منافسك مهما يطل ، ومتأسفاً حين يشرف على الإنتهاء منه،وشاهداً بعد الإنتهاء ، إما بالنجاح وإما بالفشل!

وقد تبدو لك هذه الإطالة أموراً صغيرة ولا شأن لها ، لأنك لم تختبرها . ولكنها كافية لأن تشل نشاطك وقواك ، إلا إذا جرّدت ذاتك من كل ضعف بشري ، وسموت إلى رتبة الأرواح الطاهرة التي لا تقبل بطبيعتها الحسد وحب المجد وكل ضعف .

آه لو يوجد رجل يقدر أن يلجم هذا الوحش الشرس الذي لا يسلس قياده لأحد ، ولا يلين لغلبة ، ولا ينقاد للتدجين ، أعني به شهوة المجد العالمي ! آه لو يوجد من يستطيع أن يقطع رأس هذه الحية ذات السبعة الرؤوس[1] (Hydre) المتجددة ! أولو يستطيع أن يمنعها من أن تنبت في نفسه ! لو وجد مثل هذا الإنسان لاستطاع بكل راحة ان يدفع عنه هذه الهجمات المتنوعة ، وأن يستمتع بهدوء الشاطىء بعيداً عن العواصف ! ولكنه ما دام خاضعاً لعبودية هذا الوحش (محبة المجد العالمي) ، فتلك حرب ضروس يثيرها في داخل نفسه بصورة متجددة ، واضطرابات لا تنقطع . وذاك هو اليأس الذي يغزو نفسه ، ويستولي عليها بكل مغباته المشؤومة ، يجر وراءه سائر التجارب والمحن ، ويعقبه بؤس بجميع أنواعه وأشكاله .

وكيف لي أن أعدد الصعوبات الأخرى التي تعترض سبيل هذه الخدمة المقدسة ؟ ويلزم من يريد ان يكوّن عنها فكرة ان يكون قد مر بها ومارسها .

---

(١) الهيدر Hydre حية تزعم الأساطير انها ذات سبعة رؤوس، كلما قطع رأس نبت رأس آخر؛ ويرمز بها هنا الى المجد العالمي.

المقالة السادسة

قداسة الكاهن وصعوبة الخدمة

هذه هي الصعوبات التي يلتقيها الكاهن في هذا العالم ، فكيف يحتمل إذا تلك تنتظره في العالم الآخر ، هناك حيث يلزمه أن يقدم حساباً عن كل نفس من النفوس التي عهد إليه بالعناية بها؟ وما عليه أن يخافه هناك ، ليس الخجل فقط ، بل العذاب الدائم . وقد ذكرت لك آنفاً كلام الوعيد القاسي ، الذي قاله القديس بولس الرسول : « أطيعوا مدبريكم ، واخضعوا لهم فإنهم يسهرون على نفوسكم سهر من سيؤدي حساباً » (عبر ١٣ : ١٧) .فإن هذا التهديد يرجفني دائماً .

إذا كان الأفضل لمن يشكك أحد إخوته أن يعلق في عنقه حجر رحى ويطرح في البحر (متى ١٨ : ١٦) - والذين يجرحون ضمائر إخوتهم يخطئون ضد المسيح - فأي نصيب سيلقى ، وأي عقاب سيحتمل ذاك الذي لم يهلك نفساً واحدة أو اثنتين أو ثلاثة بل أعدادا كثيرة من النفوس ؟

وهناك لا سبيل له إلى التذرع بعدم خبرته وجهله أو الاحتجاج بالعنف والقوة التي خضع لها لقبول المسؤولية .ولو كانت هذه الأعذار مقبولة لكانت أولى شفاعة

بخطايا المؤمنين الشخصية منها بخطايا الكاهن التي اقترفها من أجل الآخرين . ولماذا ؟ لأن الذي عُهد إليه بتعليم الآخرين ، وبأن يشهر معهم حرباً على الشيطان ، لا يمكنه أن يحتج بجهله فنون الحرب ، ولا أن يدعي بأنه لم يسمع صوت البوق ، وأنه لم ير الحرب قبلاً ، لأنه كما يقول حزقيال: «رأى السيف وارداً على الأرض ونفخ في البوق وأنذر الشعب » (حز ٣٣ : ٣).

ولهذا ترى أن القصاص لا مفر منه ، ولو لم تهلك سوى نفس واحدة. « فإذا رأى الرقيب السيف وارداً ، ولم ينفخ في البوق ، ولم ينذر الشعب ، فأتى السيف وأخذ نفساً منهم، فتلك تكون قد أخذت في إثمها، لكنني من يد الرقيب أطلب دمها» (حز ٣٣: ٦).

***

فكفّ يا صديقي عن أن تدفعني الى هذا القصاص الغير المجتنب ، فليست القضية هنا قضية قيادة حملة حربية ، أو حكومة امبراطورية بل قضية خدمة تتطلب فضيلة ملائكية .

ونفس الكاهن يجب أن تكون أنقى من أشعة الشمس حتى يمكن الروح أن يسكن فيها . ويجب أن يقدر على القول دائماً مع بولس المغبوط : « لست أنا أحيا ، بل المسيح يحيا فيَّ » (غلا ٢ : ٢).واذا كان الذين يعيشون في القفار بعيداً عن ضجيج المدينة وجلَبتها ويتمتعون ، نوعا ما ، بهدوء الشاطىء ، يحيطون أنفسهم بكل نوع من الحذر ، ويجعلون على لسانهم حارساً ، وعلى أعمالهم رقيباً ، ليتمكنوا ، على قدر استطاعة الطبيعة البشرية من أن يقتربوا من ربهم بإخلاص وطهارة ، اذا كان هؤلاء مع كل هذا ، لا يأمنون على أنفسهم من الخطر ، فإلى كم من النشاط والسهر يحتاج الكاهن ليطهر نفسه من كل قذارة ، ويحفظ لها جمالها الداخلي سالماً؟ أجل يلزم الكاهن من الطهارة ما يفوق طهارة الرهبان . وكلما كانت طهارته عظيمة ، كلما كانت معرضة لأنواع التوسخ . فلكي يحفظها من كل أذية يلزمه سَهَرٌ متواصل، وانتباه دائم .

جمال الوجوه ، وفتنة الحركات ، ودلال المشية ، ورقة الصوت ، وإغراء العيون ، وحمرة الخدود ، ولون الشعر ، وتصفيف الضفائر وبهاء الملابس ، ووهج الذهب ، وبريق الأحجار الكريمة ، وروائح العطور ، وكل ما هو ، في مجمل القول ، موضوع اهتمام المرأة ، هو شيء أكثر مما يكفي لزعزعة النفس التي ليس لها من صرامة العيش ما يجعلها فوق التأثر بهذه المؤثرات الشديدة . واضطراب المرء أمام هذه المؤثرات ، ليس فيه شيء مدهش . ولكن أن يأتي الشيطان أيضاً ، بوسائل معاكسة ، ليجرّك الى السقوط ويرميك بسهامه ، فهذا ما هو فعلا مدهش ومحبط للأمل . فهناك في الواقع ، رجالٌ وقعوا في اكبر الفخاخ ، بعد أن تخلّصوا من كل اغراء . فرب وجه ليس فيه تعبير عن اي جمال، وشعر وسخ، وملابس قذرة ، وزي غير مرتب ، وتصرفات فظّة، وتكلم عامي، ومشية بلا اتزان، وصوت خشن ، وحياة بائسة ، ووضع محتقر . في كل هذه تأتي امرأة في الإهمال التام والعزلة الكاملة عن المجتمع لتوقع بالرجل ما لم يستطع أي إغراء أن يوقعه به! ومن كانت في حال يرثى لها من البؤس ، تسبب للرجل شيئاً فشيئاً أشأم الهلاك .وهناك الكثيرون من الذين لم يؤخذوا ببهاء الملابس ، وبريق الذهب وريح العطور ، وَجَدوا سقوطهم وهلاكهم عن طريق الفقر والتعاسة عند النساء!

فإذا كان الفقر مثل الغنى ، والاعتناء بالملابس مثل الازدراء بها ، وخشونة التصرف مثل النعومة ،اذا كانت كل هذه تضرم في القلب النيران ذاتها وتثير في النفس الاندفاعات ذاتها ، واذا كانت هذه النفس محاطة ومحاصرة بكل هذه الأشراك ووسائل الحرب المختلفة ، فأنّى للكاهن المسكين أن يجد له خلاصاً ، وكيف له أن يتنفس الصعداء في هذه الدائرة من النار ؟ كيف يحفظ نفسه على الأقل ، من الاضطراب تجاه الأفكار الدنسة ؟

هذا ، ولا أذكر الملاحظات والمجاملات التي تقدم للكاهن وتكون سبباً للكثير من الشرور . فما أتى منها من النساء يخمد قوتنا وينتهي بها الى التلاشي ، على الأقل اذا لم نكن بصورة دائمة ساهرين ضد أحابيلهن . وأما ما يأتينا من لغة المجاملات من الرجال ، فاذا لم تكن النفس منا في أسمى مكان ، فيمكنه

أن يلقي بنا الى طرفين متعارضين : إما الى التملق الذليل ، واما الى الغطرسة الجنونية : ننحني إلى الأرض أمام الذين يمدحوننا ويتملقوننا ، أو نتصرف بكبرياء أمام الصغار والمستضعفين حتى نسحقهم .

هذا ما أستطيع أن أقوله الآن . أما الشر كل الشر الذي يمكن ان يتولد من هذه المهنة ، فان التجربة وحدها تعلمنا إياه .

والذي يعيش في هذا العالم يصادف كثيراً من المخاطر وأكبر مما نتصوّر. وان الراهب هو في مأمنٍ من هذه المخاطر فاذا عرض أن تطرق ذهنه فكرة شريرة ، فليست واقعة من الوقائع الحية ، اذ يستطيع بسرعة ان يمحوها ، فليست لهيباً يصعب اطفاؤه : فحياة العالم لا تقدم لها الغذاء من أجل البقاء .

الراهب ليس عليه أن يخاف شيئاً الا من أجل نفسه . اذا كان عليه أن يهتم بغيره ، فانما ذاك اهتمام بعدد قليل . ومهما يزد هذا العدد فليس يزيد عن القليل مما في الكنائس . وهذه النفوس التي يُعنى بها لا تكلفه الا الهم اليسير ، ليس فقط نظراً الى قلة العدد ، بل أيضاً ، على الأخص ، لانها انفس منعتقة من شؤون العالم . فليس عنده لا نساء ولا أولاد ولا شيء مما يشغل بال أولئك الذين يرعاهم رئيس الدير . ولهذا فهم أسهل وأقرب الى الاقتناع ، وخصوصاً لأن الحياة المشتركة التي يعيشونها تجعلهم أسهل في الانقياد والانصلاح . فلكي يجعلهم يتقدمون في الفضيلة ، ليس عليه أكثر من أن يراقبهم ويرشدهم باستمرار .

أما الذين يجب على الأسقف ادارتهم فهم غارقون في الاهتمامات الدنيوية ، ولهذا فهم اقل حماسا في التقدم الروحي . ومن هنا يلزمه ، في تعليمهم ، أن يبذر إذا جاز القول ، كل يوم البذار الجيد ، حتى يتوصل الى اقناعهم بالحقيقة ، وأن ينمّي البذار في النفوس التي عُهد بها اليه . فوفور الغنى ، وسلطة الوجاهات ، والرخاوة المتولدة من الاطعمة الجيدة ، كل هذه تعمل بسرعة على خنق البذار المبذور في النفوس . فالأشواك والأدغال هي من الكثافة بحيث لا تسمح للبذار أن يسقط الى الأرض . وبالمقابل ، فان التعاسة المفرطة ، والفقر المدقع ، والإهانات الدائمة ، تنزع من الآخرين طَعْم الأشياء الدينية . أما الخطايا التي تُقترف ، فان الأسقف لا يستطيع أن يعرف منها حتى الشيء

القليل ، وكيف له ان يعرفها ، وهو يجهل وجوه القسم الاكبر من قطيعه ؟

تلك هي الصعوبات والمشاكل التي يلاقيها الكاهن في قيامه بواجباته تجاه شعبه . وهي مهما صعبت تظهر أيضاً ، بالمقابلة الى واجباته مع الله ، شيئاً قليلاً جداً . هنا ، عليه ان يحتمل هماً آخر ، وأن تكون يقظته يَقَظة أخرى !

إن من يقوم بوظيفة سفير شعبه لدى الله ، بل وماذا أقول سفير شعبه ؟ بل سفير الأرض كلها ، ويطلب من الله غفران الخطايا ، خطايا الكل بدون استثناء ، خطايا الأحياء والأموات على السواء ،مثل هذا الانسان، ايُّ انسان يجب أن يكون لكي يثبت على مستوى وظيفته السامية ؟ وان الدالَّة التي كان يتكلم بها كل من موسى وايليا مع الله ، ليست شيئاً بالنسبة الى الدالة التي تفترضها مثل هذه الصلاة ومثل هذا الطلب . الكاهن يقترب من الله ليطلب منه ، كما لو كان العالم بأسره في عهدته ، وكما لو كان أباً للكل ، يطلب أن تهدأ الحروب من كل جهة ، وأن تنتهي الاضطرابات ، وان يسود السلام ، ويزدهر العمران ، وتبتعد الويلات المسلطة على رؤوس الجميع شعوباً وأفراداً . ويجب أن يتميز ، في كل شيء ، عن كل مِن يصلي لأجلهم ، كما يتميز الحامي عن الذين يحميهم .

أجل ! أي محل يجب أن نُحله ؟ ونحن نعلم أنه يستدعي الروح القدس ، ويقيم الذبيحة الرهيبة ، ويأخذ بين يديه سيد الخليقة المطلق؟ أية تقوى نتطلب منه ؟ افتكر فيما يجب ان تكون عليه هاتان اليدان اللتان تلامسان مثل هذه الأسرار وتكملها! وفيما يجب أن يكون ذلك اللسان الذي يتلفظ مثل هذه الكلمات! تصور في أي موضع من الطهارة والقداسة يجب أن يكون الانسان الذي يتقبل مثل هذا الضيف !هذا يتمم والملائكة تحيط بالكاهن ، وكل القوات السماوية ترسل صراخ مديحها لرب القوات ، وتنتصب ماثلة أمام المذبح على شرف الذبيحة . وان ما يقوله الكاهن ويتممه في هذا الوقت على المذبح يكفي أن يجعلني أنظره .

وإليك خبر هذه الرؤيا التي سمعت أحدهم يرويها عن شاهد عيان . هناك شيخ جليل ، قديس ، منعم عليه غالباً بكشوف سماوية ، أعطي له أن يرى ،

على قدر استطاعة العين البشرية ، جوقاً من الملائكة تظهر فجأة ، في وقت الذبيحة الإلهية ، مرتدية ثيابا بيضاء ناصعة ، متحلقة حول المذبح ،ومنحنية برؤوسها بعمق اليه ، كأنها جنود واقفة حول مليكها . وأنا لا يعسر علي مطلقاً ان أصدق هذه الرؤيا .

وأخبرني آخر واقعة أخرى ، لم ينقلها عن أحد ، بل رآها وسمعها بنفسه ، وهي أنه رأى عدة كهنة ممن كانوا يتممون الاسرار بضمير نقي ، حين تحضرهم الوفاة ، يقتبلون زيارة الملائكة اكراماً لشرف كهنوتهم ، يصعدون حولهم ، ويزفونهم بموكب حتى الأخدار السماوية .

أفلا تخشى ، يا صديقي ، أن تجر الى مثل هذا السر المقدس نفساً كنفسي ، وأن تدخل الى الأقداس رجلاً مرتدياً ثوباً وسخاً كان المسيح قد أخرجه خارج العرس ؟ ان نفس الكاهن ينبغي ان تكون نوراً يضيء العالم . ونفسي غارقة في ظلمات الخطيئة التي جعلتها تختبىء ، ولا تجسر ان ترفع الطرْفَ نحو سيدها ! الكهنة يجب أن يكونوا ملح الأرض، وأنا لم أتصف الا بقلة حكمتي وجهلي المطبق ! ليس من أحد يقبلني ان لم تُعمِهِ صداقته لي .

ذلك أنه لكي يصبح المرء مستحقاً لمثل هذه الوظيفة العالية ، لا يكفي أن يكون طاهراً ، بل يجب أن يكون مجهزاً ببصيرة نافذة ، وأن يكون قد اكتسب خبرة واسعة جداً . يجب أن يعرف شؤون الحياة جيداً كما يعرفها أهل العالم ، وأن يكون بنفس الوقت متعرياً من العالم أكثر من الرهبان الذين يقطنون الجبال . فالكاهن مرتبط بعلائق دائمة مع أهل الدنيا ، الذين هم ، امرأته وأولاده ، والخدم ، والأملاك والشؤون العامة التي عليه أن يعالجها ، ومهمات جلّ يجب أن يضطلع بها . يجب أن يرضي الجميع بغير خداع ، وبغير تملق ، وبغير رياء ، بل بكل حرية وصراحة يجب ان يعرف أن يتنازل حين تقضي الظروف بذلك ، وان يكون ، تَبَعاً للحالات ، ليناً وصارماً . ولا تمكن معاملة كل الناس بنفس الطريقة : فالأطباء لا يعطون الأدوية ذاتها الى كل المرضى ولا يترك الشراع مفتوحاً على جهة واحدة لكل الرياح . فان العواصف لا تخلو من البحر الذي يسير فيه قارب الكنيسة . وهي عواصف لا تعصف بالكنيسة من

الخارج فقط ، بل ومن الداخل أيضاً ، وفي وسط هذه العواصف يجب على الكاهن ان يعرف ان ينشر الشراع أو أن يطويه لكي لا يغرق القارب .

الحياة المسيحية في تشكلها ليس لها إلاّ هدف واحد: مجد الله وبنيان الكنيسة . والرهبان عليهم ، بدون شك ، معركة عظيمة لكي يثبتوا فيها ، وحياتهم حياة متعبة ، ولكن اذا قابلنا كل أتعابهم واعراقهم بأعمال الوظيفة الكهنوتية المتممة كما يجب ،نجد أن بينهما فرقاً كالفرق بين المستخدم البسيط وبين الأمبراطور .

واذا كانت حياة الرهبان قاسية ، فان النفس والجسد يصارعان فيها معاً ، على الأقل ، حتى انه يمكن القول ان القسم الأكبر من العمل يعود الى الجسد . لأنه اذا ضعف الجسد ، فالنفس بحد ذاتها ليس لها نشاط ، ولا تعرف ابداً من أية جهة تحرك نشاطها ، اذ لا يمكنها الصوم الطويل والنوم الخشن ، ولا سهر الليل، ولا التنكر للاستحمام ، ولا عرق الأتعاب ، ولا كل ما من شأنه أن يحكم الجسد . بل يجب التخلي عن كل هذه لأن الجسد الذي يجب أن نحكمه ليست له أية قوة .

أما الخدمة المقدسة فلا تنهض بها الا النفس . وقوة الجسد وضعفه ليس له شأن في ممارسة الفضيلة الكهنوتية . فبمَ تفيدنا القوة الجسدية في ان لا نكون أكثر حدةً وغضباً واندفاعاً ؟ وبمَ تستطيع المساهمة في أن تجعلنا هادئين ودعاء ، معتدلين ، ومتواضعين وفي أن تعطينا كل الفضائل الأخرى التي يجب أن تكون عند الكاهن ، والتي طبقها القديس بولس الرسول ورسم لنا صورتها في الفصل الثالث من رسالته الأولى الى تيموثاوس؟

فكما أن المشعوذ يحتاج ، لكي يمارس صنعته ، الى دواليب ودوائر وسيوف من كل نوع من الأشياء المادية، وأما الفيلسوف فلا يحتاج إلا إلى عقله ، كذلك يحتاج الراهب خاصة الى جسده ، أما الكاهن فيحتاج خاصة ، الى نفسه .

الراهب يجب أن يكون ذا صحة قوية . يجب أن يختار لسكناه مكاناً مناسباً لنوع حياته ، بحيث لا يكون بعيداً جداً عن المجتمع ، بل أن يكون بنفس الوقت ، في بعد متناسب لكي يوجد في الوحدة . وفوق هذا يجب ان لا يكون

معرضاً للتقلبات الطبيعية الخطرة ، لأنه لا شيء أتعب من هذه التقلبات على المعدة التي تمارس الصوم . ولا حاجة الى الكلام عن العمل الذي يقتضي الرهبان تحضير كسائهم وطعامهم لأنهم حريصون على أن يقوموا بهذا العمل بأنفسهم .

أما حياة الكهنة فليس فيها شيء من هذا، فهي حياة بسيطة . انهم يعيشون حياة العالم ، فيما هو بغير لوم ، واذا كانت عندهم كنوز من العلم والفضيلة فهي كنوز داخلية في نفسهم .

يمكن أن نعجب بمن يترك العالم ، لكي يعتكف على ذاته . فهذا برهان على قسوة النفس . ولكن يمكن أن نجد براهين أخرى على قسوة النفس . ان الربان لا يبرهن على حذقه في قيادة السفينة عندما يكون قاعداً في سفينته في الميناء الهادىء ، بل بالأحرى حين يصارع أمواج البحر العاتية، وعندما يقود السفينة في وسط العواصف .

وهكذا حال الراهب التي ليس فيها ما يدهشنا ، فوق العادة ، وهو في وحدة دائمة ليس له اعداء ، ولا يخطىء غالباً ولا يقع في الكبائر ، اذ ليس له ما يعكر نفسه ، وليس هناك من بواعث خارجية توقظ شهواته .

ولكن أن يُلقى بالمرء بين الجماهير ، وأن يتلامس مع كل خطايا العالم ، وأن يحفظ نفسه ، مع هذا ، طاهرةً عفيفة ، وأن يتماسك غير متزعزع في وسط العاصفة ، فذاك أمر خليق بأن ينتزع اعجابنا ، لأن في هذا، حقاً ، البرهان على فضيلة نادرة .

لا يجب أن يدهشك أني لم اتكلم عن نفسي كثيراً منذ أن تركت المحاماة والحياة العامة . ذلك على قدر ما يدهش له المرء اذا لم يرني اخطىء وأنا نائم ، أو أن أتماسك ثابتاً حين لا أصارع أحداً ، أو أن لا أتلقى ضربة وأنا لا أعارك أحداً .

فقل لي ، رعاك الله ، من يستطيع أن يتكلم ضدي ، أو أن يكشف

أخطائي ؟ هل هو سقف قلايتي أم جدرانها ؟ انها لا تتكلم . أم هي أمي التي تعرفني وحدها ؟ ولكننا نعيش كل واحد منفصلاً عن الآخر . ثم اننا كلينا متفاهمان فيما بيننا كل التفاهم . ولنفترض أنه بدر مني زلل ما، فليست أمي أماً غير طبيعية أو عدوة لولدها الى حد أنها تلوّثه أو تشهره أمام سمع الجمهور وبصره ، بدون أي سبب، وبغير أي ضغط من أي انسان ، وهو الذي حملته في أحشائها ، وولدته وغذته وربته .

وليس من قليل الصحيح أنه اذا أريد فحصي بعمق ، سيوجد فيَّ أخطاء كثيرة . وأنت نفسك لا تجهل هذا ، أنت الذي تكيل لي المديح ، في كل مناسبة ، أكثر من غيرك .

وليس ما يجعلني أتكلم بهذا تواضعاً كاذباً. تذكر كم من مرة، رددت لك ، أثناء محادثاتنا المعتادة حول هذا الموضوع ، أنه لو كان لي ان اختار بين ادارة الكنيسة أو الحياة الرهبانية ، لكنت فضلت الأولى على الثانية بألف مرة . اني لم أنفك أحسد أولئك الذين يستطيعون عن جدارة أن يشغلوا هذه الوظيفة الكبيرة . وما أحسد عليه غيري ، كان من الطبيعي ألاّ أفر منه ، لو كنت أشعر بالقدرة على قبوله .

ولكن ما العمل في هذه الحال ؟ لا شيء ظاهر الدلالة على موقفي من ادارة الكنيسة ، سوى هذه اللامبالاة وقلة الاكتراث التي يتخذها البعض على مُتَخَذ التخلص المحمود ، في حين أنها ليست ، في عمق حقيقتها ، سوى قناع يختفي وراءه ضعفي ، وتتجمع قلة كفاءتي .

فالإنسان المعتاد ، مثلي ، أن ينعم بكثير من الملذات وأن يعيش في الهدوء الكامل ، وهو موهوب أفضل المواهب من الخارج ،هذا ايضاً ينقصه كثير من الخبرة ، لكي لا يصادف في الحياة العامة ، كل نوع من التشبكات والارتباكات ، ولكي لا يكون فقدان المران عنده سبباً في ضياع القسم الاكبر من وسائط نجاحه .

فكيف بمن كان مثلي ثقيل الفكر قليل الخبرة في الكلام والجهاد الكهنوتي ؟ فإذا كُرِّس للكهنوت ، فكأننا نكرس قطعة من الحجر .

لهذا السبب نرى انه يتميز العدد القليل ، من بين المصارعين الذين يضعون أنفسهم في العزلة ، وينزلون الى ساحة الصراع ، والأكثرية بينهم تظهر عدم كفاءتهم ، يتعثرون في كل خطوة ، ويسقطون في الصراع والصعوبات . فاذا كان المرء غير متمرن في نوع المعركة التي يخوضها فكأنه لم يتمرن على شيء .

والذي ينزل هنا الى المسرح ، يجب ان يعرف كيف يحتقر المجد ، ويلجم الغضب ، كما يجب ان يكون حاذقاً محنكاً . وعلى هذا ففي الحياة النسكية ليس شيء يدعو الى مثل هذا الاستعداد . فالراهب ليس عنده جمهور مثير مزعج لكي يعلمه أن يلجم غضبه . ليس هناك اناس يظهرون اعجابهم به ويمدحونه لكي يتعلم أن يحتقر المديح . أما المهارة التي تُطلب لإدارة الكنائس ، فهي أمر لا ينشغل به أحد مطلقاً في العزلة . ولا يكاد راهب يضطلع بعمل ليس له فيه أية خبرة ، حتى يفقد رشده ، ويستولي عليه اليأس ، ويسقط بدون أن يعرف عمل شيء . وبدلاً من أن يتقدم في عمله يُضيع أيضاً منسكه في أرض العزلة .

باسيليوس

ماذا اذاً ؟ أندعو الى ادارة الكنيسة اولئك الذين يعيشون في وسط العالم ، وينشغلون بأعمال مادية ، أرباب الأعمال المتمرسين بكل معركة ومصيبة ، والمليئة جيوبهم بكل حيلة ، أولئك الذين يعيشون حياة هنيئة . هؤلاء اذاً هم الذين ننتدبهم الى مثل هذا العمل الجليل؟

يوحنا

لا يا صديقي ! مثل هؤلاء لا يجب أن يخطروا بالبال في هذا الشأن . فالرجل الذي يجب أن نختاره للكهنوت هو ذاك الرجل الذي ، مع كل حياة العالم ، ومعاطاته لشؤون العالم ، عرف أن يحفظ نفسه سالمة غير متزعزعة في فضائل الطهارة ، والصفاء ، والقداسة ، والصبر ، والقناعة ، وجميع الفضائل الرهبانية الأخرى ، كما يحفظها الرهبان ، وأحسن مما يحفظها الرهبان .

وذلك أننا اذا اتخذنا مثلاً شخصاً مليئاً بالعيوب فانه يمكنه أن يستر هذه

العيوب بالعزلة، وتبقى هذه العيوب بدون أي فعل اذ هو لم يختلط بأي انسان.
فماذا ينفعه أن يدخل في العالم؟ لا ينتفع شيئاً الا بأن يصير هزءاً للآخرين، وبأن يعرض نفسه لأخطار أكبر. هذا ما كان سيحل بي أنا لو لم تبعد العناية الإلهية الصاعقة النازلة فوق رأسي.

إنه من المستحيل على رئيس الكنيسة أن يبقى مختبئاً. انه في واجهة النظر، وكل الانظار تتجه إليه من كل جهة. لا تُعرف المعادن جيداً الا في تجربة النار، ولا تُعرف الرجال جيداً الا في برهان الأعمال الاكليريكية. عندئذٍ يُعرف من الوهلة الأولى اذا كان غضوباً، أو رعديداً، أو طماعاً، او غروراً. فأياً كانت عيوب المرء، تكشف بالتجربة. وماذا اقول؟ بل التجربة تثيرها وتزيد سوءها. عندما ننكأ جروح الجسد، نزيد في صعوبة شفائها، وعندما نستلهب جراح النفس، فانما نهيجها ونضاعف عددها. وهكذا فعندما لا ننتبه، نترك نفسنا تنجر نحو الطمع، والغضب، ومحبة الغنى والكسل، وشيئاً فشيئاً، نحو كل المهلكات التي تتبعها. هناك كثير من المناسبات في سلك هذه الخدمة، يحدث فيها ما يكسر حماس النفس، ويوقف شوطها نحو الله!

أولى هذه المناسبات التحدث مع النساء. والراعي الذي عليه أن يعتني بكل قطيعه، لا يمكنه أن يحصر اهتمامه بالرجال ويهمل النساء.

والنساء يقتضين الراعي تفانياً أكثر في سبيلهن، وذلك بسبب ضعفهن الكبير. ويجب ان يوفر لهن من الاهتمام بخلاصهن مثلما يوفر للرجال اذا لم نقل أكثر منهم. تجب زيارتهن في المرض، وتعزيتهن في الحزن، ويجب إنهاضهن من حالات الكسل والتواني، وإسعافهن في حاجاتهن.

وكل هذه الواجبات تهيء للروح الخبيث كثيراً من فرص الانزلاق والسقوط، اذا لم يكن المرء واقفاً على متراس التحفظ الشديد.

ان عيني المرأة تجرحان القلب وتعكران النفس. هذا في الواقع هو فعل عيني المرأة لا المبتذلة فقط، بل الفاضلة أيضاً. مجاملاتها ترضي الإنسان وملاطفاتها تستعبده. وهكذا يمكن أن يتحوّل منبع الخيرات، أعني الرغبة في

الاحسان ، إذا أسيء استعمالها ، منبعاً للشرور .

هناك عامل مواصلة الاهتمامات الدائمة الذي ينتهي بأن يثلّم حدّة الروح ، ويعلق في أجنحة الفكر ثقل الرصاص . من هناك الغضب الذي يصعد إلى الدماغ ويغطي النفس بدخانه . من يستطيع أن يعدد الانزعاجات والمحاذير التي يمكن أن تحدث في هذه الخدمة ؟ القذف ، والوشايات ، والمهاجمات من كل نوع تنهال عليك من الكبار ومن الصغار ، من المثقفين ومن الجهلة على حد سواء . وهذه الطبقة الأخيرة ، طبقة الجهلة هي الأفظع في كل الطبقات ! انها تجد دائماً شيئاً تردده وتعيده ، ينقصها التمييز ، وليس من السهل ان تقنعها . ولكن الراعي لا يجب ان يقيم وزناً لكل هذه التشكيات . بل يجب عليه أن يرد على هؤلاء المساكين بكثير من اللطف والحلم وكرم النفس ، ويجرب ان يهدم أفكارهم الخاطئة ، ويصفح عن حماقاتهم لا أن يستشيط غضباً عليهم .

اذا عرفنا أن القديس بولس كان يحيط نفسه بالمساعدين في توزيع الحسنات حتى لا يشتبه فيه هؤلاء المسيحيون بالسرقة اذ يقول : « لكي نجتنب كل لوم في مثل هذه الخدمة المقدسة »(٢ كور ٨ : ٢٠) ، فكيف لا نعمل نحن مثله ، لكي نبعد كل شك رديء يكون في مثل هذا الجهل والحماقة وعدم اللياقة بنقاوة سمعتنا ؟ كم كان هذا القديس بعيداً عن مظنّة السرقة ؟ ومع هذا أراد أن يبعد عنه حتى هذه الشبهة .

يجب علينا أن نهتم ، ليس فقط ، بأن نقتلع الشكوك الرديئة ونطرحها ، بل بأن نسبق ونرى من بعيد من أين يمكن أن تأتي ، وأن نمحو مسبقاً الأسباب التي تعمل على ظهورها ، من غير أن ندعها تتخذ لها جذوراً ، وأن تنمو في فكر الجمهور ، لأنه عندئذ لا يكون من السهل اجتثاثها . هذا سيصبح عسراً جداً اذا لم أقل مستحيلاً وسيكون على كل حال خطراً على النفوس .

ولكن لماذا نريد أن نستنفد موضوعاً لا ينفد ؟ ومحاولتك تعداد كل صعوبات هذه الخدمة المقدسة كمحاولتك نضح ماء البحر . فبعد أن ينجح المرء بأن يشفي نفسه من علله الخاصة ، وهو الأمر الذي قد يكون أسهل ، يبقى عليه

أن يشفي علل الآخرين ، وهناك عالم كامل من الحواجز والمصاعب التي تنتصب أمامه . واذا جمعت هذه وتلك تجد أي خضم من الأعمال والاهتمامات والمتاعب ينفتح أمام ذاك الذي تكلف أن يخلص مع نفسه أنفس الآخرين .

باسيليوس

ليس أمامك الآن اذاً ان تعرض نفسك لأية معركة ؟ وليس لك أي اهتمام في العزلة ؟

يوحنا

أجل بدون شك ! ومتى كان هذا من الممكن ما دمنا بشراً ؟ كيف يمكن ، ونحن في وادي الدموع هذا ، ان نكون منعتقين من النضال والاهتمامات ؟ ولكن أن تلقي بنفسك في البحر الواسع ، شيء ، وأن تركب قارباً في نهر هادىء شيء آخر . حياة الكاهن شيء وحياتي الحالية شيء آخر . بالطبع ما كنت أتمنى شيئاً أفضل لي من أن أكون نافعاً للآخرين . هذه كانت أعز رغبة من رغباتي . ولكن اذا لم أستطع أن أعمل من أجل نفع الآخرين فلأعمل ، على الأقل ، على خلاص نفسي .

باسيليوس

وهل تتصور نفسك قادراً على خلاص نفسك من غير أن تكون نافعاً للآخرين ؟

يوحنا

معك الحق كل الحق ، وأنا لا أعتقد مطلقاً أنه يمكن تخليص النفس حين لا يعمل الانسان الا من أجل نفسه .

ان العامل الذي يتكلم عنه الانجيل لم ينفعهُ شيء لأنه لم يعرف ان يتصرف جيداً بالوزنة التي أُودعت عنده ، بل انها تؤخذ منه لأنه لم يعرف قيمتها ولم يضاعفْها .

وعلى الرغم من كل هذا ، أفضل أن يكون عقابي قائماً على أني لم أخلص الآخرين من أن أكون ، وأنا كاهن ، قد أهلكت الآخرين مع نفسي ، وأن أكون قد نزلت في منزلة أسوأ مما كنت فيه قبل أن أتقبل مثل هذه المسؤولية . الآن لن يأتيني الا العقاب على خطاياي . أما إذا تقبلت الكهنوت ، وقصرّت فيه ، فسأتقبل من القصاص أفظع لا بمرة ولا بمرتين ولا بثلاث مرات بل بألف مرة لأني ، بالكهنوت ، شككت أكبر عدد من المؤمنين ، وعملت في عيني الله اهانة اكبر من الشرف الذي رفعني اليه .

إن الله تعالى ، في توبيخاته المريرة للاسرائيليين ، يفهمهم أنهم استحقوا عقاباً كبيراً ، لأنهم أساؤا استعمال امتيازات أعظم : « اياكم وحدكم ميزت من بين شعوب الأرض ، فلذلك سأفتقد عليكم آثامكم » (عاموص ٣ : ٢).وفي غير هذا الموضع يقول لهم : « وأقمت من بينكم أنبياء ،ومن شبانكم نذراء » (عاموص ٢ : ١١).

وقبل عصر الانبياء ، حدد الله ، من أجل خطايا الكاهن ، التكفير الذي حدده لخطايا الشعب جميعاً ، وذلك لكي يظهر لهم أن خطايا الكاهن يجب أن يعاقب عليها أكثر من خطايا الشعب . (لاو ٤ : ٣، ١٣ و١٤) . وهذا ما كان يعني أن خطايا الكهنة تفترض تكفيراً أكبر ، لأن جسامة الخطيئة لا تأتي من طبيعتها ، بل من قداسة الوظيفة التي يقوم بها الكاهن . حتى ان بنات الكاهن في العهد القديم ، مع أنه لم يكن لهن أي نصيب من الكهنوت ، كان عليهن ، اذا أخطأن ، قصاص أشد من قصاص سائر البنات لمجرد كونهن بنات كهنة (لاو ١٩ : ٩) .

فهل ترَى أن مخاوفي هي بدون أساس ؟ وماذا يظهر لك أيضاً ؟ بدون شك إن عليّ أيضاً أن أعمل كثيراً حتى لا أدع نفسي أهزم من قبل شهواتي ، ولكن هذا ، على الأقل ، هو عمل في طاقتي ، ومعركة أستطيع ان أخوضها وأثبت فيها . ان الغرور يريد ، بدون شك ، ان يستولي عليّ ، ولكني في أكثر الأوقات اثبت له وأقاومه وإن يكن قد نجح في أن يجعلني أسيراً وعبداً ، ولكني أعرف ان اهز قيودي. كما أن الشهوات الرديئة تهاجمني ولكن النار التي تضرمها أخف بكثير

من قبل، وليس لها وقود جديد ليزيد ضرامها. أما أن أطعن بأحد أو أن يطعن بي أحد، فهذا ليس وارداً، لأني لا أتحدث مع أحد. أما الغضب، فلست أستطيع أن أقول اني تخلصت منه نهائيا مع أنه ليس هناك من يستغضبني. التفكر الوحيد بالتعديات والمظالم يوقظ فيَّ الغيظ والحَنَق، ولكن لا يدفعني الى أي فعل. فأني أضرب هذه الخواطر وأعيدها الى الهدوء مقنعاً ذاتي بأنه أمر مزعج، وفي غاية البلاء، أن ينسى الانسان، الى هذا الحد، خطاياه الخاصة، لكي ينشغل بخطايا الآخرين.

ولكن لو كنت في زحمة ارتباكات العالم، لما كنت سمعت جيداً هذا الصوت الداخلي، ولما كنت وجدت مثل هذه الأسباب لراحتي وهدوئي. فكما أن الذي يرى نفسه مسحوباً الى الهاوية بالتيار الجارف، يستطيع أن يكون متأكداً من هلاكه الوشيك بدون أمل بأية مساعدة، كذلك انا لو كنت منجرفاً بتيار شهواتي لرأيت، مع الأيام، أني لا أستطيع أن ألجم الوحوش المفترسة والمنطلقة من عقالاتها.

عندي طبيعة ضعيفة هي طبيعة الخوف، فاني فريسة سهلة ليس فقط للشهوات التي تكلمت عنها بل لما هو مثير أكثر منها كلها أعني الحسد. اني لا أستطيع أن أتقبل لا الإهانات ولا الكرامات باعتدال لأني انجرف فوراً الى التطرف: التكريم يسكرني، والإهانة تقتلني.

إذا كانت حيوانات المصارعة في كامل قوتها ونشاطها، فانها تلقي مروِّضها أرضاً بسهولة، خاصةً اذا كان ضعيفاً وغير متمرن. وإذا كانت، على العكس منهوكة بحرمان الطعام، فان بأسها ينسحق، وقوتها تنطفىء وأقل المصارعين جرأةً يستطيع أن يجري معها، بدون خوف صراعاً ومعركة.

وعلى هذا المثال تكون الشهوات. عندما نصوِّمها نجعلها بالمقابل، مطيعة لأوامر العقل. ولكن عندما نغذيها جيداً، نجعل كل صراع معها مستحيلاً، ويصبح التغلب عليها مشكوكاً فيه. اننا نقضي العمر في عبوديتها والخوف منها.

وأي هو الطعام المناسب لهذه الحيوانات ؟ غذاء حب المجد : التكريم والمديح وغذاء الكبرياء : القدرة والعظمة . وغذاء الحسد : مجد الآخرين . وغذاء البخل : حب جمع المال . وغذاء الترف : حياة الرخاوة ومعاشرة النساء .

فاذا نزلت الى وسط العالم ، أتت كل هذه الحيوانات لتنقض عليَّ ، وتمزقني بأظافرها ، وترعب نفسي ، وتجعلها في حرب لا يمكنها الصمود فيها .

ولكن ببقائي في العزلة ، يمكن أن أتكلف عناء في اخضاعها ، ولكني سأحكمها بفضل المساعدة الالهية ، ستستطيع الزئير فقط ، ولكنها لا تستطيع غير ذلك .

انظر لأي سبب أنا ألزم قلايتي العزيزة . لا أحد يطرق بابها ، لا أذهب لأرى انساناً ، ولا أغشى مجتمعاً . أدع الناس يقولون عني ما شاؤوا . كنت أريد طبعاً ان أمنعهم ، ولكن لا أستطيع ذلك . هوذا أنا معزول ومحزون . ولكن كيف لي أن أكون بنفس الوقت معروفاً في المجتمع وهادئاً في خلوتي ؟ وعندما تراني معرضاً لكل هذه الصعوبة فخليق بك أن تشفق علي ، لا أن تنهال علي بالملامة . ومع هذا ، فاني أرى جيداً أني لم أقنعك بعد .

لم يبق لي إلا أن أعرفك الشيء الوحيد الذي كنت أريد خصيصاً ألاَّ أخبرك به . وكثيرون لا يريدون ان يصدقوني . وهذا لن يمنعني من أن أقوله . لن أخجل من أن أكشف لك كل شيء . سيلاحظ الناس فساد اعمالي ، وسينصدمون بكثرة خطاياي التي لا تعد : لا بأس في ذلك . الله هو الذي يعرف كل شيء وعليه محاكمتي . وجهل البشر ذلك لن يغير مصيري .

هوذا اذاً الأمر الذي ما كنت أريد أن أقوله لأحد . من بعد أن ألقيت في روعي أنه يمكن أن أدعى الى الكهنوت ، كنت غداة ذلك اليوم وما بعد ، على عتبة الإحساس مراراً بأنه قد قضي عليَّ تماماً . تلك كانت مخاوفي ، وذلك كان الاضطراب الذي استولى على نفسي !

كنت أتمثل ، من جهة ، مجد عروس المسيح ، وقداستها ، وجمالها ، وحكمتها ، وبهاءها الإلهي ، ومن الجهة الأخرى ، كنت انظر الى تعاستي ، وفي

رثائي لشقائي وشقائها ، لم أكن أستطيع أن أوقف تنهداتي ، أو أن أخرج من حيرتي : وكنت أقول : من هو اذاً ذاك الذي استطاع أن يقدم مثل هذه النصيحة؟ كيف أمكنهم أن يقترفوا مثل هذا الخطأ مع كنيسة الله ؟ كيف تأتّى هذه الكنيسة ان تسلّم سيدها الى أشقى البشر وأن تعرضه لمثل هذه المخازي ؟

وفي عذابي من هذه الأفكار ، وعدم استطاعتي ايقاف تفكري بوقوع مثل هذا الاحتيال ، كنت كالمشلول بدون كلام ، لا أرى شيئاً ، ولا أسمع شيئاً . واذا عرض لي أن أخرج من هذا البحران (الذي كان يأخذني بتواتر) كنت أخرج منه لأقع من جديد في الدموع والقنوط . واذا أفرغت كل ما عندي من البكاء كان يأتي دور المخاوف ، ليأخذني من جديد ، ويغرقني ، مرة اخرى ، في قلقي وبلبلتي ، واضطراباتي .

ففي وسط هذه العاصفة قد عشت كل هذه الفترة الاخيرة . أنت ما كنت لتعرف شيئاً من هذا ، وكنت تتصور أني كنت أعيش في الهدوء الكامل . ولكن سأحاول أن أصف لك العاصف الذي اجتزته ، راجياً بعد هذا ، ان تصفح لي كل شيء وألا يبقى لك علي أي لوم .

كيف سأشبه نفسي ؟لكي اجعلك ترى الأمر واضحاً ليس لي الا وسيلة واحدة : هي أن انتزع قلبي وأضعه عارياً أمام عينيك . سأجرب بحسب امكاني ، أن أجعلك تلتقط من خلال قناع التشبيه صورة ضعيفة عن خمود همتي . وستجرب أنت أن تستشف من خلال هذا القناع ، فكرة حقيقية عن هذا الخمود .

لنفترض أننا اخترنا عروساً لأحد الناس ، بنت امبراطور يمتد سلطانه على كل ما تحت الشمس . وكل جسد هذه الفتاة ، هو في جمال لا يوصف ، كأنه جمال فوق البشري ، ولا يدانيه جمال امرأة في العالم . ونفس هذه الفتاة هي من السمو والصلابة والقوة بحيث لا يختلف فيه اثنان لا في الماضي ، ولا في المستقبل . وبكلمة واحدة ان جمالها الاخلاقي يتجاوز كل ما استطاعت الحكمة أن تكشفه ، وجمالها الخارجي يتجاوز كل ما استطاعت الأعين أن تعجب به .

والأمير الذي يجب أن يتزوجها ، ليس معجباً فقط بكل كمالات خطيبته الفاتنة ، بل هو مشغوف بها شغفاً لا يقاس به شغف كل العاشقين المولهين .

وبينا هو في غمرة هذه المشاعر ، اذا به يعلم فجأة ، انهم سيعطون حبيبته التي لا مثيل لها زوجة إلى رجلٍ افصع سوقي من حثالة المجتمع ، الى انسان شقي من سَفَلة الناس !

فإذا كنت قد فهمت أمله ، فقد فهمت ألمي . وهل من حاجة إلى أن أقول لك أكثر من هذا ؟ لا أكمل التشبيه . أظن أن هذا سيكفي لإعطائك فكرة عن يأسي .

وأريد الآن أن أفهمك مخاوفي وجزعي بواسطة صورة أخرى :

تصوّر قوات هائلة مؤلفة من مشاة وخيالة وبحّارة . البحر غائب تحت زحمة السفن ، والسهول والجبال ، تحت زحمة الخيل والرجال . الأسلحة ترسل بريقاً الى كل مكان تحت الشمس ، والخوذات والتروس ترسل أشعة الى كل جهة ، والدويّ يملأ الفضاء من قرقعة السلاح ، وصهيل الخيل ، والأرض والبحر مملوءة بالحديد والنحاس .

وبالمقابل وقفت معسكرات الأعداء مصطفةً فيالق فيالق مؤلفة من برابرة قساة متوحشين . أتت ساعة المعركة . في تلك الساعة ، يمسكون صبياً متربياً في الحقول ، ولا يعرف غير شبابته وعصاه . ألبسوه درعاً ثقيلة وخوذة وقلدوه أثقل السلاح . ثم أمروا القوات أمام عينيه ، فأروه الألوية والسرايا وقادتها ، وأروه فرق الرامين والرامحين ، والخيالة ، والبحارة والمراكب المثلثة الطبقات والرجال كيف يقفزون الى المراكب ، وخليط المعدات الحربية التي تملأها . ثم أروه بالمقابل كل معسكرات العدو ، بهيئاتهم المرعبة ، وبأسلحتهم المختلفة وكثرتهم الجرارة . وأروه عمق الأودية والهاويات التي يجب اجتيازها والذرى المسننة التي تفصل بينها . وفوق معسكرات الأعداء أروه ايضا خيولاً مجنَّحة ، وجنوداً خياليين كانت تطير في الهواء بطريقة عجيبة ولم يخفوا عنه شيئاً من قوة الأعداء الخارقة .

وراحوا بعد ذلك يعددون ويصفون له كل اهوال المعركة : غابة من

الرماح ، وسيلاً من الرمي ، وفيضاً من السهام التي تحجب أشعة الشمس ، تسوّد السماء ، وتدخل الظلمات ، وتنشر ليلاً حالكاً . الغبار الذي يعمي العيون أكثر من الظلمات ، وجداول الدماء السائلة ، وتنهدات الجرحى الساقطين ، وصياح الهائجين في القتال ، أكوام الجنود المنطرحين على الأرض ، دواليب العربات المغمسة بالدم ، والخيل المذعورة تطأ بسنابكها أكوام الجثث . وعلى الأرض خليط راعب من الدماء والأشلاء ، والقسي والسهام ، وسنابك الخيل ، والرؤوس والأذرع ، والأعناق ، والسوق والأفخاذ ، والصدور المبقورة ، والنخاع اللاّصق على شفَرات السيوف ، والعين العالقة على رأس سهم مكسور .

ثم يضيفون على هذه الأهوال أهوال معركة بحرية : المراكب الضخمة تشتعل في وسط الأمواج ، وأخرى تغرق بمن فيها من الرجال ، وجلبة البحّارة ، وصياح المقاتلين ، واللجج الراغية بالزبد الدامي ، والغمر يتجاذب المراكب الى كل جهة . الجثث في كل مكان . هنا جثة ممددة على سطح المركب ، وهناك أخرى تغيب بين أشداق الموج ، وثالثة عائمة على ظهر البحر ، متجهة الى الشاطىء ، مشكلة كتلاً كثيفة ، تسد العبور ، وتعطل سير المراكب .

وأخيراً ، وبعد أن طافوا به مأساة الحرب ، مشهداً بعد مشهد ، يُرونه الخاتمة المحزنة : الرجال الذين نجوا من الموت ، كانت تنتظرهم ويلات الأسر والعبودية كشيء أمرّ من الموت .

وبعد هذا كله يؤمر راعينا المسكين أن يركب الجواد وأن يقوم بقيادة هذه القوات التي لا تحصى . فهل ترى يستطيع هذا الصبي الفقير أن يتماسك فقط الى آخر مثل هذا الوصف ؟ أو لا تراه يغمى عليه من أولى نظرة الى هذا المشهد ؟

لا تظن أني أبالغ . لو لم يكن سجن جسدنا يمنعنا من أن نرى الأشياء التي لا ترى ، ولو استطعنا ان نرى بالعين المجردة جحافل الشياطين السوداء والقتال الوحشي ، اذن لرأينا معركة تختلف في هولها وأهميتها عن هذه المعركة التي وصفناها .

في هذه المعركة لا نجد لا نحاساً ولا حديداً ولا جياداً ولا عجالاً ولا

مركبات ، ولا ناراً ولا سهاماً . ولكننا نجد فيها أسلحة أعجب وأرهب (لأن هؤلاء الأعداء ليس لهم حاجة الى الخوذات والدروع والرماح والسيوف) . والنظرة الواحدة الى هذاه القوات اللعيبة تكفي لتشل حركة النفس التي تكون لها قوة فائقة ، والتي ليس لها مع قوتها الذاتية الفائقة سَنَد من الله .

لو نستطيع أن نتعرى من الجسد ، أو ، ونحن في الجسد ، أن نرى بوضوح وبدون خوف ، كل قوة الشيطان ، وأن نشهد الحرب التي يجريها معنا ، لما رأينا فيها لا جداول من الدماء ولا اكواماً من الجثث ،ولكن نفوساً تصرع في كل يوم ،وأخرى تثخن بالجراح، ولرأينا من الهول بحيث لا تظهر معه المعركة التي وصفناها سابقاً سوى لعبة أولاد ، وتسلية لا معركة . وما أكثر ما يهلك فيها من النفوس في كل يوم !

وليس الموت الذي تجره جراح النفس مثل الموت الذي نعرفه . فبين هذه الجراح وتلك كل الفرق الذي بين النفس والجسد. جراح النفس لا تتركها ممددة على الأرض كالجسد وبلا احساس . ولكن عذابها يبدأ منذ هذه الحياة بتوبيخ الضمير ، ويسلمها يوم القضاء في الحياة الأخرى لعذاب أبدي .

وإذا لم تأبهِ النفس بجراح الشيطان ، فيكون شقاؤها أكبر ، وهلاكها أشأم . فالنفس التي لا تحس بالجرح الأول تتلقى الثاني والثالث بسهولة . لأن الشيطان الرجيم لا ينفك يضرب حتى الرمَق الأخير النفس المتكاسلة التي لم ترد أن تتخذ الحيطة منذ الضربات الأولى .

وإذا أردت أن تقابل مخطط الشيطان بمخطط البشر ، سترى أن مخطط ابليس هو أقسى وألين من مخطط الانسان . فما من أحد عنده مثل قوة ابليس . وما من أحد يمكن أن يكون عنده ضد ألد أعدائه حقد وغليل لا يشفى ،مثل حقد ابليس على الطبيعة البشرية . أما عناده في المعركة ضدنا فلا وجه لمقابلته بأي عناد آخر . حتى أن اشرس الحيوانات المفترسة تظهر بالنسبة اليه ناعمة ووديعة . انه يتنفس مثل هذا الحَنَق العظيم عندما يهاجم النفوس .

عندما يتقاتل الناس فيا بينهم ، فمعاركهم لا تدوم الا وقتاً قليلاً . وهذا

الوقت منقطع الى توقفات وسهادنات : الليل الذي يغشى المعركة ، وتعب القتال ، وساعة الراحة التي تسمح للجنود بأن يمسكوا أنفاسهم ، وأن يلقوا سلاحهم ويستريحوا قليلاً ليأكلوا ويشربوا ، ويستعيدوا قواهم .

ولكن في معركة الشيطان ، فلا يمكن ان نلقي السلاح أو أن ننام اذا لم نتلقَ الجراح . فيجب ، في حربك مع الشيطان ، اما أن تترك السلاح ، واما أن تسقط وتهلك ، واما أن تبقى متأهبا شاك السلاح ثابتاً في معاقلك . لأنه هو، خزاه الله ،دائماً حاضر بأسلحته، مترقب لإهمالنا . عنده من الغيرة على إهلاكنا أكثر مما عندنا نحن من الغيرة على خلاص نفوسنا . فان طبيعة الشيطان الغير المنظورة وخاصة عنصر المفاجأة في مهاجماته تجعل حربه أرهب ، بما لا يُقاس ، من حروبنا .

وبعد فأنا الشخص الذي كنت تريد أن تجعله على رأس جيش المسيح ؟ فكأنك كنت تريد ان تجعلني في خدمة الشيطان . لأنه اذا كلف أحد أن يقود الآخرين ويديرهم، وهو أضعف الجميع وأقلهم خبرة ، واذ اسلم هذا المكلف الجنود الذين يقودهم الى العدو ، فمثل هذا يعمل للشيطان لا للمسيح .

ولكن ما بالك تبكي ؟ لِمَ هذه الدموع ؟ ليس لك أن تبكي عليّ . ليس لك ، على العكس ، الا أن تهنئني وتفرح معي .

باسيليوس

لست أبكي عليك . وانما انا ابكي على نفسي . أجل ! أبكي على حالي التي ليس من حال مثلها تستحق الدموع .

لم أكن الى الآن قد أدركت عمق التعاسة التي القيتني فيها . جئتك لكي أعرف بماذا اجيب الذين يشكونك . فلم تخلصني من هم الا لتلقيني في هم آخر . لان ما يهمني الآن هو ألاّ أجيب الآخرين عن حسابك ، بل أن أجيب الله عن حسابي الخاص وعن أعمالي الخاصة .

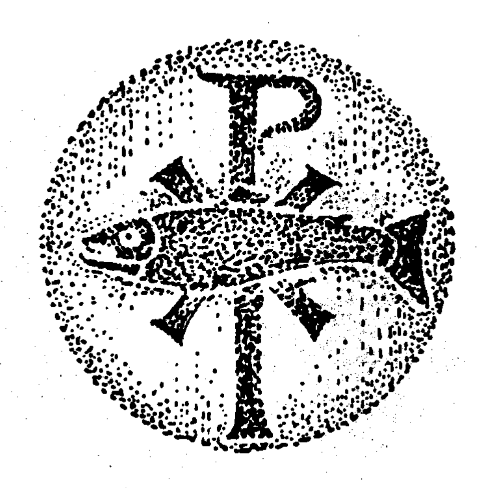
وبعد هذا أرجوك ، وأتوسل اليك ، اذا كنت تهتم بي ، واذا كانت لنا أيضا شركة بالمسيح ، واذا كانت لنا تعزية بالمحبة ، واذا كانت عندك أيضاً أحشاء

للشفقة (لانك ، أنت خاصةً ، وأنت تعرف ذلك ، أنت الذي قدتني الى هذه الورطة) ، فامدد لي يدك ، وكلمني ، واعمل كل ما عليك لتخلصني . آهِ ! لا تتركني لحظة واحدة ، ولتكن وحدة حياتنا اوثق مما مضى .

يوحنا

ماذا أستطيع أن أعمل لك ؟ قلت له مبتسماً . كيف أستطيع مساعدتك في النهوض بعبئك الثقيل ؟ لا بأس عليك ، ما دمت ترغب في ذلك ، فلتكن لك ثقة بنفسك يا صديقي العزيز ! سأكون الى جانبك في أحزانك واهتماماتك ، سأعزيك ، وسأعمل من أجلك كل ما بوسعي عمله .

ولما سمع صاحبي هذه الكلمات تضاعفت دموعه . ونهض واقفا . وكنت ارتمي على عنقه ، وكنت أقبله ، وفيما انا أشيعه ، كنت أشجعه لكي يتحمل بشجاعة كل ما سيحدث له وقلت له : « انا واثق أن خدمتك هذه ستعطيك عند المسيح الذي دعاك وعهد اليك بخرافه ، من الشفاعة والقدرة بحيث أنك ، عندما تدق ساعة الخطر الأخير ، ستكون انت مدخلي بدوري الى الأخدار السماوية ».



الفصل الثاني

أحاديث عن الزواج

الحديث الأول

القصد من الزواج

«ولكن لكي تجتنبوا الزنى فليكن لكل واحد امرأته» (١ كور ٧ : ٢).

أريد اليوم أن أقتادكم أيضاً إلى نبع العسل ، هذا العسل الذي لا يعافه المرء مطلقاً ،لأن هذه هي طبيعة أقوال الروح القدس. وعندما تُروون أنفسكم من هذا النبع ، فهو الروح القدس الذي يكون بالحقيقة في أفواهكم . بل ماذا أقول ؟ أن حلاوة العسل ليست شيئاً أمام حلاوة الأقوال الإلهية . وهذا ما يقوله صاحب المزامير : « ما أشهى كلماتك يا رب في فمي ! إنها أشهى من العسل ».إنها أحلى من العسل،وأثمن من الذهب والحجر الكريم، وأنقى من الفضة . هذه هي الأقوال الإلهية . ويقول أيضاً صاحب المزامير : « أقوال نقية ، فضة مصفاة بالنار مصفاة سبعة أضعاف ».

والواقع أن العسل قد يمرضنا إذا نحن أكثرنا منه ونحن في غنى عنه . أما كلام الرب ، فيمكن دائماً أن يشفينا ، ولو كنا مرضى . ومن جهة أخرى فإن العسل يفرغ بالهضم ، أما كلام الرب فكلما أكل المرء منه ازداد تذوقاً جديداً ، وأحدث عجباً في النفس سواء ذاقه الإنسان بنفسه ، أو أعطاه للآخرين لكي يذوقوه . وأخيراً في حين أن التخمة الناجمة عن كثرة المآكل تزعج المدعوين على المائدة ، نرى أن الامتلاء من الوعظ ومن الكتاب المقدس الذي يفيض من القلب ، ليس من شأنه إلا أن يزيد في حسن طعم الأقوال الإلهية وسرور السامعين .

ولذلك فإن داود النبي الذي كان يتذوق باستمرار هذا الطعام الروحي ، كان يقول : « فاض قلبي كلمة صالحة ».

وبالمقابل يمكن أن يخرج من قلبنا كلام رديء . كما أن الفم ينم عن طبيعة الأطعمة التي تناولها على المائدة ، كذلك ينم اللسان عن طبيعة الكلام الذي تغذينا به . عندما تشهد المسرح تعود منه وأنت تردد انغام الاغاني الحلوة التي سمعتها. وعندما تذهب إلى الكنيسة فإنما تغني في نفسك التعاليم الدينية. وعندما يقول لنا النبي أن كلاما صالحاً فاض من قلبه، كان يصف لنا طبيعة الأفكار التي كان يتغذى بها عادة .

ولهذا فإن الرسول بولس قال أيضاً : « فلا تخرج من أفواهكم كلمة بطالة بل على العكس فلتخرج كل كلمة صالحة » (أفس ٤ : ٢٩).وماذا يجب أن نفهم بالكلمة الفاسدة ؟ فتشوا عما هو جيد تجدوا ما هو فاسد . تحديد معنى الأولى يعطيكم تحديد معنى الثانية . ولست أنا الذي أعطيكم التحديد بل الرسول بولس نفسه إذ يقول : « كل كلمة صالحة قادرة على أن تبني الكنيسة »، حتى يفهمنا أن الكلام الصالح هو الكلام الذي يبني القريب . وإذا كان الكلام الصالح هو الذي يبنيه فالكلام الفاسد هو الذي يشككه ويهدمه .

وأنت نفسك ، إذاً، أيها الصديق العزيز جداً ، إذا كان عندك شيء تقوله يمكن أن يصنع خيراً لمن يسمعك ، فلا تدع هذه الفرصة التي تسهم في خلاص الآخرين . وإذا لم يأت على فمك كلام يبني الآخرين فتحفّظ جيداً من التلفظ به : لا تشكك قريبك قبيح هو الكلام الذي بدلاً من أن يبني السامع يهدمه فإذا وجد إنسان يهتم بالفضيلة ، فكلامك ذاك يحوّله عنها . وإذا كان يعيش بعيداً عن الفضيلة فكلامك يزيد في إبعاده . حتى ولو توصلت ، لكي تسر الآخرين ، إلى أن تفلت منك نكتة سفيهة ، فأمسكْ عنها : هذا أيضاً كلام فاسد هذه ليس من شأنها إلا أن تدفع إلى القذارة المتكلم والسامع ، وتضرم الشهوات الرديئة في هذا وفي ذاك . فكما أن الحطب هو غذاء النار ، كذلك الكلام البذيء هو غذاء الدنس والشهوات الرديئة .

ولهذا السبب ، لا يجب أن نسمح للساننا بأن يقول كل ما يخطر في فكرنا ، بل على العكس يجب ان نستعمل كل انتباهنا وهمنا في أن نبتعد عنه ونطرد كل

فكر رديء . وإذا انزلقت صدفة ، فكرة شريرة إلى ذهننا ، فيجب أن لا نسمح لها بأن تمر على شفاهنا ولا أن تخرج حيث يجب أن تختنق .

تأمل بما يحدث للحيوانات المفترسة التي تقع في الحفر والحبائل . هذه إذا نجحت في أن تنفك وتبرز الى الخارج ، تخرج وهي أكثر شراسة ووحشية . ولكن على العكس إذا منعت من الخروج ، فإنها تقتل داخل الحفرة براحة وسهولة . وهكذا الحال مع الأفكار الرديئة . إذا انفلتت من الفم ، وذاعت بالكلام ، تهيج ذاتها بذاتها . ولكن على العكس ، إذا غطاها الصمت فإن لهيبها يخمد ويموت بسرعة .

أتحس شهوة رديئة صعدت إلى نفسك ؟ لا تفكر بها ، ولا تتكلم عنها : فإنها تنطفيء من ذاتها . أعندك فكرة قذرة ؟ فليبق لسانك نظيفاً ، على الأقل ، ولا تدع القذارة التي صعدت إلى رأسك تنتشر خارجاً ، لأنها لا تخرج خارجاً إلا لجلب الشقاء عليك وعلى الذين يسمعونها . ثم إني أرجوك وأنصحك بنفس الوقت ليس فقط بأن لا تقول شيئاً رديئاً ، بل بأن لا تستمع إلى الكلام الرديء وأن تتعلق بالناموس الإلهي حيث يقول : « طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفرة وفي طريق الخطأة لم يقف ، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس ، لكن في ناموس الرب هواه نهاراً وليلاً » (مز ١ : ١ - ٢) .

إذا كنا ، في معاطاتنا مع العالم ، نسمع كلاماً جيداً يرد على بعض الألسنة ، فليس هذا إلا قليلاً جداً ، ولا يشكل واحداً من الألف . وعلى العكس من هذا ، ففي الكتاب المقدس لا يوجد كلام إلا يمت إلى خلاصنا وكمالنا بصلة . ويشهد أيضاً على هذا الكلام الذي لفظناه في مطلع حديثنا .

ماذا يقول بولس الرسول إلى سكان كورنثوس ؟ « وإجابة على ما سألتموني أقول لكم : إن من لا يتزوج يفعل حسناً ، ولكن لكي تجتنبوا الزنى فليكن لكل رجل امرأته ، ولكل امرأة بعلها » (١ كور ٧ : ١ ، ٢) . فالقديس بولس يتكلم هنا عن الزواج ونواميسه بكل صراحة ورصانة .

ولماذا يتحاشى الخادم التكلم عن الزواج حين يكون المعلم قد شرفه

بحضوره بنفسه ولم يتأخر عن تقديم الهدية للعرس . (وأية هدية ؟ هدية أجمل من كل الهدايا : عجيبة تحويل الماء الى خمر) ؟ أي شيء شر في الزواج ؟ الشر هو الزنى ، الشر هو العهر. والزواج إنما هو الدواء .

فلا نهُن إذن الزواج بمحافل الشيطان، بل فلنتشبه بأهل عرس قانا الجليل الذين دعوا المسيح إلى عرسهم وأجلسوه في وسطهم . قد تقولون كيف يكون هذا وليس المسيح عندنا ؟ ولكن عندكم كهنته. «من قبلكم فقد قبلني»، هكذا قال لتلاميذه (متى ١٠ : ٤٠).

فإذا أنتم أبعدتم الشيطان ومواكب الشيطان من أعراسكم ، أعني أغانيه الفاحشة ، وأشعاره البذيئة ، ورقصه الخليع ، وكلامه الشائن ، وفجوره المخجل ، وضحكه السفيه ، وإذا أنتم أحللتم مكانه خدام المسيح، فتكونون قد استقبلتم المسيح ذاته في وسطكم مع والدته وتلاميذه لأنه قال : « إن من يعمل إرادة أبي فذاك حقاً هو أخي وأختي وأمي » (متى ١٢ : ٥٠).

إني أعرف أن ما أطلبه منكم ، سيظهر قاسياً للكثيرين منكم . إنه من الصعب التنكر للعادات القديمة . هذا لا يهمني كثيراً ، لإني لا أفتش عن إرضائكم ، وإنما أفتش عن خيركم ، ولا ألتمس ثناءكم وولاءكم ، وإنما أبتغي كمالكم وخلاصكم .

ولا يقل قائلكم : ولكنها العادة ولا سبيل إلى قطعها ! فحيث يخشى من اقتراف الخطايا ، ليس من ثبات لأية عادة. وإذا كان هناك من شر ، فمهما تكن العادة قديمة يجب أن نلغيها . وعلى العكس من هذا . إذا كان هناك من تصرف ليس فيه إثم ، فلنتصرف به ولنكرسه عرفاً ، ولو كان لا يطبقه أحد بعد .

ولكنكم ستجدون البرهان في زواج اسحق ورفقة ويعقوب وراحيل ، على أن عاداتكم المنكرة ليست من القدم في كثير ، بل إنها على العكس محدثة بالنسبة إلى تلك العادات .

فالكتاب المقدس يقصها علينا مطولاً ، ويصف لنا حفلة الأعراس ونرى أنه لا يدخل فيها شيء من هذا . كانت تولم وليمة أجمل من هذه الولائم ، وكانوا

يدعون الأقرباء ، ولكن بغير تزمير وتطبيل وأهازيج ومراقص ، وكل ما هو في المآدب الحالية البذيئة .

الآن يغنون مع الرقص أناشيد أفروديت ، ولا نسمع الأغاني تدور إلا حول الزنا ، والطلاق ، والعشق الآثم والاجتماعات الفاسدة . ويقضون كل النهار فلا تسمع إلا ألحانا وكلاماً بذيئاً وكفراً ومهاترات. وهكذا، وفي حالة السكر الشنيع ، وفي فيض الكلام البذيء، وفي مجال الخلاعة ، يزفون العروس الفتاة على عين الملأ ومسمعه. فقل لي ، رعاك الله ، كيف نتطلب من هذه الفتاة الطهارة والعفة حين نقدم لها من اليوم الأول من زواجها حفلة مثل هذه الحفلة ونعرض على سمعها وبصرها مشهداً من هذه المشاهد التي تأبون أن يراها أو يسمعها أصغر عبد من عبيدكم .

بعد أن يكون أبوا الفتاة قد اجتهدا ، طيلة حداثتها ، أن يحرصا على طهارتها ، وأن يمنعاها من أن تسمع أو تقول شيئاً مخالفاً لمبادىء الأخلاق ، وأن يحفظا لها سلامها من كل الاتصالات المعكرة في الدار وفي خدرها ومع المستخدمين وفي خروجها عند المساء ،لكي يخلصاها من أنظار الناس حتى الأقارب ، ولكي يضاعفا الاحتياطات لصيانة طهارتها، تأتون ، أنتم ، وفي يوم واحد ، لتهدموا كل هذا الاعداد الطويل ، وتعلموا الفتاة أن تنظر بغير خجل هذه الحفلة الردئة، وتسمع بغير حياء كل هذه الأقوال البذيئة أيضاً .

وهل تأتي ، إلا من هنا ، تلك الشرور المؤسفة تبعاً لذلك ؟ من أين يأتي الزنا والغيرة ؟ وما السبب في أن يبقى الرجل بدون أولاد ، والمرأة بدون زوج ، والأولاد بدون أبوين ؟ فعندما تدعو الشيطان الى عرسك بهذه الأغاني والفواحش ، عندما تدخل إلى منزلك الممثلين المخجلين ، والمهرجين المتهتكين وتملأه بالراقصات والبغايا وتفسح المجال لألاعيب إبليس أن تعمل فيه ، فأية نتيجة حسنة تتوقع ؟ كيف تقدر حتى أن تأتي بكهنة المسيح إلى عرسك حين يجب عليك، غداةَ العرس، أن تعرض هذا المسرح الوثني؟

أتريدون أن تعرضوا موكباً أجدى عليكم من هذه المواكب ؟ أدعوا الفقراء وأقيموا منهم محفلاً . آه أتخجلون من هذا ؟ يا لها من مخالفة للمنطق

رهيبة !عندما تدخلون الشيطان إلى بيوتكم لا تخجلون ، ولكن عندما نقول لكم ان تدخلوا إليها المسيح ، تجدون في هذا شيئاً مخجلاً ! عندما تدخلون الفقراء إلى منازلكم ، إنما تدخلون المسيح نفسه . وعندما يدخل إليها الممثلون والمهرجون ويرقصون فالشيطان هو الذي يدير الرقص . ونفقاتكم على العرس لا تأتيكم بالفائدة ، بل تأتيكم بالدمار ، وتجلب عليكم القصاص ، في حين أنكم إذا دعوتم الفقراء ، ترتجون من هذه الدعوة مكافأة لا نظير لها .

ولكن قد تقولون ما من أحد في المدينة يتبع هذه العادة ! ماذا نعمل ! ولكنكم أنتم ستدخلونها، وستكونون أول من يتبعها، وسيكون الخلف مديناً لكم بهذا .

وإذا أنت اقتدت الغير إلى هذه العادة المحدثة وخلقت فيها تنافساً شريفاً ، وإذا ساءلت الأجيال المقبلة بعضها بعضاً : من أدخل هذه العادة ؟ فسيجيبون : إن فلاناً هو أول من أدخل هذه العادة الجميلة .

وبالفعل ، إذا كان الناس يتغنون ، في المآدب العامة ، بأمجاد أولئك الذين عرفوا أن يفتتحوا فتحاً جديداً باطلاً ، فما أجدرهم أن يمتدحوا ، في كنائسنا ، مؤسسي هذه العادة المقدسة ، وأن يعزوا الفضل للمُدخل الأول لهذه العادة . فإن الآخرين سيمرون في ظلكم ، ولكنكم أنتم الذين قد غرستم الشجرة .

وأنت أيضاً هو الإنسان الأول الذي ستقطف ثمار هذه الشجرة . ستنتج لك ، منذ هذه الحياة ، أفراحاً أبوية ، وستكون منبع نعمة لبنيك ، كما أنها ستهيء لك ولامرأتك عمراً طويلاً وشيخوخة صالحة ، لأنه ، كما أن الله تعالى يُسمع الخطأة تهديداته قائلاً «أن نساءهم يصرن أرامل،وأولادهم يتامى »(خروج ٣٢ : ٢٤) ،فإنه لا يفتأ يعد الأمناء له في كل شيء والمخلصين بالشيخوخة وكل البركات والخيرات التي تستتبعها . أولا يقول لنا القديس بولس ، بدوره ، ان الميتات المبكرة هي غالبا قصاص على كثرة الخطايا:« ولذلك كثرت فيكم الأمراض والأسقام ومات كثيرون »(١ كور ١١ : ٣٠) ،فتعزية الفقراء ، إذ تبعدكم عن مثل هذه الضربات ، تساعدكم على الخروج من التعاسة التي

تكونون غارقين فيها . وهذه قصة الفتاة طابيتا ، تخبرنا أن الفقراء الذين كانت تطعمهم ، اجتمعوا حول سريرها حيث كانت ميتة ممدّدة وطلبوا وتوسلوا بصلواتهم ودموعهم ، أن تعاد إليها الحياة .

إن صلوات الفقراء ودموع الأرامل هي أفضل من البغايا ورقص المهرجين . في هذا لذة عابرة باطلة ، وفي تلك مكافأة خالدة .

تصوروا ما يمكن أن يكونه دخول العروس إلى بيت عريسها عندما ترى نفسها حاملة مثل هذه البركات (صلوات الفقراء) .ألا نراها توازي كثيراً من المجوهرات ؟ وتفوق الغنى والمقتنيات ؟ وكم تبدو لنا المواكب الحاضرة ، إلى جانبها ، حقيرة وباطلة ! قد لا يقع القصاص ، أمام أعينكم ، على الذين يفعلون مثل هذه المحرمات المخجلة ، ولكن أليس من القصاص للمشاهدين أن يغرقوا بطوفان هذه القبائح والمنكرات يأتيها أمامهم سكارى ومجانين ؟

إن الفقراء الذين تعطونهم ، يباركونكم ، ويستمطرون لكم بصلواتهم كل أنواع النعم . أما الذين يملأ أجوافهم طعامك وخمرك فإنهم يتقيأونها على رأسك بذاءات ورذائل ويتخاصمون فيما بينهم ، بقبيح الكلام ، حتى كأنهم يتنافسون فيمن يصب على الزوجين الألفاظ القبيحة ، ويزيد في تخجيلهما وحيرتهما .

أوَ تريدون برهاناً غير هذا البرهان على أن الشيطان هو الذي يقود هذه الزمرة ؟ ومن منكم لا يرى أنه هو الذي يمسك النفوس كأنها دمى ويجعلها تعمل وتتحرك وتتكلم ؟ من يستطيع أن ينكر هذا ؟ وعندما يتكلم معكم رجل غضوب أبله عربيد ، أليس الشيطان هو الذي يكلمكم ؟

وإذا ادّعيتم أنكم إذا أدخلتم إلى بيوتكم الفقراء ، عوض هؤلاء الناس ، تتسببون في الشؤم والتعاسة ، أجبتكم أن ما يتسبب في الشؤم والتعاسة ليس إطعام الفقراء والأرامل ، بل هو إطعام الفجّار والبغايا .

كم من مرة رأينا ، في ليلة العرس ذاته ، إحدى العواهر تختطف العريس من بين أصدقائه وتجره معها ، وتفسد سعادة حياة في فجرها ، وتحوّل قلباً عن

موضع هواه الطبيعي ، وتطفىء شعلة الحب في أول شبوبها، وتُغرق في قفزة واحدة الزوج في الزنا ؟ هذا ما يجب أن يتخوّف منه الوالدون ، إذا لم نقل أكثر من ذلك ، وهذا ما يجب أن يمنعوا ، لأجله ، الرواقص والفواجر من المجيء إلى أعراسهم . إن الزواج لم يؤسس لأجل الزنا والفحش بل ،على العكس، ليحفظ منهما. « لكي تجتنبوا الزنا ، يقول بولس الرسول ، ليكن لكل رجل امرأتـه ، ولكل امرأة بعلها » . والزواج إنمـا وُضع لسببين رئيسيين : الأول هو ضبـط وتعديل الميل الحسي (الجنسي) ،والثانـي إنجـاب البنـين . والسبـب الأول هو الأهم . ومنذ أن ظهر الميل الجنبي وُضع الزواج لضبط هذا الميل بحمل الإنسان على الاكتفاء بإمرأة واحدة .

أما إنجاب الأولاد فإن الزواج ليس سبباً له على الإطلاق . وإنما يتجاوب الـزواج مع قول اللـه في التكوين: «انمـوا واكثـروا وامـلأوا الأرض » (تـكـو ١ : ٢٨) . وبرهان ذلك الزيجات الكثيرة التي لا يكون فيها إنجاب أولاد .

ولهذا فإن السبب الأول للزواج هو ضبط الميل الجنسي ، لا سيما وقد ملأ اليوم الجنس البشري الأرض بأسرها .

كانت قبلاً الرغبة في إقامة النسل تُفهم كما يأتي : إن كل واحد كان يريد ان يترك ذِكراً وأثراً لحياته الخاصة حين لم تكن مسألة القيامة موجودة ، وحين كان يبدو كأن كل شيء ينتهي بالموت ، وحين كان المائت لا يرى له شيئاً باقياً بعد هذه الحياة . حينذاك أعطى الله هذه التعزية بأن يكون للإنسان أولاد يتركون صورة للراحلـين ، ويحفظـون الجنس البشري ، ويقدمـون للـذين على حافــة الموت ولأقاربهم فرح الحياة بأعقابهم .

ونرى البرهان على أن هذه هي الرغبة الكبيرة التي كانت للوالدين في ذلك الزمان . نراه في تذمرات امرأة أيوب بعد أن أصيبت بتلك النوازل واحدة بعد الأخرى إذ قالت : « أنظر أن بنيك وبناتـك فقـدوا ، ولـم يبـق لك أثـر على الأرض » (ايو ١٨ : ١٧). وهـذا ما عبَّـر عنـه أيضـاً شاول حـين قال لداود : « إحلف لي بأنك لا تبيد ذريتي ولا إسمي بعد موتي » (١ ملوك ٢٤ : ٢٢).

أما الآن ، وقد أشرق علينا نور القيامة ، وبقينا ننتظرها ، وقـد أصبح

الموت حادثاً عرضياً ، لا خاتمة لحياتنا ، ونرجو بعد هذه الحياة حياة أفضل ، لم يعد لإقامة النسل ذات الأهمية .

لأنك ، اذا أردت أن تبقي أثراً وذكراً لمرورك في هذا العالم ، توجد اليوم وسيلة لخلودك ، وهي الولادات الروحية ، الولادات الأسمى ، وتستطيع أن تربي للأيام الأخيرة من شيخوختك أولاداً وتتركهم بعدك ويكونون لك سنداً وفخراً أفضل من أبناء الدهر .

وعلى هذا ، فلا يكون بعد للزواج من غاية سوى اجتناب الزنى ، ولهذه الغاية وُضع الزواج قبل غيرها من الغايات . وإذا عاد الإنسان بعد زواجه إلى البغايافالأحرى به أن لا يتزوج لأن زواجه لا ينفعه في شيء ،ولكن، ماذا أقول ؟ أنه يفيد في تشديد الحكم عليه بالعقاب .

إن من يأتي بغياً قبل زواجه يكون فعله غير فعل من يأتي بغياً بعد زواجه . ففي الحالة الأولى يسمى فعله بغاء ، وأما في الحالة الثانية فيسمى زنا (خيانة زوجية) .إن إثباتي لكم هذا الأمر يظهر غريباً ، ولكنه الحقيقة بعينها . أنا أعرف أن كثيرين منكم يتصورون أن لا فعل زنا إلا في أن تجر إلى الخطيئة امرأة متزوجة . وأما أنا فأقول لكم أن أي رجل ، كان متزوجا ، ينشيء علاقة محرمة مع أنثى غير متزوجة ،وإن تكن بنتا عمومية ، أو خادمة بسيطة ، أو أية امرأة ، هذا الرجل يقترف الزنا .

ذلك أن طائلة الزنا تقع على الاثنين معاً ، الزاني والزانية . ومن ادعى بأن القانون المدني لا يحاكم الا المرأة الزانية ، ولا يطالب الرجال بطائلة إفساد خادماتهم ، أجبته أن الناموس الإلهي ينظر إلى الاثنين نظرة واحدة ويجرم الاثنين بجريمة واحدة ، هي جريمة الزنا .

لأنه بعد أن قال القديس بولس:« ليكن لكل امرأة رجلها»، يضيف قائلا : « ليقض الرجل المرأة حقها» .فماذا يعني بذلك ؟ أيعني أنه يجب على الرجل أن يحفظ لإمرأته فائدة مهرها ؟ أو أن لا يمس رأسمال هذا المهر ، وألا يتأخر في الإنفاق عليها في الملبس وباقي المصروفات ؟ أو أنه يجب عليه أن يؤدّب لها دائما المآدب

الفخمة ، ويهيء لها النزهات الرائعة ، أو أن يوفر لها الخدم والحشم ؟ ما هو الحق الذي تقصده أيها الرسول القديس بولس ؟

كلا ، إني أسمع بولس العجيب يجيبني قائلاً: كلاً ، لست أعني شيئاً مما ذكرت . وإنما أعني شيئاً واحداً ، يترتب على الزوج التقيد به ، ألا وهو الاكتفاء بامرأته ، والحفاظ على الطهارة . إن جسد الرجل ليس ملكه ، بل ملك امرأته . فيجب عليه أن يحفظه سالماً نقياً صحيحاً غير مدنس كأنه أمانة ووديعة . لأن الرسول يضيف قائلاً : «لأن جسد المرأة ليس ملكاً لها بل لرجلها ، كما أن جسد الرجل ليس ملكاً له ، بل لامرأته » .

فإذا أرادت بغي أن تجتذبك إليها ، وتوقعك في فخها ، وتشتهي جسدك فقل لها : إن جسدي لا يخصني ، بل يخص زوجتي ، وليس لي حق التصرف به ، وليس لي أن أسلمه لغيرها . وهكذا يجب ان تفعل المرأة . وفي هذا الحد تكون المساواة كاملة .

وإذا كان بولس الرسول يعطي، في مواضيع أخرى، حق الرئاسة والتفوق للرجل على المرأة : « والمرأة يجب أن تحترم رجلها . . لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة . . ويجب أن تخضع النساء لرجالهن في كل شيء» ، فهذا ما يتفق مع قول الله تعالى في سفر التكوين : « وإلى بعلك يتجه نظرك وهو يسود عليك» (تك ٤ : ١٦) ولكن من هذه الناحية، لا خادمة ولا سيد، بل المساواة الكاملة . المرأة ليست متسلطة على جسدها بل الرجل، كذلك الرجل ليس متسلطاً على جسده بل المرأة هي المتسلطة . لماذا هنا مثل هذه المساواة؟ ذلك أنه في الحالة الأولى كان يجب أن تسود الرئاسة. أما هنا، والأمر أمر طهارة وأمانة، فليس من فرق بين الرجل والمرأة . الرجل ليس له أية أفضلية وأية شفاعة ، ويعاقب كالمرأة إذا هو خرق قوانين الزواج . وهذا ، لعمري، هو العدل. لأن امرأتك حليلتك، لم تترك أباها وأمها وكل أهلها لكي تكون مهانة، ولكي ترى وراءها عبدة حقيرة دخيلة عليها، أو لكي تتحمل معك حرباً دائمة. كما أن الزوج ما اختار من بين الكريمات الشريفات رفيقة حياته وعشيرة عمره لكي يتصرف مثل هذا التصرف.

ليس أمراً غريباً أن يكون المهر الذي حملته إليك امرأتك موضوع عنايتك وأمانتك حتى لا يفقد منه شيء .وهذا الكنز الذي تختلف قيمته عن كل المهور، أعني كنز العفة والطهارة ، وجسدك نفسه الذي هو ملك حقيقي لامرأتك ، الا تخاف أن تبدده وتضحيه ؟ وإذا أنت أسأت إلى مهر زوجتك ، فإنما تسيء إلى حميك . ولكن إذا أسأت إلى الطهارة الزوجية فإنما تسيء إلى ربك الذي ستؤدي له حسابك ، الى الله الذي أنشأ الزواج لأجلك ، وأعطاك امرأتك .

ولك الدليل على هذا أيضاً في تعاليم بولس الرسول عن الموضوع نفسه : « إذن من يحتقر ، فلا يحتقر إنساناً بل الله الذي أحل روحه القدوس أيضاً فينا » (١ تسا ٤ : ٨).

فلا نعرض سعادتنا للخطر ، وفي سبيل هذه الخطيئة نسلم نفسنا للشيطان . فهذه الخطيئة هي التي تسبب كثيراً من الشرور ، وتلقي بذور الخراب والدمار في الحياة البيتية . هي التي تمحو المحبة المتبادلة ، وتخمد الحنو والعطف . فكما أنه يستحيل على الرجل الأمين والمحافظ على الطهارة الزوجية أن يهمل زوجته أو أن يحتقرها ، كذلك يستحيل على الرجل الدنس الخائن العهد الزوجي أن يحب زوجته ويؤثرها ، ولو كانت أجمل نساء العالم . فمن العفة والأمانة تتولد حرارة المحبة الحقيقية ، ومن المحبة تتولد السعادة .

فليكن إذن ، نظركم إلى سائر النساء كنظركم إلى تماثيل حجرية . ولا تنسوا أن نظرة رديئة تلقونها على امرأة ، أكانت متزوجة ، أم غير متزوجة ، تجركم إلى الزنا . تذكروا هذا كل يوم . وإذا ألهب فيك نظرك الى امرأة أخرى ، شهوة رديئة ، وعمل على إخفاء حبك لامرأتك، فادخل مخدعك ، وافتح الكتاب المقدس ، وانظر فيما قال القديس بولس الرسول. فلا بد أن تشعر ، وأنت تردد كلماته ، أن اللهيب الذي اشتعل فيك قد انطفأ ، ولا بد أن تحس تجاهها حباً أكثر من الأول ، ولا تعود شهوة رديئة تغزو قلبك ، وتقلل من قوة محبتك لها . وإذ ذاك ، فلا تحس ، فقط ، من جانب امرأتك ، حباً لك أكثر من قبل ، بل إنك

تكون قد أضفت إلى شرفك شرفاً وكرامتك كرامة . لأنه هل يوجد أحط لقدر الرجل ، وأدعى إلى مذلته وهوانه من أن يرى نفسه بعد الزواج ، غارقاً في الرذيلة ؟

إنه لا يجسر النظر إلى عائلته وأصدقائه والناس الذين يصادفهم ، وإنه ليخجل حتى أمام خدامه . وليس هذا كل البلاء : إن بيته يبدو له سجناً بغيضاً مكروهاً . فلا يهتم بأن يفتش عن شيء لصالح بيته ، وتفكيره وخياله متعلقان دائماً بالبغي التي سلبت عقله ! وحسبه من ذلك تعاسة وشقاءً !

وتصوَّر من وجهة أخرى وضع الرجال الذين يشتبهون بنسائهم الشبهات السيئة ! تصوَّر مرارة عيشهم وهم لا يطيب لهم مأكل ولا يحلو لهم مشرب ولا يهنأ لهم منام ! ولا ينعمون بالاستئناس إلى صديق ، حتى ولا بنور الشمس ، فالنور يزعجهم . وكأن على موائدهم سماً بدل الطعام ، وهم يكرهون ، كرههم للطاعون ، منزلَ لم تلد لهم إلا الشرور ، كل هذا بمجرد دخول الشبهة إلى نفوسهم بخيانة أزواجهن من غير أن يلاحظوا أو يروا شيئاً .

فتأمل يا صاح ما هو من أمر الرجال ، وفكر أيضاً أن النساء يقاسين هذه العذابات نفسها ، إذا أخبرن أو اشتبهن بأن رجالهن انصرفن عنهن إلى حظيّة ماكرة .

فاعتبروا بهذه الأمور لكي تتجنبوا الخيانة الزوجية بل لكي لا يخطر لكم الزنا على بال . وإذ داخلكم ،على الرغم منكم ، سوء الظن بنسائكم ، فاعملوا كل ما في وسعكم ، لكي تمحوه من مخيلتكم ، وأن تؤكدوا الطمأنينة في أنفس نسائكم . وتأكدوا أنه في حالة إساءتهن الظن بكم ، فليس الحقد والكراهية هما اللذان يسيرانهن عندئذ ، بل مخاوفهن وقلقهن على كنزهن الخاص . لأن أجسادكم ، كما قلت ، ليست ملككم ، بل ملكهن ، وأثمن ملك لديهن . فلا تفجعوهنّ بسلب ما يملكن، ولا تنزلن بهم الضربة القاتلة . وإذا أنتم لم تخشوا سخطهن ونقمتهن ، فخافوا على الأقل الإله الذي ينتقم لمثل هذه الجرائم ، والذي وعد الزناة بأفظع العقوبات : «بالدود الذي لا ينام والنار التي لا تطفأ» (مر ٩ : ٤٥).

وإذا لم يرجفكم عذاب الآخرة ، فلترجفكم صواعق الآلام التي تسقط منذ الآن على رؤوسكم .فكم من تعساء متهتكين هلكوا بحالة يرثى لها، في حبائل الزواني الماكرات !؟ فلكي ينتزعنهم من بين أيدي نسائهم الأثيرات لديهم ، ورفيقات حياتهم ، ويجتذبنهم إليهن ، يلجأن إلى الرقي والأشربة السحرية وإلى كل وسائل السحر والخزعبلات . وبعد أن يستولين عليهم يوقعنهم في الأمراض الوبيلة حتى يبري الهزال أجسادهم ، وينقلبوا أشباحاً تتحرك ، يسهل عليهن أن ينقلنهم من هذه الدنيا على الآلة الحدباء .

فإذا لم تخشوا نار جهنم ، فاخشوا هذه البلايا العظيمة . فعندما تسلب خطيئتك نعمة الله منك ، ويعريك الزنا من كل مساعدة علوية ، تصبح غنيمة وفريسة سهلة بين يدي بغيك التي تستطيع عندئذ أن تستصرخ دونما خوف شياطينها ، وتتذرع بخزعبلاتها ورقاها ، لكي تسلم نفسك إليها ، وتجعل منك بالتالي ، مهزلة وأحدوثة أهل المدينة كلها .

هذا ، وناهيك عن الأموال الطائلة التي ينفقها المتهتكون ثمناً لكبرياء الغواني ودلالهن ومجونهن وتطلباتهن من ضحاياهن الفاقدي الإحساس ، أولئك الضحايا الذين لو أحسوا لتمنوا الموت لأنفسهم ألف مرة بدلا من تذللهم وعبوديتهم .

يا لك شقياً ، إنك بالأمس ، ما كنت لتتحمل من زوجك كلاماً بسيطاً مهما يكن . وها أنت الآن تقبِّل رجلي الزانية التي تواجهك بالصفعة على وجهك ! عجباً منك ! أوَلا تخجل ؟ أوَلا يندى جبينك بعرق الاستحياء ؟ أوَلا تتمنى أن تنفتح الأرض لتبتلعك إلى جوفها ؟ كيف تجسر على الدخول إلى الكنيسة ، وترفع يديك إلى السماء ؟ وكيف تتلفظ باسم الله من شفتين دنستين قبَّلت بهما بغياً ؟ ألا تخشى أيها الشقي ؟ ألا تخشى وترتجف من أن ينزل عليك من السماء بغتة غضب الله ؟

إنك تستطيع أن تتوارى من أنظار زوجك التي تهينها ، ولكنك لن تهرب من أمام أنظار الله المنفتحة عليك والمراقبة إياك دائماً .

ولهذا السبب يقول لنا القديس بولس الرسول : «ليكن لكل رجل إمرأته ، ولكل إمرأة بعلها . وليقض الرجل المرأة حقها وكذلك المرأة الرجل كل ما يتوجب عليها» ، « لأن شفتي الزانية تقطران شهداً ، وحنكها ألين من الزيت لكن عاقبتها مرة مثل العلقم ، حادة كسيف ذي حدين» (أمثال ٥ : ٣، ٤) ، وفي قبلة البغي سم خفي . فكيف إذن تسعى وراء مثل هذه الملذات التي تجرك إلى هلاك نفسك ، وإلى الموت الأبدي في حين أن السعادة الأبدية إلى جانبك تفتح لك أحضانها ؟ إن ملذاتك مع إمرأتك هي ملذات بلا تعكير ، ومسرات بلا تبكيت ضمير . أما ملذاتك مع إمرأة غير امرأتك فكلها مرارة وشقاء وعذاب . لأنك قد تستطيع أن تتوارى عن أنظار الناس ، ولكنك لن تستطيع الإفلات من تقريعات ضميرك . فأينما تتوجه تلاق هذا الحكَم المخيف الذي يتبعك دائماً ولا يفتأ يصرخ طالباً الانتقام منك .

فإذا كنت تطلب سعادة في هذه الدنيا ، فإن أماكن الدعارة لا يجب أن تخطر على بالك ، لأنه هل من مورد أوسخ من موردها ؟ وهل من مكان أفسد منها ؟ وهل من أخلاق أحط من أخلاق أهلها ؟ « ليكن منبعك مباركاً وافرح بامرأة حداثتك » (أمثال ٥ : ١٨) . وعندما يكون الى جانبك نبع نظيف ، فلماذا تسعى إلى الينابيع العكرة الفاسدة التي تشعرك بجهنم النار والعذاب الأبدي ؟ أي عذر تقدم عن نفسك ؟ وأي عفو تفتكر أن تلاقي ؟

إذا كان أولئك الذين ، قبل زواجهم ، يسلمون أنفسهم للدعارة والتهتك ، لا يفلتون من الدينونة ، كالمدعو الى العرس وليس له لباس العرس ، فإن الذين يفعلون الزنا ، ويخونون العهد الزوجي ، بعد زواجهم ، لهم دينونة أعظم وقصاص أفظع . ذلك أنهم يكونون أشد إجراماً بكثير من الاولين ، لأنهم يحق لهم أن يستمتعوا بملذات محللة لهم ، يتركونها ليستمتعوا بملذات محرمة ، ويقعوا في الزنا والخيانة الزوجية .

هذا ما أرجو أن تتذكروه وتكرروه لبعضكم بدون انقطاع ، وبه سأنهي حديثي : « لكي تجتنبوا الزنا ، فليكن لكل واحد إمرأته ، ولكل امرأة بعلها . وليقض الرجل المرأة حقها وكذلك المرأة لتخضع لرجلها في كل شيء . جسد

المرأة ليس ملكاً لها ، بل ملك زوجها . وكذلك الرجل ، ليس جسده ملكاً له بل ملكاً لامرأته».

كرروا هذه الأقوال بكل مناسبة ، وفي كل مكان ، في السوق والبيت ، في الليل وفي النهار ، وعلى المائدة وفي سرير النوم . كرروها لأنفسكم ورددوها أمام نسائكم ، ولتذكركم بها نساؤكم ،حتى إذا عشتم عيشة طاهرة على الأرض تبلغوا الى الملكوت السماوي ، بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي ينبغي له كل مجد وإكرام مع أبيه وروحه القدوس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين .



الحديث الثاني

الطلاق

« المرأة مرتبطة بالشريعة ما دام رجلها حياً . فإذا مات رجلها فهي حرة أن تتزوج من أرادت بموجب الناموس والأفضل لها أن تبقى بغير زواج» (١كور ٧ : ٣٩ - ٤٠).

لقد بسطنا لكم في الحديث السابق ما حدده لنا القديس بولس الرسول من غاية الزواج وحقوق الزوجين . وبما أن هذا القديس نفسه يكلمنا عن الزواج أيضاً، فسنتابع بحث هذا الموضوع .

لقد سمعناه يقول لنا : « الامرأة مرتبطة بالشريعة ما دام زوجها حياً . فإذا مات رجلها ، فهي حرة أن تتزوج من أرادت بموجب الناموس ، والأفضل لها أن تبقى بغير زواج»،فلنتابع إذن قول القديس بولس اليوم أيضاً ، ولنبحث في هذا القانون الذي يضعه لأجل الزواج . وإذا نحن اتبعنا بولس ، فإنما نتبع المسيح نفسه ، لأن الرسول لم يستوح في كل ما قاله وما كتبه ، من فكره ، بل من يسوع المسيح .

إن الزواج هو منبع السعادة لمن يحيا حياة مسيحية . وهو على العكس منبع شقاء وتعاسة لمن يسيء استعماله . فالمرأة يمكن أن تكون سند حياتك ، ويمكن أن تصبح سبب دمارك . والزواج قد يكون لك ميناء نجاة ، وقد يكون لك بحراً متلاطماً للغرق . والزواج بطبيعته هو حسن . ولا يصبح سيئاً إلا بإساءة استعماله .

عندما يتمسك الانسان بالقوانين مخلصاً ، يجد في عائلته ، وبالقرب من امرأته الهدوء في الاضطراب ، والتعزية في التعاسة . وعلى العكس ، إذا لم يكن له من الزواج الا الاسم ، فلا يجد من عائلته إلا الجحيم . وما دام الأمر على هذه الأهمية ، فيجب أن نقف عند كلمات القديس بولس بإصغاء وانتباه وأن نزنها . وعندما يريد أحد أن يتزوج يجب أن يتقيد بتعاليم بولس بل بالأحرى بتعاليم المسيح .

إني أعلم أن هذا التعليم يبدو للكثيرين منكم غريباً وجديداً ، ومع هذا فلا أتهرب منه . أريد قبلاً أن أجعلكم تعرفون القانون . ثم أحاول أن أزيل كل الاعتراضات التي تقف في سبيله .

ما هو إذن القانون الذي يضعه القديس بولس ؟يقول: « الامرأة مرتبطة بالشريعة»، فلا يجب عليها إذن ، في حياة زوجها ، أن تنفصل عنه ، ولا أن يكون لها زوج آخر ، ولا أن تعقد زواجاً آخر . وأرجو أن تلاحظوا جيداً ، مدلول العبارات التي يستعملها بولس الرسول . لا يقول إنه يجب عليها أن تسكن مع زوجها ، ما دام زوجها حياً . ولكنه قال « إنها مرتبطة بالشريعة ما دام زوجها حياً» . فقد يحصل حادث طلاق ، وقد تكون منفصلة بالجسد ولكنها على كل حال مرتبطة بالناموس . وإذا عاشت مع رجل آخر ، فهي بحالة زنا . وإذا أراد الرجل أن يطرد امرأته ، أو إذا أرادت المرأة أن تهجر رجلها ، فليتذكر كل منهما قول القديس بولس القائل : « المرأة مرتبطة بالشريعة » .

فكما أن العبيد الآبقين [1] يجرون سلاسلهم بأرجلهم ، وتشهد عليهم بخشخشتها ، هكذا النساء اللواتي يتركن أزواجهن ، يسحبن معهن الناموس الذي يخضعهن أيضاً ، ويتابعهن بسلطانه مع مثيلاتهن ، ويشكيهن صارخاً : الزوج حي وأن ما تعملنه إنما هو زنا ، لأن المرأة مرتبطة بالشريعة ما دام زوجها حياً .«ومن يأخذ امرأة مزوجة يقترف الزنا » (متى ٥ :٣٢) .

ومتى تُرى يمكن عقد زواج آخر ؟ متى ؟ عندما تنحل هذه الربط ، عندما

(١) ابقَ العبد: هرب من سلطة سيده.

يموت الزوج . ولاحظوا هنا عبارة بولس . فإنه لا يقـول ، على التخصيص ، عندما يموت رجلها ، بل « إذا رقد رجلها» .فكأنه يريد بهذا أن يعطي هذه الأرملة تعزية ، أو كأنه يريد أن يقنعها بالبقاء بجانب زوجها ، وعدم التفتيش عن زوج آخر : « إن زوجك لم يمت ولكنه يرقد» .أفلا ننتظر الإنسان الـذي ينـام حتـى يفيق ؟ ولهذا يقول : « فإذا كان يرقد رقاده الأخير ، فهـي حرة ان تتـزوج من تشاء» . لا يقول : « فلتتزوج» ،لأن الزواج ليس ضرورة وليس هو بالتالي نظاماً أو أمراً . لا يمنعها أن تتزوج ، إذا أرادت ، ولا يجبرها بالمقابل ، إذا لم ترد . يكتفي بأن يعرفها قول الناموس . وهي حرة بعد ذلك في أن تتزوج من تشاء . ولكنه عندما قال أن موت رجلها يطلق لها الحرية ، يعتبر في الوقت نفسه ، دوام خضوعهـا للناموس كما لو كان زوجهـا لا يزال حياً ، وبخضوعهـا للنامـوس وارتباطها به مهما يكن لها من مبررات الطلاق ، فإن زواجها بغيره لا يخرج عن كونه زنا . الخدام يقدرون أن يتركوا سيدهم ، وهو في قيد الحياة ، أما النساء فلا يستطعن أن يتركن أزواجهن إلا بعد الموت ، وإذا هن فعلن ذلك فإنهن يقترفن الزنا .

ولا تعارضوني بالقانون المدني الذي يسمح لكم أن تحدثوا سبباً للطلاق وتطلقوا نساءكم ، إذ ليس بحسب هذا الناموس ، ستدافعون أمام الله في اليوم الأخير بل بحسب الناموس الذي وضعه هو تعالى .

أضف إلى ذلك أن باب القانون المدني ليس مفتوحاً على مصراعيه وليس السماح فيه بالطلاق مطلقاً .فالشرائع المدنية تعاقب في بعض الحالات المدنية، على الزنا ، وهي أيضاً تعتبره ، إلى حد ما ، جريمة . إنها تجرد المرأة التي استحقت الطلاق بعملها ،من أملاكها وتطردها من غير أن تترك لها مورداً، كما أنها تعاقب الرجل الذي هيأ فرصة الطلاق بأخذ ثروته . وهكذا فليس في هذه القوانين دفاع عن الزنا . وقد تقولون لي : وما رأيك في موسى الذي كان يسمح بالطلاق ؟ وجوابي عن هذا يكون بلسان المسيح: « إذا لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ، فلا تدخلون ملكوت السموات » (متى ٥ : ٢٠) وبلسان المسيح الذي قال بعد هذا : « من طلق امرأته ، لغير علة الزنا ، فقد زنا . ومن تزوج بمطلقة فقد زنا »

(متى ٥ : ٣٢). ومن البديهي أن ابن الله إنما قصد أن يرفعنا إلى المكان الأسمى ، إذ جاء إلى الأرض ، وأخذ صورة عبد وسُفك دمه الثمين ، وغلب الموت ، ومحا الخطيئة ، وأفاض علينا نعماً أغزر من نعم العهد القديم .

هذا ، وموسى نفسه ، إذ كان أبعد من أن يسن الطلاق نظرياً ، لا يدخل الطلاق كتحريف وتحويل للناموس ، قد سمح به إرضاء لغرائز اليهود الضعيفة . وما من أجد يجهل أعمالهم الاجرامية ، وإسراعهم الى القتل ، وإستسهالهم تدنيس مسكنهم بدماء أقاربهم ، وقلة احترامهم لحياة أهلهم وحياة اخرين . فقد وجد موسى أنه خير له أن يسمح بالطلاق من أن يغضب اليهود بتحريمه وأن يقتلوا النساء في بيوتهم وأن يجتنبوا هذه الويلات . فقد أحل الطلاق محل القتل .

ولكي تعرفوا أن إقدامهم على سفك الدماء ما كان يكلفهم شيئاً ، إسمعوا ما يقول ميخا النبي : « الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالاثم » (ميخا ٣ : ١٠)،وما يقوله حجي النبي : « بل اللعنة والكذب والقتل والسرقة والفسق قد فاضت والدماء تلحق بالدماء » (هوشع ٤ :٢)،وأشعياء النبي : « وأيديكم مملوءة بالدماء » (أشع ١ : ١٥) .فلكي يجتنب موسى هذه الجرائم الدموية ، أباح لهم الطلاق . وهذا ما فسره المسيح نفسه عندما سأله تلاميذه « فلماذا أوصى موسى أن تعطى كتاب طلاق وتخلّ ؟ فقال لهم أن موسى لأجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولم يكن من البدء هكذا » (متى ١٩ :٧ ـ ٨) .ولو لم يكن الأمر هكذا ، لما خلق الله رجلاً وامرأة فقط ،وأذن لخلق الله بعد آدم ، امرأتين ، ليطلق واحدة ، ويستعيض عنها بالأخرى . ولكن ناموس الخليقة هو صريح ، وهو الذي يثبته المسيح ، وهو الذي أفهمكم إياه اليوم .

وما هو هذا الناموس ؟ هذا الناموس هو : أنه على الرجل أن يحتفظ بالمرأة التي أعطاه إياها الله ، إلى نهاية حياته ، ويكتفي بها . هذا الناموس أقدم من ناموس الطلاق على مدى الزمن الذي يفصل بين آدم وموسى . وعليه فلست بمبتدع لكم شيئاً جديداً ، ولا ناموساً غريباً ، بل على العكس مذهباً أقدم من مذهب موسى .

وتبعاً لذلك ، فلندرس عن كثب ما يقوله موسى نفسه : « إذا اتخذ رجل

امرأة وصار لها بعلاً ، ثم لم تحظ عنده لعيب أنكره عليها ، يكتب لها كتاب طلاق ، ويدفعه إلى يدها» (تثنية ٢٤ : ١) ، فتأملوا العبارة : أنه لا يقول «فليكتب لها» أو «فليعطها» ، بل يقول : «يكتب لها كتاب طلاق ويدفعه إلى يديها ، وهناك فرق كبير بين العبارتين. الأولى تفيد الأمر ورسم شريعة جديدة ، أما الثانية فتفترض شيئاً موضوعاً قبلاً ولا تدخل ، من جانب موسى ، ناموساً جديداً .

« فإذا خرجت من بيته ومضت ، وصارت لرجل آخر ، فأبغضها الرجل الآخر ، وكتب لها كتاب طلاق ، فدفعه إلى يدها ، وصرفها من بيته ، أو مات الرجل الآخر الذي اتخذها له زوجة ، فليس لبعلها الأول الذي طلقها ان يعود ويأخذها بعدما تدنست » (تث ٢٤ : ٢ - ٤).ثم لكي يتبيَّن لك أن الزواج الثاني ، بعد الطلاق ، لم يكن في نظر موسى حقيقياً ، وأنه إذا سمح به فلكي يرضي غرائز اليهود، نسمعه بعد أن قال: « الرجل الأول لا يستطيع أن يتخذها زوجة» ، يضيف :«بعدما تدنست» .وهذه عبارة تدل على أن الزواج الثاني إنما كان دنساً وليس زواجاً . ولهذا لم يقل « بعدما تزوجت » بل « بعدما تدنست » .ألا ترون قرب مدلول هذا الكلام من كلام السيد المسيح ؟ ثم أنظروا السبب الذي يقدمه : « لأن هذا رجس في عيني الرب» .هذا ما يقوله موسى . ثم اسمعوا ما يقوله ملاخي النبي بصورة أوضح مما هي عند موسى : « وهذا أيضاً صنعتم : غشيتم مذبح الرب دموعاً وبكاء وعجيجاً حتى إني لا ألتفت إلى التقدمة من بعد ولا أقبل من أيديكم شيئاً مرضياً . وتقولون لماذا ؟ لأن الرب كان شاهداً بينك وبين امرأة صباك التي غدرت بها ، وهي قرينتك وامرأة عهدك . أليس واحد صنعها ، وهي بقية روحه ؟ وماذا يطلب الواحد . زرعاً لله . فاحفظوا روحكم ولا تغدر بامرأة صباك . إذا أبغضتها فطلقها قال الرب إله اسرائيل لكن الجور يغطي لباسك قال رب الجنود » (ملاخي ٢ : ١٣ - ١٦). يقول الله نفسه : هل يمكن أن التفت الى تقدماتكم بعد ، أو أن أقبل شيئاً مرضياً ؟ وما هو السبب في ذلك ؟ إن السبب هو ما يقوله بعد ذلك فوراً : « لأنك تركت امرأة صباك» . ولكي يبيِّن فظاعة الخطيئة ويطرح كل عذر للمجرم بترك امرأته ، يجمع أهم الشكايات من الانسان ، فيضيف قائلاً: (مع أنها كانت رفيقة حياتك ، وامرأة

صبائك ، وامتداد وجودك ، وهي الكيان الذي خرج من كيانك ، وخالقها وخالقك هو واحد » . فانظر كيف يعدد كل ما كان من فضلها : العمر : « كانت امرأة صبائك » ، نفعها : « كانت رفيقة حياتك » ، ونظام خلقها : « امتداد وجودك » . ثم يصعد الترتيب إلى أرفع الدرجات ، وهي عظمة خلقة المرأة ، وهذا معنى هذه الكلمات: « لها نفس الخالق الذي خلقك » . فكأني به تعالى يريد أن يقول للرجل : « إنك لا تستطيع أن تدعي أنك خرجت من بين يدي الله على حين ان المرأة لم تخرج من بين يدي الله ، أو خلقها خالق أقل منه ! كلاّ ، بل هو الخالق الواحد الذي خلقكما كليكما من العدم . وبما أنك لا تستطيع أن تقول غير ذلك ، فهذا السبب العميق يكفيك لكي تحفظ لها المحبة . وإذا كنا، غالباً، نرى خداماً لا يتخاصمون فيما بينهم لأنهم يخصون سيداً واحداً ، أفما يجب بالأحرى أن يكون الأمر نفسه بين الرجل والمرأة ، إذ أن لهما سيداً واحداً ، وخالقاً واحداً ؟

ألا ترون كيف أن العهد القديم يدخلنا ، إلى حد ما ، في العهد الجديد ، ويجعلنا نذوق ، من خلاله العهد الجديد ؟ كلما تطاول الزمن على العهد القديم ، واقتربنا من العهد الجديد ، عهد الكمال ، وأمسكنا بأطراف التشريع القديم ، نرى النبي في أواخر ازمان ذلك العهد ، يهيء السبل إلى كمال أسمى : فلنندفع إذن متبعين هذا القانون الجديد الجميل ، ولنبتعد عن كل ما يَشيننا ، وليمتنع كل واحد عن ترك امرأته والتزوج من امرأة مطلقة .

وبالفعل بأي عين نستطيع أن ننظر إلى زوجها ؟ ألا يندى الجبين بالخجل أمام أصدقاء وخدام هذا الرجل المهان ؟ إذا تزوجت أنت يا هذا بامرأة مترملة ، فمجرد تصوّر وجه رجلها الراحل يسبب لك الاشمئزاز ، ويترك لك انطباعاً ثقيلاً . كيف تشعر بذاتك ، حين تتزوج بامرأة متزوجة ، ويكون أمام عينيك شخص زوجها الحي باستمرار ؟ بأية حال نفسية تدخل إلى بيتك ؟ ما هو شعورك ، وما هو نظرك عندما تجد في حضرتك امرأة هذا الرجل ؟ وماذا أقول ؟ امرأة هذا الرجل ؟ ليست بامرأته ، لأنها تركته . ماذا إذن؟ أهي امرأتك أنت؟ وليست أيضاً امرأتك أنت ! وليس لها الحق أن تكون امرأتك . من هي إذن ؟ هي زانية ، وليست امرأة لأي شخص . داست ارتباطاتها الأولى برجليها . وارتباطها معك ليس له أية قيمة .

أفلا ينبغي أن تُعد من فاقدي الشعور لادخالك إلى بيتك مثل هذه الويلات ؟ أي عذر لك ؟ هل عسر عليك وجود امرأة ؟ يا له من جنون مطبق يقع فيه الإنسان عمداً ! وذلك بأن يكون لديه المجالُ مفسوحاً لأن يعيش في زيجة طاهرة ، ومرتاح الضمير ،فيتكدس في هذه الزيجة المحرمة ، معطلاً أعمال بيته ، زارعاً بذور حرب في قلب عائلته ، مضرماً في كل مكان نار الحقد ضده ، ومستنزلاً عليه اللعنات من كل الأفواه ، وجالباً لنفسه ما هو أفظع من كل ما ذكر ، أي قصاص الله الهائل في يوم القضاء الأخير .

وفعلاً ماذا ستجيب يومئذ هذا القاضي عندما سيقيم قضاءك أمام عينيك ؟ وبعد أن يقرأ حكمك ، يقول لك : كنت قد منعتك من أن تتخذ إمرأة منفصلة عن زوجها ، وكنت قد قلت لك ان هذا العمل هو زنا . فكيف تجرأت إذن أن تعقد مثل هذا الزواج المحرم ؟ ماذا ستقول ؟ وبماذا ستجيب ؟ ولست بمستطيع يومئذ أن تتنصل من عملك ، وأن تستند على قوانينك المدنية ؟ فإنك ستقاد ، من غير أن تفوه بكلمة ، موثقاً إلى نار جهنم لتجتمع فيها إلى الزناة والزواني ، وكل الذين لم يحترموا حقوق الزواج . لأن كل الذين يطلقون زوجاتهم ، لغير سبب الزنا ، والذين تزوجوا بالمطلقات لغير سبب الزنا ، سيذهبون الى النار الأبدية . وإني لأنصحكم أيها الرجال ، وأرجوكم ، بل أتوسل إليكم أن لا تتركوا نساءكم ، وكذلك النساء بأن لا يتركن رجالهن . وتمسكوا جميعاً بكلام القديس بولس الرسول القائل: «المرأة مرتبطة بالشريعة ما دام رجلها حياً. فإذا مات رجلها فهي حرة ان تتزوج من ارادت بموجب الناموس والافضل لها ان تبقى بغير زواج».

وبالواقع ، إذا كان بولس يجد حرجاً في أن يسمح للأرملة أن تتزوج ثانية ، ويظهر أنه لا يوافق إلا بأسف على أن يسمح للأرملة ان تتزوج بعد وفاة زوجها ، فعلى أي مستند يستند الرجل الذي يقدم على أن يتخذ المرأة وزوجها حي ؟ فأي عذر يكون لأولئك الذين يتزوجون بالنساء المطلقات غير عذر الرجال المتزوجين الذين يركضون وراء النساء العموميات ؟ لأنه ليس في هذا العمل سوى نوع آخر من الزنا. وقل الشيء ذاته في امرأة متزوجة تتخذ رجلاً غير متزوج ، عبداً كان أم حراً ، فإنها تقع في الزنا ، كالرجل المتزوج الذي يزني مع

إمرأة غير متزوجة بغياً كانت أم امرأة أخرى.

أهربوا ، إذن ، من هذا النوع من الزنا . لأنه أي موجب تجدون للوقوع فيه ، وأي عذر تقدمون عنه ؟ أشهوة الحواس ؟ ولكن امرأتك التي في بيتك والتي أعطاك إياها الله تنزع منك كل عذر،ومن أجل هذا بالضبط ، من أجل اجتناب الزنا اعطاك الله الزواج .

هذا وليس وجود امرأتك وحده هو الذي يرد عليك كل عذر،بل إنما هي الحياة المنتظمة لجماعات الرجال الآخرين الذين لهم الحواس نفسها ، والشهوة الجنسية ولهم الطبيعة نفسها التي لك . فعندما ترى كل الرجال الذين يحسون كما تحس ، ولهم جسد كجسدك ، وشهوات كشهواتك ، وحاجات كحاجات طبيعتك،لا يسعون وراء أية امرأة غريبة عنهم ، ويبقى كل واحد أميناً لزوجته محباً لها ، فأي عذر تقدم عن نفسك أنت ؟ وماذا تقول لنا عن حاجات حواسك ؟

ولكن لماذا أعرض لك أمثلة من حياة المتزوجين الطبيعية ؟ أليس حولك رجال يعيشون حياة البتولية الدائمة لا يعرفون الزواج ؟ وعندما تجد حولك كثيرين يستطيعون أن يمارسوا حياة الطهارة دون اعتماد على الزواج ، فأي عذر تقدمه عن ذاتك،وأنت الساعي،بعد الزواج ، الى الزنا والفسق والفجور ؟

والآن أتوجه الى الجميع ، الرجال والنساء والأرامل وغير الأرامل ، لأن الناموس الموضوع بواسطة بولس الرسول هو لكل الناس: «الامرأة هي مرتبطة بالشريعة ما دام رجلها حياً. فإذا مات رجلها فهي حرة ان تتزوج من أرادت بموجب الناموس والافضل لها ان تبقى بغير زواج».

والمتزوجة لا يحق لها أن تتساءل إذا كانت تستطيع أن تقترن برجل آخر في حياة زوجها ما دامت تعرف أنها، في حياة زوجها ، « هي مرتبطة بالشريعة » . وأما الأرملة فإذا أرادت أن تتزوج ، فلها الحرية ، ولكن بناموس الرب ، أعني بكل لياقة وأدب . وإذا فضلت على العكس أن تبقى أمينة الى زوجها الراقد ، فإنها تجد في كلام القديس بولس تطميناً لها على سعادة كبيرة في هذا العالم ، ووعداً بمكافأة كبيرة في العالم الثاني: «الأفضل لها أن تبقى بغير زواج». ألا ترون أن الرسول الإلهي الذي يعرض الأمر لفائدة الجميع ، كيف يريد أن يشفق

على ضعف البعض دون أن يحرم الأكاليل للذين يستحقونها ؟ ونجد هنا ، عندما يتكلم عن الزواج الأول والثاني ، نفس الحكم الذي له عن الزواج والبتولية . فكما أنه يتحفظ من تحريم الزواج حتى لا يضع عبئاً ثقيلاً على كاهل الضعفاء ، ولا يجبر عليه من يفضلون البتولية حتى لا يحرمهم أكاليل الاستحقاق، يصرح جهاراً بقدسية الزواج مع اعتباره أفضلية التبتل ، كذلك هنا يعلن أفضلية عدم الزواج بعد الترمل على الزواج بعده ، باعثاً نشاطاً جديداً الى نشاط الأقوياء ذوي التحمل ، مع تحفظه من جهة ثانية من أن يسبب المعثرة للضعفاء .

وبعد أن قال:« تكون أسعد حالاً إذا بقيت كما هي،يقول أيضاً « بحسب معرفتي » (أو بحسب رأيي) .ولكي لا يدعكم تتصورون أن الرأي هو رأيه ، أضاف قوله :« ولكني أعتقد أن لي هنا رأي الرب». فلا تستطيعون إذاً أن تظنوا أن هناك رأياً خاصاً ، فإنه فكر الروح القدس ، فكر الله ، وليس القديس بولس يتكلم هنا فقط بل الله نفسه ، والقديس إنما هو الترجمان له . وإذا قال « أظن » فليس قوله عن تخمين ، بل عن تواضع ليس إلا .

لقد قال إن المرأة التي تبقى أرملة بعد وفاة رجلها تكون أسعد حالاً ، ولكنه لم يقل كيف تكون سعيدة . فقد اكتفى بأن يضع فكرته بوحي الروح القدس . ولكن إذا أردتم أنتم أن تبحثوا ما هي هذه المنافع ، يسهل عليكم أن تكتشفوا عدداً كبيراً منها ، وأن تلاحظوا بأن فضيلة الترمل لا يكون لها المكافأة في الحياة الثانية ، بل في الحياة الحاضرة أيضاً لها منافع كثيرة .

وهذا ما كان قد عرفه جيداً القديس بولس عندما أشار الى سمو البتولية وفضلها على الزواج : « الزواج هو حسن ، وإذا تزوجت العذراء فلا تعمل سوءاً ».ويريد هنا بالعذراء ، لا تلك التي رفضت الزواج ، بل التي لم تتزوج بعد ، وليست عندها أية رغبة في البتولية الدائمة . ثم يضيف :«إن كل اللواتي يتزوجن يلاقين كل شدائد الزواج ومحناته ولا أقول لكم أكثر من هذا». يترك للمؤمنين أن يعددوها لأنفسهم : آلام الحمل والولادة ،والاهتمام بالأولاد والقلق والهموم من كل نوع، والأمراض، والموت المبكر، والانزعاجات والخصومات، ومماشاة كل الأهواء والأذواق، والمسؤولية عن أخطاء الغير، وتراكم

آلاف الآلام والأحزان في قلب واحد .

إن الأرملة التي تعتصم بالعفة والقناعة ، تنجو من كل هذه البلايا ، وفي حين أنها تكون قد تخلصت من مصائب هذه الحياة الحاضرة ، تهيء لنفسها مكافأة كبيرة في الحياة الثانية . وكل هذه الاعتبارات يجب أن تقنعكم بالاكتفاء بامرأة زواجكم الوحيد .

وإذا جنحتم الى زواج ثانٍ ، فليكن على الأقل بمخافة الله ، وبحفظ الشريعة. ولهذا قال الرسول: يجب أن يكون «في الرب». إنه يبيح لكم الحرية، ولكنه يضع حدوداً وناموساً لهذه الحرية .

والشيء الذي لا يريده الرسول هو أن تدخلوا الى بيوتكم أناساً فاسدي الأخلاق والفاسقين والمهرجين ، وذوي الخلاعة والمجون . وما يريده من الجميع هو أن يمارسوا العفة والطهارة والتقوى لأجل مجد الرب .

ولأن كثيرات من اللواتي ترمّلن ، تعاطين الزنا بعد وفاة أزواجهن ، وسلمن أنفسهن للدعارة ، اضطر القديس بولس أن يضيف قائلاً: «على أن زواجهن يجب أن يكون في الرب »،لكي يجنبهن جرائم جديدة ، وسقطات جديدة .

لا شك أن من الأفضل أن تبقى المرأة محافظة على عهد زوجها الميت ، ولا تتجاوز ذلك الاتحاد بينها وبينه وترتبط برجل غيرة ، وأن تحتفظ بعد موته بالعفة والقناعة ، وأن تكرس وقتها واهتمامها لأولادها ، وتستنزل بهذا العمل بركات غزيرة . ولكن إذا أردن أن يعقدن زواجاً آخر بكل أمانة وشرف ، وبموجب الناموس ، فلا مانع من ذلك البتة . إذ ليس المحرم والممنوع سوى فعل الزنا والفجور .

فلنهرب إذن من الدنس سواء أكنا متزوجين أم غير متزوجين ! ولا ندنس حياتنا ، ولا نعرض وجودنا للإحتقار ، ولا نوسخ جسدنا ، ولا ندخل التوبيخ الى ضميرنا .

وفعلاً ، كيف يتجاسر الانسان أن يدخل الى الكنيسة بعد خروجه من بيت

الدعارة ؟ كيف يجسر أن يرفع بالابتهال يدين عانقتا بغياً ؟ كيف يجسر أن يدعو الله بلسان وشفتين قبّلتا فاجرة ؟ وبأي نظر يستطيع أن ينظر الى أصدقائه المحترمين ؟ ولماذا أذكر أصدقاءك ؟ ولو أن كل الناس يجهلون سلوكك ، فلن تعرف مع هذا ، كيف تتخلص من شعورك بالخجل تجاه دنسك ، ولا تفر من الاشمئزاز حين تنظر الى جسدك . وإذا لم يكن الأمر هكذا ، فلماذا تسرع الى الاغتسال بعد خطيئتك ؟ أليس لأنك تشعر نفسك مغطىً بأوحال هي أبشع من كل لطخة وعار ؟ وأي برهان أكبر من هذا البرهان تقدمه على دنسك ؟ وكيف نتصور موقف الله منك عندما تلفظ أنت أيها المجرم القصاص والحكم على ذاتك ؟

أنت يا هذا تعترف بدنسك : هذا حسن وأنا أهنئك على هذا الاعتراف . وما يؤخذ عليك هو خروجك بغير نتيجة من هذا الاعتراف ، وعدم اتخاذك الوسائل الفعالة لكي لا تعود ، من الآن فصاعداً، الى الدنس. لأن هذه اللطخة لو كانت لاحقة بالجسد فقط ، لكان الماء وحده كافياً لمحوها . ولكن النفس هي التي توسخت واسودّت، وهي التي يجب أن نفتش على تطهيرها من الأوساخ التي لحقت بها . ففي أي ماء يجب أن نغسل هذه اللطخة ؟ أجل في ماء الدموع السخينة ، والتنهدات الصاعدة من أعماق القلب ، بالندامة الصادقة ، والصلوات الحارة ، والحسنات الكثيرة ، وبالشكاية على النفس وتبكيتها ، وفي قطعنا العهد على ألا نعود الى الوقوع فيها . أجل هكذا تُغسل هذه اللطخة ، وهكذا تُطهر النفس . وبغير هذه الطريقة ، لا تزيل عن نفسك ذرة من هذه اللطخة ، ولو صببت على جسدك كل مياه الأنهار .

ولا شك أن الأفضل لنا ألا نجرب هذه الخطيئة المخزية . ولكن ، إذا حدث أن نقع فيها، فلنستعمل كل الأدوية التي تتطلبها هذه الخطيئة ، بعد أن نعد الله ألا نعود نقع فيها . لأنه بعد أن نعترف بخطايانا ، ونرجع إليها بغير انقطاع ، فما هي فائدة التوبة ؟ وأن يغتسل المرء ثم يعود الى التمرغ في الأوحال ، وأن يخرب ما كان جدده ، ويجدد ما كان خربه ، معنى هذا تضييع الوقت وقتله سدىً .

فيجب علينا إذن ألا نشتغل سدىً . ولكي لا نفسد حياتنا كلها ، علينا أن

نطهر أنفسنا من خطايانا السالفة ، وأن نعيش من الآن فصاعداً ، حياة طاهرة نقية ومزينة بكل أنواع الفضائل ليكون الله عطوفاً علينا ، ورؤوفاً بنا ، ويكسبنا ملكوت السموات بنعمة سيدنا يسوع المسيح الذي له ينبغي كل مجد الآن وكل آن والى دهر الداهرين. آمين.



الحديث الثالث

اختيار الزوجة

لقد ساءني أني ما أتممت حديثي إليكم في المرة السابقة ولكني أتعزى إذ أرى أنكم حفظتم كل ما قلته ، وأنكم أفدتم منه كثيراً . إن رفيقي في العمل (الروح القدس) قد حفر الاثلام العريضة في أرض نفوسكم . ومن وحيه الخصب ، ألقي فيها بذار كثير ، وأنا متأكد أنها أخصبت كثيراً . ولقد سمعتم أقوالاً رائعة ، في ديباجة حسنة ، وارتويتم من الينابيع الفائضة من الحياة الخالدة ، ورأيتم دفقات من الذهب الصافي تتموج أمام أعينكم .

وإذا قلنا مياه هذا الحديث تتدفق بالذهب فلا نعني أن الذهب نفسه يجب أن يكون من انتاج هذه المياه بل نعني أن النهر عندما يجتاز الجبال الحاوية ذهباً ، يجرف طمىً محملاً ذهباً ويفرق الخيرات على ضفافه ، ويوزع كذلك الكنوز على شاطئيه . وقد جاء واعظكم في المرة الأخيرة يحاكي هذا النهر . فبعد أن طاف هو أيضاً جبالاً غنية بالمعادن ، وحمل معه من ذهب الكتاب المقدس ، نشر بينكم تعاليمه ، ووزع على نفوسكم كنوزاً أثمن من كل ذهب العالم .

أما اليوم ، فإن كلامي ، كما أعرف ، سيظهر لكم هزيلاً بالنسبة الى السابق . فإذا أكل الإنسان المعتاد دائماً على الطعام الخشن ، لمرة واحدة ، طعاماً على مائدة غنية بألوان الطعام ، يحس بثقل فقره ، عندما يعود الى المعتاد من طعامه .

على أني لست أتقاعس عن واجبي من أجل ذلك . وبعد هذا ، فأنتم نعرفون ، بعد أن تعلمتم من القديس بولس ، تعرفون أن تشبعوا ، وأن يكون بكم جوع ،وأن يكون عندكم كل شيء ، وأنتم تعدمون كل شيء ، وأن تحترموا الأغنياء ، ولا تحتقروا الفقراء . وكما أن أصحاب الخمرة ، إذا كانوا يشربون بلذة الخمرة الجيدة ، لا يحتقرون ، لأجل ذلك الخمرة الدون ، كذلك أنتم أيها المستمعون المؤمنون للكلام الإلهي ، إذا تهيأ لكم أن تتمتعوا بسماع الخطباء البارزين ، ثم دعيتم الى سماع وعاظكم الاعتياديين ، فلا تتأخرون عن سماع هؤلاء أيضاً باندفاع وحماس . وأن الذين لم يعتادوا في حياتهم سوى الموائد الغنية ينتهي بهم الأمر الى التخمة وفقدان الشهية . وأما الذين تحفظ لهم حياتهم الخشنة الشهية بدون انقطاع ، ويكون بهم دائماً جوع وظمأ الى الطعام والشراب ، يتسارعون دائماً بنفس الشهية الى الموائد المتواضعة .

ولست أقول هذا لأجاملكم . ولكن هذا ما لاحظته جيداً في خطابي الأخير . فبعد أن حدثتكم طويلاً عن الزواج ، وبعد أن بينت لكم بوضوح أن من يترك امرأته ، ويتزوج بمطلقة ، فإنما يكون فعل الزنا ،وأوردت لكم كلام السيد المسيح « الذي يتزوج بمطلقة يزني ، والذي يطلق امرأته ، إلا لعلة الزنا ، فقد جعلها تزني »، لما قلت لكم هذا ، رأيت بينكم أناساً أطرقوا رؤوسهم ، ولطموا على جباهم، ولم يجسروا أن يرفعوا وجوههم .

ولما حولّت وجهي عندئذ نحو السماء ، قلت في نفسي : فليكن أسم الرب مباركاً لأنه لم يجعلني أتكلم مع أموات ، وجعل لكلامي مثل هذا الصدى العميق في نفوس سامعي ! لا شك أنه من الأفضل للإنسان ألا يقع في الخطيئة ، ولكنها على كل حال ، خطوة كبيرة يخطوها الإنسان في طريق الخلاص ، أن يعرف خطاياه وأن يبكي ، ويلطم صدره . لأن هذا الاعتراف بالخطايا ، هو بدء التدبير ، وهو الذي يقود الى عدم الخطأ . ولهذا السبب نرى أن القديس بولس الرسول كان يتباهى بأنه أبكى الخطأة ، ليس لأنه سبب لهم الألم ، بل لأنه قادهم ، عن طريق الألم ، الى التوبة . فقد قال للكورنثيين « إنني أفرح لا لأنكم في حزن ، بل لأن حزنكم قادكم الى التوبة » (٢ كور ٧ : ٩) .

وسواءٌ أبكيتم على خطاياكم ، أم على خطايا غيركم ، فإنكم تتنقون كثيراً بدموعكم . وإذا أنتم بكيتم على خطايا الآخرين ، فتكونون قد كشفتم عن نفس رسولية ، وتتلاقى دقات قلوبكم مع دقات قلب بولس الرسول الذي كان يصرخ : « من يسقط ولا أضعف أنا ؟ من يشكك ولا أحترق أنا » ؟(٢ كور ١١ : ٢٩) .وعندما تبكون على خطاياكم الخاصة ، فإن دموعكم تطفىء النار التي تشب من جديد لتسقطكم في الخطايا مرة أخرى ، وتشق لكم الدموع طريقاً ثانية لمستقبلكم .

ولهذا عندما رأيتكم تهزون رؤوسكم وتقرعون صدوركم وتنتحبون ، كنت أغتبط بأن أرى حزنكم يأتي ثماره فيكم .

ولهذا سنواصل اليوم بحثنا السابق في نفس الموضوع ، ونكشف للذين يريدون أن يدخلوا في الزواج ، أيّ تهيؤ جادٍ يجب أن يتهيأوا به ليدخلوا الى الزواج .

وفي الواقع نرى أنه عندما يقتضي الأمر شراء بيت أو تعيين خدام ، فلا نهمل شيئاً من الحيطة والتحفظ والحذر وطرق المعاملة مع أصحاب الملك وأسياد العبيد ، لنعرف حالة البناء من الداخل والخارج وأخلاق الأشخاص . فلكَم ينبغي ، بالأحرى ، من الحيطة والحذر والتعمق في البحث والاستعلام لمن يريد أن يختار عروساً له ؟ !

ذلك لأن الأمر هنا يختلف أهمية عن ذاك . لأن البيت الذي تشتريه ، تستطيع أن تبيعه أو تبدله إذا لم يعجبك ،ولكنك حالما تعقد الزواج على ابنة فلن تستطيع أن تبدلها أو تردها الى أهلها ، ولا تستطيع أن تنفصل عنها أبداً إلا في حالة الزنا وفق الناموس الإلهي .

فعندما تريد أن تتزوج فلا تكتف باعتبار القانون المدني . إقرأ أولاً الناموس المسيحي ، لأنه بحسب هذا الناموس ، لا بحسب غيره يحاكمك الله . فإذا خالفت القانون المدني ، فإنك تستطيع أن تدفع المخالفة من مالك ، ولكن إذا خالفت ناموس الله ، أغرقت نفسك في بحر العذاب الأبدي وكردستها في النار الخالدة .

وعندما يريد أحدكم أن يعقد زواجاً ، فسرعان ما يذهب الى المحامين ، ويجلس في مكاتبهم ، يستفهم منهم بدقة عن كل ما يحدث فيا لو ماتت المرأة بغير أولاد ، أو تركت ولداً واحداً أو اثنين أو ثلاثة ، وعماذا تعمل بأموالها إذا كان لها أب حي ، أو لم يكن لها ، وتسأل عما يصيب أخوتها وما يصيب زوجها من مالها ، وفي حالة عودة كل أموال المرأة الى زوجها ، أو في حالة عدم ثبوت الحق لزوجها بشيء . وبالإجمال فإنه يستعلم عن لائحة من الأسئلة والأجوبة لا حصر لها ، ويتخذ الاحتياط والحذر من كل ناحية .

وإذ ذاك ، أفليس من الغرابة أن تبذل من الاهتمام الى هذا الحد ، عندما يكون الأمر أمر فقدان دريهمات قليلة ، وألا تهتم وتحسب الحساب لخسارة نفسك الخالدة ، في حين أن نفسك يجب أن تقتضيك من الاهتمام والانشغال أكثر من أي شيء آخر في الوجود ؟

لأجل هذا أوصيكم وأنصحكم إذا أردتم الزواج ، بأن تذهبوا وتطلبوا القديس بولس الرسول ، وأن تستوضحوا منه القوانين الحقيقية للزواج ، وأن تسألوه ماذا يجب أن تفعلوا عندما يكون لواحد منكم امرأة خبيثة أو فاسدة ، أو سكيرة أو شتامة أو كاذبة،الى غير ذلك من الرذائل والخصال التي تسبب لكم المشاكل البيتية . فإذا وجدتم أن القديس بولس يسمح لكم، من أجل هذه الرذائل، أن تطلقوا نساءكم، فليس في الأمر مجازفة ولا صعوبة. ولكن إذا وجدتم أنه على العكس، لا يخولكم أية سلطة في تطليق المرأة لغير علة الزنا، ويوصيكم دائماً أن تبقوا على محبتكم للامرأة التي تجتمع فيها مثل هذه الرذائل والخصال والمحافظة عليها ،فيجب أن تكونوا مطمئنين، ثابتي العزم على إزالة رذائلها ، وتغيير عاداتها .

ينبغي إذن إتخاذ الاحتياط، قبل الزواج، في التفتيش عن المرأة التي يكون بين طباعي وطباعها توافق ، الامرأة الطيبة الكريمة المطيعة . وبعد أن تكون فحصت كل شيء ، ووزنت كل النتائج ، وإذا حصلت عليها فإنك تربح شيئين مهمين جداً : الأول هو أنك لا تعود ترغب مطلقاً في فصلها عنك . والثاني أنك

تستطيع أن تحبها محبة لا حد لها ، المحبة التي يطلبها منك القديس بولس الرسول .

لأنه بعد أن قال: «ايها الرجال أحبوا نساءكم» (أفس ٥ :٢٥)، لا يكتفي بأن يوحي بمحبتهن بل يعين مقياس ومدى هذه المحبة فيضيف: «أحبوهن كما أحب المسيح الكنيسة». وقل لنا يا بولس كيف أحب المسيح الكنيسة؟ «الى حد أن يحتمل الموت لأجلها». وإذن فإذا كان يجب عليك أن تموت في سبيل امرأتك فلا ينبغي أن تتردد! لأنه إذا كان السيد قد أحب عبدته حتى أنه قدم ذاته من أجلها فينبغي بالأولى على العبد أن يحب الى هذا الحد رفيقة عبوديته .

ولا تظنوا أن ما جذب المسيح كان جمال عبدته أو حتى فضائل نفسها . كلاً ! بل إنها كانت ملطخة ومدنسة كما سنراها . فبعد أن قال أن «المسيح بذل نفسه لأجلها»، يضيف بولس الرسول قائلاً: «ليقدسها ويطهرها». فإذا كان طهرها، فهذا طبعاً دليل توسخها وتدنسها، وليس بلطخة بسيطة، بل بأبشع اللطخات بالوحل والدم. جاء المسيح ليفتقد عروسه كنيسة العهد القديم ويخطبها لعهد جديد ، فوجدها عريانة مطروحة في العراء ، تسفعها الهاجرة ، موسخة ملطخة بالدم ، فغسلها وطهرها وألبسها أبهى الثياب ، وضمخها بالطيب وصعد بها الى السماء .

هكذا يجب عليك أن تفعل أنت أيها المسيحي . إذا ارتكبت امرأتك نحوك ألف خطيئة ، فاصفح لها ، وتناس أخطاءها . هل فيها عيوب أخلاقية ؟ يجب أن تفعل كل ما بوسعك لكي تقوِّم إعوجاجها وتصلحها ، كما فعل المسيح بكنيسته . فإنه له السجود ، لم يكتف بتطهيرها من أدران الخطيئة ، بل منحها شباباً جديداً ، بإزالة كل غَضن، وبنزعه الإنسان القديم ، وإلباسها الإنسان الجديد . وهذا ما أراد أن يقوله بولس الرسول: «إن المسيح أراد أن يقتني لنفسه عروساً نقية لا دنس فيها ولا وسخ»،فلم يكتف بأن يعيد لها جمالها ، بل أعاد لها شباباً وجمالاً ليكونا زينة النفس لا الجسد . والأعجب من هذا أيضاً هو أن هذا العريس لم يَثنِهِ عن حب هذه العروس لا قبحها ولا هرمها ، ولا قذارتها ، بل بذل لها حياته ليعيد لها جمالاً جديداً . بل الأعجب أنه مازال يحتفظ بها على الرغم

من كل قبائحها وعيوبها . بل حين يكون أبعد من أن يطرحها خارجاً نراه يستعمل كل وسيلة لشفائها وإصلاحها وتجديدها . فكم هو عدد الذين وقعوا في الخطيئة فعلاً بعد اعتناقهم الدين المسيحي؟ ومع هذا فإن السيد لا يطرحهم خارجاً.

ألا تتذكرون قصة ما جرى في كورنثوس؟ أعني قصة ذلك العضو من اعضاء الكنيسة الذي تدنس بالزنا. تدنس ولكن لم يُقطع من جسد الكنيسة ، بل عولج شيئاً فشيئاً حتى تعافى . وكنيسة الغلاطيين ضلت، بكاملها، الطريق القويم وتهودّت (مالت الى اليهودية)، ولم تُرفضْ ولم يُستغنَ عنها من أجل هذا، والسبب أنْ بولس اجتهد وسعه حتى يقتادها الى الطريق السوي . واعتبر بما نتصرف به تجاه الجسد. إذا أصاب المرض جزءاً منه، فإننا لا نبادر فوراً الى قطع ذلك الجزء، بل نحاول فقط أن نرد إليه العافية. وهذا ما يجب أن تفعله مع امرأتك. إذا كان فيها عيب تنكره عليها فليس يقتضي الأمر صرفها وتطليقها، بل معالجتها.

إننا نستطيع تقويم الخطأ . وأما العضو المريض فلا نستطيع شفاءه ، ومع هذا لا نقطعه من جسمنا حتى في هذه الحالة . وكثيراً ما يحدث أن يكون أحدنا مكسور الرجل ، وذا يد يابسة أو ميتة ، وذا عين لا تبصر ، ومع هذا فلا يعمد الى نزع عينه ، أو قطع يده ، أو قطع رجله أو ساقه . وعلى الرغم من عدم فائدة هذه الأعضاء ، وتشويهها الجسم كله ، يحتفظ بها نظراً الى ارتباطها بباقي أعضاء الجسد . فهل يعقل أن نثبت على الأمل بقوة ، حيث لا أمل بالشفاء ، ولا علاج للعضو ، ونقطع الأمل من المعالجة والشفاء حيث يكون لنا أكبر الأمل ، وأوفر الحظ بالنجاح ؟

فعندما تكون الطبيعة هي التي حرمتك من عضو ، ولا يعود ممكناً استعماله أو الاستفادة منه ، ترضى بذلك الواقع وتقبله ، ولكن عندما يكون هناك اعوجاج خلقي ، يتطلب ، لتقويمه ، إرادة صالحة وحازمة فقط ، ويمكنك بالتالي أن تقوِّم هذا الاعوجاج، فلا ترضى بذلك! حتى ولو أنك ادعيت بأن امرأتك ذات داء لا شفاء له ، وأنها بقيت على عيبها بالرغم من الجهود التي بذلتها معها ، فإن هذا لا

يعطيك الحق في فصلها عنك. ما دام العضو الغير القابل للشفاء لا يقطع من الجسم، فإن امرأتك هي عضو من جسدك: «ويصير الأثنان جسداً واحداً».

إذا مرض جسدك وتبين لك أنه لا شفاء له فإن كل جهودك في معالجته تذهب سدى ولا فائدة لك منها. ولكن على عكس هذا فإن كل ما تبذله من جهود وأتعاب لإصلاح امرأتك، ولو كانت غير قابلة الإصلاح، فإنه لا يذهب سدىً وبدون مكافأة، لأن الله يكافئك بغزارة على صبرك في طاعته، واحتمالك دون تذمر ودون غيظ معايب امرأتك، وعلى عدم قطعك ذلك العضو من جسدك.

ذلك لأن امرأتك هي، بالنسبة إليك، عضو لا يفصل، وأنه لأجل هذا بالضبط يجب أن تحبها. وهذا هو أيضاً ما يعلمنا إياه القديس بولس الرسول حيث يقول: «فيجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم، لأنه ما من أحد يبغض جسده قط، بل يغذيه ويربيه كما يعامل المسيح الكنيسة، لأننا نحن أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه» (أفس ٥ :٢٨ - ٣٠). ثم يقول كما أن حواء خرجت من جنب آدم، هكذا نحن خرجنا من جنب المسيح: «نحن لحم من لحمه، وعظم من عظامه». وخروج حواء من جنب آدم أمر معلوم لدى الجميع، والكتاب المقدس يخبرنا عنه بصورة واضحة إذ يقول: إن الله ألقى على آدم سبات نوم، وأستل إحدى أضلاعه، وصنع منها المرأة. أما الكنيسة فكيف ومتى خرجت من جنب المسيح؟ وأين نجد خبر صنعها؟ أجل إننا نجد ذلك في هذه العبارة من الإنجيل المقدس، بعد أن علق المسيح على الصليب ومات: «وإن واحداً من الجند اقترب منه، وطعن جنبه بحربة، وللوقت خرج من جنبه دم وماء.» (يو ١٩ : ٢٤). فمن هذا الماء، ومن هذا الدم، صنعت الكنيسة. وهذا الشاهد يقول هو لنا: «من لم يولد من الماء والروح لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات» (يو ٣ : ٥). فبالروح يعني الدم. بماء المعمودية نولد، وبدم المسيح نتغذى. أرأيت الآن كيف أننا لحم من لحمه، وعظم من عظامه؟ لأننا من الماء الطاهر والدم الكريم نولد ونغتذي. وكما أنه في أثناء نوم آدم صنعت المرأة، هكذا ففي أثناء رقاد المسيح الأخير، أُخذت الكنيسة من جنبه.

ولا ينبغي للإنسان أن يحب امرأته لأنها عضو من جسده ، وقطعة من كيانه فقط ، بل ولأن الله يسن لنا ناموساً وواجباً حيث يقول : « لأجل هذا يترك الإنسان أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، فيصير الاثنان جسداً واحداً » (تكو ٢ : ٢٤).

وإذا كان القديس بولس يذكرنا هنا بهذا الناموس ، فلكي يقتادنا من جميع الطرق الى هذه المحبة .

واعجبْ هنا حقيقة بحكمة هذا الرسول : إنه لا يقتاد الرجال الى محبة نسائهم بالناموس الإلهي وحده ولا بالناموس الطبيعي وحده ، بل بكلا الناموسين معاً ،بحيث يجد ذوو العقول الراقية، في الناموس الإلهي الروحي سبب محبة نسائهم ، كما يجد العاديون هذا السبب في الناموس الطبيعي البشري .

إن الرسول يبدأ بمثل المسيح : «أحب امرأتك كما أحب المسيح الكنيسة».ثم ينتقل الى الأسباب الطبيعية : «على الرجال أن يحبوا نساءَهم كأجسادهم». ثم يستند من جديد الى مثال المسيح : «لأننا نحن أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه». ثم يعود ثانية الى الأسباب الطبيعية : «لأجل ذلك يترك الإنسان أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً». وبعد أن يذكر بهذا الناموس يضيف قائلاً : «إن هذا السر لعظيم هو». أي سر هذا؟ هلاّ قلته لنا أيها الرسول! أليس من قبيل السر العجيب أن الفتاة التي تكون، الى عهد الزواج ، موجودة في بيت أهلها، تبدأ في يوم واحد، تحن الى رجل لم تره قبلاً، وتحبه كما تحب جسدها؟ أو ليس أيضاً من قبيل السر العجيب أن الرجل يتعلق في يوم واحد، بحب فتاة لم يكن قد رآها من قبل، ولم تكن تربط بينه وبينها أية علاقة، وإذا به يفضلها حالاً، على كل الناس؛ على جميع أصدقائه وأقربائه حتى وعلى أبويه؟ . أوليس أيضاً من قبيل السر أن الوالدين اللذين، إذا انتزع أحد الناس لهم مالاً ، ينتفون شعورهم وينتحبون، ويجرون الى المحكمة الذي سرقهم مالهم ، أليس من قبيل السر أن نراهم في الزواج، يعطون الى رجل لم يروه قط، ابنتهم الغالية ويعطونه معها قسماً كبيراً من ثروتهم مهراً؟ أوليس من الغريب أنهم ، إذ يكونون أبعد من أن يجدوا ، في هذه العطية خسارة ، يغمر الفرح قلوبهم . وحينما يرون

ابنتهم خارجة من بيتهم ، فإن ذكرى وجودها عندهم لا يوقفهم ، لحظة واحدة ، عن القبول بخروجها من بيتهم ، وبدلاً من أن ينتحبوا وينتفوا شعورهم ، تراهم يجزلون الشكر لله ، ويعتبرون ذهاب ابنتهم ومالهم بركة من بركات السماء؟! .

فتأمل بما رأى القديس بولس هنا . لقد رأى هذين المخلوقين يترك كل منهما أباه وأمه ليتحد الواحد منهما بالآخر بأوثق الروابط وأمتنها . رأى الماضي الطويل يذوي ويمحي ويختفي في تلك الساعة ، ساعة الزواج ، فتيقن أن هناك شيئاً يتجاوز حدود التصور ، وأن الله وحده قد استطاع أن يغرس في أعماق القلب البشري مثل هذه النوازع والانجذابات القادرة أن تجعله يقبل بفرح مثل هذا الهجران للأهل والأقرباء ومثل هذه التضحية . وهذا ما أدركه الرسول وما جعله يهتف : « إن هذا السر لعظيم».

فكما أن الطفل ، قبل أن يحسن النطق ، يتعرف حالاً الى أبويه من مجرد نظره إليهما ، هكذا نجد أن العروسين تكفيهما نظرة واحدة تتلاقى بها أعينهما حتى يتحد الواحد منهما بالآخر من غير أن يدفعهما أحد الى مثل هذا الاتحاد .

وهذا ما رآه القديس بولس حاصلاً تماماً بين المسيح والكنيسة ، فوجد فيه ما أغرقه في الدهشة والعَجب! فما الذي جرى بين المسيح وكنيسته ؟ فكما أن الرجل يترك أباه وأمه ، هكذا ترك المسيح عرش أبيه ليلتصق بكنيسته ، ولم ندعه نحن إلينا ، بل هو الذي تنازل نحونا . وحين نقول أنه ترك عرش أبيه ، فلا يجب أن نفهم من ذلك أنه ترك ألوهيته ، بل الألوهية هي التي نزلت نحونا. لأنه مع كونه معنا ، كان مع أبيه ولأجل هذا السبب أيضاً قال القديس بولس : «إن هذا السر لعظيم».

إنه سر عظيم من وجهة النظر الطبيعية البسيطة . أما من وجهة النظر الى المسيح وكنيسته فإن هذا السر يغرقنا في بحر من الدهشة والعجب . ولهذا ، فبعد أن قال القديس بولس : «إن هذا السر لعظيم » ، أضاف قائلاً : «وأنا أقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة » .

أما الآن ، وقد عرفتم عظمة السر الذي في الزواج ، وعرفتم ذلك الإتحاد

السامي الذي يخلقه بين الزوجين ، فعليكم أن تقدروه قدره ، وألا تنظروا إليه كمعاملة مادية مالية ، فالزواج ليس تجارة بيع وشراء ، بل هو تجارة حياة .

ولَكَمْ سمعت من الناس من يقولون: إن فلاناً كان فقيراً فصيرَّه الزواج غنياً . لقد تزوج من امرأة غنية ، فهو الآن ينعم بالغنى ورَغَد العيش ! ماذا تقول أيها الجاهل؟ أوَ هل تريد أن يكون لك الزواج مهنة يدر عليك مالاً؟ أو نست تخجل؟ أوَ تبلغ القحة والجهل بك الى حد تصريحك بمثل هذا الشيء؟ أوَلا يكون باطن الأرض أحب إليك من ظاهرها لمجرد تفكيرك مثل هذا التفكير، بمثل هذه التجارة المخزية؟ هل يمكن أن يفتكر بكلامك أنه كلام رجل؟

إن الدور الوحيد الذي تقوم به المرأة هو محافظتها على المال الذي أتاها من أبويها ، وفي حين استعمال عائدات البيت ، والإهتمام بشؤون هذا البيت وواجباته. لأجل هذا السبب أعطاها الله للإنسان. ومن أجل هذه الأمور وما شابهها جعلها الله للرجل عوناً وسنداً.

يتقاسم حياتنا نوعان من الأعمال : الأعمال العامة ، والأعمال المنزلية . وقد أعطى الله لكلٍ من الرجل والمرأة نوعاً من الأعمال : فجعل المرأة على الأعمال البيتية ، والرجل على الأعمال العامة . أعمال الرجل في السوق ، وفي المحاكم ، والمجالس والجيش. وإذا كانت المرأة لا تحسن حمل الرمح والسيف ، فإنها تستطيع النسج والحياكة وتتميم الأعمال البيتية كلها . وإذا لم يكن لها صوت في مجلس الشيوخ فإن لها رأيها في المنزل . والمرأة ، في شؤونها المنزلية ، أكثر فهماً واتفاقاً من الرجل في شؤونه الخارجية . وهي مؤهلة أن تربي الأولاد تربية حسنة ، والأولاد هم عماد الأسرة . وتعرف أن تسيطر على الخدام وتراقب تصرفهم ، وتزيل الهم عن قلب زوجها وتريحه من كل اهتمام بشؤون المنزل من مؤونة وكسوة وطعام وسائر الأشغال التي لو كلف بها الرجل لوجد فيها صعوبة كبرى .

وفي هذا أيضاً يظهر لطف الحكمة الإلهية في إقامة الرجل على الأعمال الكبيرة ، وهو في عدم تفرغه وقابليته للأعمال الصغيرة ، وفي جعله دور المرأة لا بد منه في كل ناحية من نواحي ضرورات الحياة والوجود .

ذلك أن العناية الإلهية ، لو أنها جعلت من الجهة الواحدة ، الرجل

قادراً على القيام بكلا الدورين لكانت انزلت المرأة منزلة الانحطاط. ولو أنها، من الجهة الأخرى، أسندت الى المرأة الأعمال الهامة مثل الرجل، لكانت قد خلقت عندها تباهياً لا حد له. فانظر السبب الذي من أجله لم يجمع الله الدورين في الرجل وحده، حتى لا ينتقص من المرأة. ولم يجعلهما كليهما في مساواة الدور والواجب حتى لا يكون بينهما تنازع واختصام، وحتى لا تسابق المرأة الرجل على التقدم...

... وبما أننا نعرف كل هذه الحقائق، فلا نطلب في الزواج سوى شيء واحد، أعني فضائل النفس، والصفات الأخلاقية، حتى يسود السلام في بيوتنا، ونقضي فيها حياتنا في وحدة تامة، وحدة في الأخطار والعواصف...

... فإذا كنا نبتغي السعادة، فلا نلتمس الثروة. لنطلب أولاً وقبل كل شيء السلام. ولم يكن الزواج ليملأ البيت مشاجرات ومخاصمات وقتالاً وإشتباكات. ولم يكن الزواج ليقيم في البيت حزبين متناظرين، وليجعل حياتنا لا تطاق، بل إنما جعل الزواج ليكون لنا عوناً على الحياة، وليكون لنا ميناء ضد العواصف، وملجأ في الأعاصير، وتعزية في الآلام. جُعل الزواج ليعطينا السعادة في امرأة.

كم من الأغنياء، بعد زواجهم من نساءٍ أكثر غنى منهم، وبعد مضاعفة ثرواتهم، أضاعوا، في يوم زواجهم هدوءهم وسعادتهم، وجعلوا من موائدهم معتركات، وانقلبت أيامهم خصومات وحروباً متواصلة! وعلى العكس من ذلك كم من فقراء عقدوا زيجات على نساء أشد فقراً، استمروا ينعمون بالسلام مع زوجاتهم ويتذوقون طعم السعادة في دفء نعمة الله، في حين أن جيرانهم الأغنياء، وهم في وسط الثراء والفخفخة، يلعنون الساعة التي اقترنوا بها بنسائهم، ويتمنون لأنفسهم الموت، حتى ينعتقوا من شقاء الحياة الحاضرة! أجل هذا هو باطل الغنى عندما لا يكون المرء قد ضمن فضائل امرأته وحسن صفاتها.

ولكن لماذا التكلم عن السلام والاتفاق عندما نرى غالباً، حتى من ناحية المال نفسه، الذين اتخذوا امرأة لأجل غناها، لم يجنوا منها سوى الضياع الكامل لثروتهم؟ فغالباً يكونون قد ضحوا للمهر كل مالهم، ثم يغشاهم الموت فجأة،

ويجب أن يتركوا كل هذا المهر لأسرة الزوجة ، ويضيعوا ، مع المهر ، كل المال الذي خصصوه. وكما أنه في حال الغرق ، لا يكاد الإنسان يخلص جسده ، بعد ألف جهد ، وبعد أن يكون قد فقد كل شيء يحمله ، كذلك الحال في مثل هذا الزواج . لا يكاد الإنسان ينجو بحريته بعد أن جهد ، وبعد أن يكون قد قضى حياة خصومات ومصارعات وسباب وشتائم ودعاوى ، وبعد أن يكون قد خسر ثروته وهدوءه وسعادته .

وبصورة ثانية ، كما أن التجار الطماعين الجشعين يُستدرَجون الى خسارة كل شحنتهم مع خسارة مركبهم أيضاً ، لأنهم اثقلوا ، بغير حساب وتقدير ، مركبهم بالبضائع التي ينوء بها ، كذلك هؤلاء المحاسبون الجشعون الذين يجدون في الزواج تكديساً كبيراً للأموال ، ولا يرون في المرأة سوى مضاعفة الثروة ، يخسرون في يوم واحد وبنفس الوقت ثروتهم الخاصة ، ومال نسائهم .

فلا نفحص إذن في اختيار الزوجة ، عن أموالها ، بل عن أخلاقها . هل هي لطيفة وديعة ؟ هل هي أهل للزواج ؟ هل هي حكيمة ؟ ورب امرأة حكيمة لطيفة متزنة في تصرفها وكلامها ، يمكن أن تكون فقيرة تنتج من الأعمال في فقرها أكثر مما تنتجه أخرى في غناها ، في حين نجد امرأة مخاصمة بدون اتزان وبغير حشمة ، يمكن أن يكون لها كل غنى العالم ، تكنس هذا الغنى أسرع مما تكنس الريح الغبار ، وتسرع في إغراق زوجها في الفقر وفي الشقاء .

فلا نفتش إذن عن امرأة ذات مال ، بل عن إمرأة تعرف أن تستعمل هذا المال . ولنتساءل قبل كل شيء عن هدف الزواج ، ولنتذكر لماذا رتب لنا الله الزواج ، ولا نسأل عن أي شيء آخر . ما هو هدف الزواج ؟ لماذا أعطانا الله الزواج ؟ إن القديس بولس يقول لنا : « فليكن لكل رجل امرأة لكي تجتنبوا الزنا». لا يقول «لكي تجتنبوا الفقر» أو «لكي تحصلوا على الثروة» بل «لكي تجتنبوا الزنا». لكي نرضي شهوة الجنس ، لكي نرضي الشهوات الطبيعية، ولكي نرضي الله في اقتصار المتزوجين كل على امرأته.

انظروا فيما يجلب لنا الزواج . هذه هي ثماره ومنافعه . فلا نهمل إذن ما هو ثمين فيه في سبيل الأقل أهمية . الفضيلة هي كنز أين منه كنز الثروة ؟ ! عندما يتخذ أحدنا امرأة ، فالهدف الأول والعام من هذا الزواج يجب أن يكون اجتناب الخطيئة وحفظ النفس من الزنا . الزواج يجب أن يساعدنا على تلطيف حواسنا ، وسيكون كذلك عندما نحسن اختيار المرأة التقية الحكيمة الصالحة للزواج .

إن الجمال بغير فضيلة يمكن أن يجذب الرجل مدة عشرين الى ثلاثين يوماً ، ولكن جذبه لا يذهب أبعد من هذا المدى ومن ثم ،وتحت تأثير تراكم العيوب يفقد الجذب فعله ويسقط . أما جمال النفس ، فعلى العكس من ذلك ، ليس عليه خوف من مد الزمن . وكلما وقف المرء على مقدار فضائل المرأة كلما ازداد تعلقه بها ، وكلما ازدادت حرارة المحبة لها . وعلى هذا النحو إذا توطدت بين الإثنين محبة رصينة وعميقة فلا يمر بينهما حتى خاطر الطلاق الفاسد ، ولا حتى فكرة الطلاق نفسها تطرق فكر من يحب امرأته حقيقةً ، ويحيطها دائماً بعطفه وحنوه ، ويجتذب ، بأمانته نِعَم السماء وبركاتها على بيته .

ولنتأمل في كيف كانت الروابط تقوم قديماً بين آباء العهد القديم ،لنرى أنهم كانوا يفتشون في الزواج عن الفضيلة لا عن الغنى . وإليكم المثال الواحد من تلك الأمثلة ليعطينا الدليل على ما نقول :

« وكان ابراهيم قد شاخ وتقدم في الأيام فدعا أكبر خدامه والمتقدم فيهم وقال له : ضع يدك تحت فخذي ، واحلف لي بالرب إله السماء والأرض ألا تختار لولدي أسحق امرأة من الكنعانيين الذين نسكن بينهم ، بل اذهب الى البلاد التي ولدتُ فيها ، واذهب الى عشيرتي ، ومن هناك ستختار زوجة لولدي » (تك ٢٤ : ١ - ٤) . هلموا لنتأمل بحكمة هذا الأب البطريرك واهتمامه الكبير في أمر زواج ابنه . لا يكلف ، شأنَ أهل العصر الحاضر ، وسطاء السوء وزبانية الشبهة ،والعجائز المشعوذات ، بل يكلف خادمه الخاص. وهذا من أكبر البراهين على تقوى هذا البطريرك القديس الذي عرف أن يجعل من خادمه أهلاً لمثل هذه الثقة .

وليس يطلب بعد هذا ، لولده امرأة غنية ولا امرأة جميلة ، بل امرأة يكون أصلها العربون المؤكد لفضيلتها . ولأجل هذا فهو لا يتردد أن يكلف خادمه سفراً طويلاً بعيداً عن محل إقامته .

ولنتأمل من جهة ثانية ، كمال هذا الخادم ! فإننا لا نسمعه يقول (مثلاً) : بماذا انت تأمرني؟ كم من الشعوب حولك ، وكم من البنات عند رجال أغنياء ، وكم من أحساب وأنساب شريفة! وأنت ترسلني الى بلد بهذا البعد ، والى أناس لم تسبق لي بهم معرفة؟ الى من توجهني؟ الى من تعرفني؟ ماذا أفعل إذا نصبوا لي فخاخاً وإذا حاولوا أن يغشوني؟ ليس أهون عليك أن تأخذ أي شيء ما عدا ما لا تعرفه ، ومن لا تعرفه.

إنه لا يقيم أي مانع من مثل هذه الموانع أمامه ، وكل هذه الصعوبات لا يحسب لها حساب عنده . ولكن هناك مسألة تبدو له رئيسية ، لا بد له أن يقولها لسيده . والسؤال الذي يطرحه يشهد على ذكائه وحكمته . ما هي هذه المسألة ؟ ماذا يسأل سيده ؟ « قال له : إذا لم ترد المرأة أن تأتي معي هل يجب أن أذهب بابنك الى البلاد التي اتيت منها؟ احذر هذا ، أجابه ابراهيم . احذر أن تذهب بابني الى هناك. إن الرب إله السماء والأرض الذي جعلني أترك بيت أبي وأرض وطني حيث كنت اقيم ، والذي أقسم لي أن يعطيني هذه الأرض لي ولنسلي ، هو يرسل لك ملاكه ليقود خطواتك ويرافقك في سفرك».

يا له من ايمان! ان ابراهيم لا يعهد بهذا الامر الخطير الى اصدقائه ، ولا الى اقربائه ، ولا الى اي انسان ، بمرافقة خادمه. ان الله هو الذي يتولى حراسته ومرافقته بواسطة ملاكه في سفره. ولكي يدخل خادمه في شركة إيمانه ، لا يقول له على بسيط الحال: «إن السيد إله السماء والأرض» ، بل يضيف: «الذي أخرجني من بيت أبي» كأني به يريد أن يقول: «تذكر أي سفر طويل كان علينا أن نتكلف مشقاته! وتذكر كيف أننا بعد أن تركنا أرض أهلنا ، صادفنا في هذه الأرض الغريبة شعوباً أكثر منا ، وكيف أننا بالتالي رأينا ما كان مستحيلاً محققاً».

وحينما قال: « . . . الذي انتزعني من بيت أبي» ، لم يرد أن يظهر له قدرة الله ، بل تعهد الله والتزامه ـ إذا جاز القول ـ أمام ابراهيم. فكأنه يريد أن يقول

له أن الله هو البادىء معنا بوعده لنا . هو نفسه الذي قال لي: «سأعطيك هذه الأرض ، لك ولنسلك من بعدك» . فعلى أبسط الاحتمال إننا لو لم نكن مستحقيها ، فمن أجل كلامه ، ومن أجل إتمام وعده ، يجب أن يكون معنا ، وأن يسهل مهمتنا وأن يحسن مآلنا.

على هذه الكلمات يطلق خادمه في سفره . وحين وصل الخادم بدوره الى تلك الأرض البعيدة لا نراه ينزل عند أحد من سكان المدينة ، ولا يتعاطى مع رجالها بشيء ، ولا يسأل النساء. بل كانسان ثابت على إيمان سيده ، يتوجه الى رفيق سفره الوحيد الذي أعطاه إياه الله . إليه وحده يتوجه وانتصب واقفاً وناجاه قائلاً: «يا رب يا إله سيدي ابراهيم انت وجّه اليوم خطواتي».

ولنلاحظ انه لا يقول يا رب يا إلهي ، بل «يا إله سيدي إبراهيم» كأنه يريد أن يقول: «انا لست شيئاً، أنا لست سوى خادم فقير. وإنما أنا أتذرع بسيدي. ليس من أجلي أنا ، من أجله اتيت إلى هنا لأكمل هذه المهمة ، واعتباراً لفضيلته ، تكرم أللهم بمساعدتي على إنجازها».

ثم أنه لكي يبرهن أنه لا يعتبر مساعدة الله كشيء متوجب يضيف قائلاً : « وأشفق اللهم على سيدي إبراهيم » كما لو كان يقول : « ولو كان لنا ألوف من الاستحقاقات ، فإنما نرجو الخير من فضلك ، ومن صلاحك نتوقع الحسنة ، لا دين لنا عندك ، ولا واجب لنا عليك » . وما هي صلاته ؟ قال: «ولما وقفتُ على تلك العين ، إذا بنات المدينة خرجن لاستقاء الماء قلت في نفسي : إن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك حتى أشرب ، فتقول اشرب ، وأنا أسقي جمالك أيضاً ، تكون هي التي عينتها لعبدك أسحق ، وبها أعلم أنك صنعت رحمة الى مولاي».

لاحظوا حكمة الخادم في العلامة التي اختارها : إنه لم يقل « الفتاة التي أراها في عربة تجرها الجياد ووراءها حاشية من الخصيان ، وتحيطها طائفة من الخدام ، في باهر جمالها ، وعنفوان صباها ، تلك ستكون نصيب سيده أسحق» ، كلا ، بل «ان التي أقول لها أميلي جرتك حتى أشرب».

ـ ماذا انت فاعل يا هذا؟ أفي هذا تفتش عن زوجة لسيدك: امراة عادية

تجيء لتستقي ماء، ولا تتردد ولا تتوقف في أن ترد عليك الجواب وتتحدث معك؟

ـ بدون شك . إنه لم يبعثني لأفتش له عن امرأةٍ غنى ومجد، بل عن امرأة فضيلة. فكثيراً ما نرى في مثل مستقيات الماء أمثلة فضيلة ، في حين نجد في النساء المتراخيات النائمات على الغنى والثروة ممتلئات من المعايب والرذائل؟

ـ وهلا قلت لنا فيمَ عرفت فضيلتها؟

ـ في العلامة التي ذكرتها .

ـ وأية علامة ؟ رجوتك أن تقول لي .

ـ علامة باهرة لا يتطرق إليها الشك : أعني فضيلة الضيافة . وهذه العلامة تكفيني. وسيكون منها البرهان الذي يلزم للدلالة على الفضيلة. والفتاة التي تكون لها هذه الفضيلة، الى حد أنها لا ترفض أية خدمة، هي المثال الذي أفتش عليه. تلك كانت أفكار وخواطر ذلك الخادم الطيب، إذا لم تكن عباراته بالذات.

ولا يطلب الخادم الطيب في الفتاة فضيلة الضيافة بغير أسباب جوهرية. فهذه الفضيلة كانت خصوصاً من أكبر الفضائل في البيت الذي نشأ فيه. وكان عليه قبل كل شيء، أن يجد امرأة متشربة بذات المشاعر التي عند سادته. وكأني به أيضاً يقول : «إني سأدخلها الى بيت مفتوح دائماً للمسافرين، ولا أريد أن يكون عندها مغايرة لهذه الضيافة أو خلاف فيها، فيكون ابن سيده منفتحاً لضيوفه وكريماً من جهة، ومن الجهة الأخرى تكون امرأته بخيلة تتعرض لأضيافه وأصحابه، كما يحدث غالباً في كثير من البيوت.

ولهذا فأريد أن أعرف قبل كل شيء ، إذا كانت لها الفضيلة ذاتها.

لأنه من هذه الفضيلة ينبع لنا خير كثير ، كما أنا متأكد . ففضيلة الضيافة هي التي جَلَبَتْ لسيده ولداً في كبره. وهي التي أعطته أفراح الأبوة ، وبفضلها استطاع أن يضحي العجل المسمّن ، أن يأخذ ابنه بين يديه ، وأن يعجن طحين الذبيحة ، وأن يتلقى من الله الموعد بأن ذريته ستكون كنجوم السماء . هذه

الفضيلة هي التي كانت مصدر خيرات وبركات لبيتنا ،وهي التي أريد أن أفترض وجودها قبل كل شيء » .

ولنلاحظ أن العلامة الحقيقية لهذه الفضيلة ليست في أن نعطي من يطلب منا ماء ليشرب بل أن نعطيه أكثر مما يطلب .« وما كاد ينتهي من صلاته حتى رأى،كما يقول الكتاب ،رفقة خارجة من المدينة » ، متحققاً في ذلك قول الكتاب في كلام أشعياء النبي:«حينئذ تدعو فيستجيب الرب ، وتستغيث فيقول ها أنذا » (أشع ٥٨ : ٩) .تلك هي صلاة القديسين. لا يكادون يفرغون من الطلب حتى يشعروا بأن الله قد حقق طلبهم .

وإذن فأنتم أيضاً يا طلاب الزواج لا تعتمدوا في طلبكم على البشر ، ولا تعتمدوا على النساء اللواتي إهن تعاسة الآخرين، واللواتي لا يفتشن إلا على ملء جيوبهن . توجهوا الى الله ، واعتمدوا على الرب فهو لا يستخف بطلبكم ولا يتوانى عن عونكم. وقد وعدكم هو نفسه قائلاً: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذا كله يزاد لكم» (متى ٦ : ٣٣) .

ولا تقل لي يا هذا : كيف أتوجه الى الله وأطلب منه ؟ كيف أستطيع أن أراه ، وأن أتكلم معه ، وأن أتحادث معه وأفاوضه ؟. هذا كلام من ينقصه الإيمان . لأن الله يستطيع ، فوراً ومن غير أن يسمعك صوته ، أن ينيلك ما يريد ، كما فعل في مثل هذه الحالة التي نحن بصددها . « لم يكد ينهي صلاته حتى أبصر رفقة خارجة من المدينة ، وهي ابنة بتوئيل بن ناحور الذي ولدته له ملكة . والفتاة كانت تحمل جرتها على كتفها وكانت جميلة جداً. وكانت بكراً لم يعرفها رجل». لماذا تكلمنا عن جمالها يا هذا؟ ذلك لكي أخرج لكم جيداً صورة عن طهارتها وجمال نفسها. الطهارة هي شيء يستحق الإعجاب ، ولكنها اذا اقترنت بالجمال ، فإنما تستحق الإعجاب أكثر. ولهذا ، فإن الكتاب المقدس ، لكي يصور لنا عفة يوسف جيداً ، يعلمنا قبلاً أنه كان جميلاً جداً: «كان وجهه جميلاً جداً وكان في عنفوان جماله». وهكذا يحدثنا الكتاب عن طهارتها حتى يظهر لنا أن جمالها لم يمنعها من البقاء على عفتها.

فالجمال تبعاً لهذا ، ليس من شأنه أن يحمل على الزنا ، كما أنه ليس من شأن الشناعة أن تحمل على العفة . بل وكم من النساء أعطين الى عذريتهن ، وهن في زهرة جمالهن ، بهاءً وهيبةً ! وكم من النساء على العكس من هذا ، بغير حسن وجاذبية ، عشن في الخطيئة وأضفن الى بشاعة الجسد بشاعة النفس ، والى قباحة منظرهن عار الزنا والفجور . فالرذيلة والفضيلة لا تتوقفان على جمال الجسد ، بل على إرادة النفس .

وليس لغير سبب أن الكتاب المقدس يدعو رفقة عذراء مرتين . فبعد أن قال: «وكانت العذراء جميلة». عاد فذكر، فعلاً، في موضع آخر : «وكانت الفتاة عذراء لم تعرف رجلاً».

وفي الواقع ، هناك كثير من الفتيات قد حفظن ،و الى حد ما ، عذرية الجسد ، ولكنهن قد فقدن عذرية النفس ، ومسلكهن ليس فيه شيء من التهذيب ، يقضين أيامهن في الظهور خارج البيت، يسعين الى كل جهة في اجتذاب العاشقين، يحاولن أن يثرن أنظار الشبان، وأن ينصبن لهم الفخاخ ، وأن يقدنهم الى حافة الهاوية . ولكي يعلمنا الكتاب أن رفقة لم تكن من هذا النوع ، وأنها كانت تجمع بين بتولية النفس وبتولية الجسد، يقول لنا: «إنها كانت عذراء لم يكن لأي رجل علاقة معها».

ومع هذا، فلم تكن تنقصها لا الأسباب ولا المناسبات. كانت تتمتع قبل كل شيء بجمالها. ثم أن أشغالها لم تكن تمسكها في البيت. ولو أنها كانت مثل فتيات هذه الأيام، ودائما في راحتها، لا تنزل الى السوق، ولا تشارك في الحياة العامة، ولو أنها لم تكن تترك بيت أبيها الى الخارج، لما كان من عظيم المديح لها أن يقال عنها إنها لم يكن لأي رجل علاقة معها. ولكن عندما نراها كل يوم تخرج من بيتها الى الساحة، وتذهب الى العين لتستقي لا مرة ولا مرتين بل مراراً ، وتبقى رغم هذا كله بدون علاقة مع الجنس الآخر، فهذا ما يجعلنا نقول إنه ليس مديحاً بسيطاً مثل هذا المديح.

إذا رأينا، في أكثر من واقعة، أن فتاة قد تكون بغير جمال ولا جاذبية، تصحبها الخوادم العديدات، في ظهور نادر، الى الأماكن العامة ، فتلقى هناك

دمار فضيلتها في مرة واحدة، فكيف لا يدهشنا أن نرى فتاة تخرج، كل يوم، وحدها من بيت أبيها وتذهب لتستقي ماء من العين العامة حيث تستطيع أن تنشيء علائق وكل نوع من الملاقيات، وتبقى مع كل هذا التردد الدائم، ومع كل جمالها وفتنتها ورغم اختلاط الذاهبين والعائدين من غير تغير أو تبدل في حالها مطلقاً، كما تبقى مطلقاً طاهرة نفساً وجسداً وتحفظ عذريتها خيراً من بنات الخدور وتطبق بالضبط كل الشروط التي يطلبها القديس بولس: «لكي تكون قديسة نفساً وجسداً» (١ كور ٧: ٣٤).

ويتابع الكتاب المقدس قائلاً: نزلت الفتاة «الى العين وملأت جرتها وصعدت». وعندئذ يسرع الخادم الطيب ويقول لها: «أعطني قليلاً من الماء لأشرب» - بطيبة خاطر يا سيد - أجابت الفتاة. وأسرعت وأنزلت جرتها على كتفها وسقته. ثم قالت «أستقي لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب»، وأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة، وأسرعت أيضاً الى البئر لتستقي، فاستقت لجميع جماله.

يا لها من أمثولة في البذل العاجل مع التحفظ! أمثولة تقدمها لنا رفقة في أفعالها كما في أقوالها! لأنك في هذه الحال لا تجد التحفظ يسيء الى العجلة، ولا العجلة تضر بالتحفظ. فليست هي التي تبادر أولاً، وتتوجه الى الرجل بالكلام، وهنا ترى تحفظها. ولكن عندما طُلبت منها الخدمة وعمل المعروف، فلا نراها ترفض أو تتردد بل نرى كرمها ومروءتها.

فلو أنها أسرعت هي أولاً وبادرت الرجل بالكلام، لجاز لك أن تؤاخذها على التسرع والجرأة. ولو أنها رفضت أن تقبل الطلب، لنَسَبْتها الى القساوة وقلة الانسانية. فقد عرفت أن تجتنب هذين المأخذين. تحفظها لم يمنعها من أن تضاعف عطاءها، وعطاؤها لم يعب كمال تحفظها. فقد حوت هاتين الفضيلتين في أتم كمالهما: أن تظهر تحفظها كفتاة منتظرة أن يطلب اليها العطاء، وأن تجيب على الطلب بالبذل العاجل السريع.

وليس المهم أن يكون العطاء عطاء ماء أم غيره. الإحسان لا يقاس بقيمة

العطية بل بأسلوب العطاء . وإن الله لن يُغفل أجر من أحسن بشربة ماء بارد فقط . ومدح عطاء فلسي الأرملة أكثر من جميع التقادم ، لأنها اعطت كل ما عندها. وهنا قدَّمت الفتاة الى الخادم كل ما كان يمكنها أن تقدمه .

ولا تحسب أن الكتاب المقدس يذكر لنا بغير سبب اهتمامها وإسراعها بالعطاء ، وكل هذه التفاصيل المثيرة الاهتمام . وهذا إنما كان بقصد إظهار صدور فعلها عن قلب طيب . لا شيء يجبرها ولا شيء يلزمها كما أنه لا شيء يتعبها ويكلفها كثيراً . ولا تقل إن هذا شيء قليل الأهمية . فكم من مرة طلبنا من أحد المارة أن يتوقف لحظة ويعيرنا مصباحه لنوقد مصباحنا ، أو أن يعطينا قليلاً من الماء لنشرب ،فنقابل بالرفض، إذا لم أقل بالشتم أيضاً!

وهنا ، فإن الفتاة لا تحني جرتها فقط للخادم ليروي عطشه ، بل تتكلف بسقاية كل جماله غير متراجعة أمام عناء أكثر . وبكلمة واحدة ، قد أتمت كل واجبها في الإحسان بكل طيبة خاطر ، لأن فضيلتها لا تلمع بالخدمة التي تقدمها فقط ، بل بالمروءة التي تقدّم بها هذه الخدمة أيضاً .

تدعو بـ « يا سيد » رجلاً لم تكن تعرفه ، ولم تكن قد رأته إلا للمرة الأولى . وكما أن ابراهيم حين كان يقوم بواجب الضيافة ، لم يكن يسأل أضيافة: « ، من أنتم؟ ومن أين أنتم ؟ ، ومن أية عشيرة أنتم ؟، ومن أين قدمتم ؟ » ،بل كان يكتفي بأن يتمم واجبه ، كذلك كنته المستقبلة لا تقول للخادم: «من أنت؟ وما هي عائلتك؟ وما حاجتك عندنا؟» ، بل إنها تقوم بواجب الضيافة ولا تهتم بغير ذلك.

إن تجار اللآلىء والذهب لا يهتمون إلا بشيء واحد أن يقوموا بتجارة حسنة ، ولا يهتمون لحال الشاري وصفته . وهكذا الحال حال هذه الفتاة . تعرف أن عليها أن تمارس فضيلة ولا يهمها إلا أن يكون لها كل استحقاقات الفضيلة .

كانت ،تفهم بعد هذا، أن ذلك الغريب كان متحفظاً ، وأن ما يطلبه زيادةً على ذلك هو حسن ضيافة ، وتكرم لا يثقل عليه . وإذا كنا نريد أن نضايقه

باسئلتنا ، ونطرح عليه فضولنا ، سيتهرب وسينغلق على ذاته ، ولا يقترب منا إلا بخوف. وهكذا هنا لكي لا تغير طريقه ، تعمل ، كما عمل ابراهيم الذي اكتفى بأن يقوم بواجب الضيافة من غير أن يوجه أسئلة مزعجة وبلا تمييز الى أضيافه ، ولم يكن يترقب من خدمته سوى الوعد بالمكافأة على فضيلته .

وانظر كيف استقبل في بعض الأيام ملائكة في بيته ولو أنه وجه إليهم أسئلة ، لكان استحقاقه أقل مما كان. لأن ما يثير إعجابنا هو أنه قَبِلَ في بيته أناساً لا يعرفهم وليس فقط أنه قبل الملائكة في بيته. ولو عرف من كان يستقبل لما تأثرنا كثيراً بأريحيته تلك ، لان كرامة ضيوفه تحرك المروءة في أقسى القلوب البعيدة عن الإنسانية . وأن ما يحرك شعورنا هو أنه قَبِلَ الملائكة بهذا الإكرام ، وهو لا يعلم إلا أنهم رجال عاديون وعابرو سبيل .

وهذا ما جرى مع كنته المستقبلة . لم تكن تعرف الى من تصنع المعروف ، ولم تكن تعلم مقصد الرجل من سفره ، أو أنه كان قادماً ليطلب يدها . ولم يكن في ذهنها إلا أن صنيعها كان مع مسافر عادي غريب . وهكذا فتكون فضيلتها واستحقاقها في أنها قدمت خدمة ، بمروءة وسخاء الى إنسان لم تكن تعرفه من قبل .

وكل هذا فعلته بتواضع وتحفظ مدهشين بغير جراءة ولا تسرع ، وفي لياقة كاملة . وهذا ما أراد الكتاب المقدس أن يظهره لنا عندما يقول : « وكان الخادم يتأملها بصمت لينظر هل أنجح الرب طلبه ، وختم قصد سفره». ماذا يعني : « كان يتأملها » ؟ كان يتفحص حركاتها وتصرفها ،ومشيتها ، ونظراتها ، وكلامها ، وبكلمة واحدة: كل شخصيتها ، لكي يمسك من حركات الجسد صفات النفس .

وعلى كل حال لم يرد أن يكتفي بالبرهان الواحد بل كان يريده برهاناً آخر على أخلاقها . عندما أعطته ليشرب قال لها أيضاً : « بنتُ من أنت ، قولي لي ، وهل يوجد مكان أنزل فيه في بيت أبيك ؟». وماذا تجيب الفتاة ؟ تعرِّفه بلطف ، وبغير تردد ، عن أبيها . ولا تجيبه بامتعاض مثلاً : « من أنت حتى تطلب مثل

هذه المعلومات ، وأن تطرح عليّ مثل هذه الأسئلة الغير الرصينة عن أهلي وبيتي؟». قالت له: «أنا ابنة بتوئيل ابن ملكة الذي ولدته لنا حور. ويوجد في بيتنا كثير من التبن والعلف، كما يوجد في بيتنا مكان لتنزل فيه».

وهنا أيضاً ، كما في موقفها من طلب الماء ، تعطي أكثر مما يطلب منها . قبل قليل ، لم يطلب منها الرجل إلا ليشرب هو، فأظهرت استعدادها الى أن تسقي جماله . والشيء نفسه يحدث هنا : الخادم يطلب مأوى لنفسه فقط ، فتقدم هي ، فوق هذا ،التبن والعلف ، ولا تزيد . فهي تدعوه وتقتاده الى بيت أهلها رغبة منها في أن يكون لها كل استحقاقات الضيافة الممكنة .

لا نعر أذننا الى هذه القصة كإلى شيء لا يخصنا ولا يتعلق بنا، بل فلندخل الى ذواتنا ولنقابل بين مسلكنا ومسلك هذه الفتاة ، حتى نرى الفرق بين فضيلتنا وفضيلتها. إذ قد يغلب على تصرفنا أن نستقبل، عابسين، أقرباءنا ومعارفنا، وإذا اتفق أن تطول إقامتهم يوماً أو يومين، تململنا من وجودهم. أما رفقة، فمع أنه كان عليها أن تؤدي خدمة إلى رجل غريب لم تكن تعرفه أبداً، كما فرحت في أن تستقبله. واذا شئت فقل إنها حملته حملاً على استضافة أهلها، ولم تتراجع أمام ثقل الخدمة له ولكل قافلته.

وها هو الخادم وقد حل ضيفاً عليهم ، فلنلاحظ الآن الحكمة التي يبديها . حين كانت رفقة تقدم له الطعام قال : « إني لن أذوق طعاماً قبل أن أحصل على ما أقوله ».لاحظوا كيف كان منشغل الفكر دائماً بواجبه . ولاحظوا احتقاره لكل شيء خارج هذا الواجب .

ثم يسمحون له بالكلام . ماذا عساه يقول ؟ هل ترى يقول أنه مولى لسيد وجيه عالي المنزلة يكرمه جميع الناس ، ويحتل المقام الأول في البلاد التي يسكنها ؟ كان بإمكانه أن يقول مثل هذا وبحق : تلك حقيقة ، فإن الناس كانوا يعتبرون إبراهيم كملك لهم . ولكن الخادم لا يقول شيئاً من هذا . لم يقل إلا ما هو حسن في عيني الرب ، مهملاً ما يمكن أن يظهر حسناً في أعين البشر .

قال : « أنا خادم لإبراهيم . والرب قد بارك مولاي جداً فعظُم .ورزقه غنماً وبقراً وفضة وذهباً» .وإذا كان قد قدم بالذكر مقتنياته ، فلم يفعل لكي يعرض غنى سيده بل لكي يظهر تقواه . وإذا امتدح سيده ، فليس ذلك لكي يخبرنا أنه غني بل لكي يقول أن الله هو الذي أعطاه كل ما أعطاه مكافأة على فضائله .

ثم يتكلم عن عريس المستقبل فيقول : « إن سارة امرأة سيدي ولدت ابناً لمولاي بعد أن شاخت» .وهنا أيضاً فإن قصة الولادة هذه تدلنا على أنه يعظم فيها شأن العناية الالهية أكثر من تغيير نظام الطبيعة . وأنتم أيضاً عندما تريدون أن تختاروا زوجاً أو زوجة لأبنائكم إسألوا قبلاً عما اذا كان ذلك الزوج او الزوجة يحظى بصداقة الله ونعم السماء . وإذا كان هذا الشرط موجوداً فكل الأمور الأخرى تتبعه ، وإذا كان ناقصاً ، فلو كانت لكم كل خيرات الأرض فقد فقدتم كل شيء .

ولكي لا يسألوه لماذا لم يختر امرأة من نساء بلده يضيف قائلاً : « وقد استحلفني مولاي قائلاً لا تأخذ لابني امرأة من بنات الكنعانيين الذين أنا مقيم بأرضهم ، بل الى بيت أبي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ امرأة لابني» .ولا أريد أن أعيد عليكم كل تفاصيل هذه القصة لكي لا أتعبكم ، فسأتجاوزها إلى تحليل الباقي .

بعد أن قص الخادم الصالح على أهل الفتاة خبر لقائه معها على العين وطلبه منها ، وكيف قدمت له أكثر مما طلب ، وكيف أن الله دبر ما حدث ، بعد أن أعطاهم أقل التفاصيل ،توقف عن الكلام. وعلى هذا الحديث لم يتردّد سامعوه ، ومن غير أي تأخير ، كأن الله أملى عليهم موقفهم ،عن أن يهبوا له ابنتهم. « هذا أمر من قبل الرب ، أجاب لابان وبتوئيل ، وليس لنا أن نقول شيئاً . هوذا رفقة ، سر معها ، ولتكن زوجة لسيدك ، كما أراد الرب » . من لا يأخذه دوار الدهش ، ولا يغرق في الإعجاب عندما يرى كم من العقبات الكبرى تسقط في طرفة عين !؟ من لا يعجب بموقف هؤلاء القوم الذين تخلوا عن ابنتهم لتسافر مع إنسان غريب مجهول ، مع خادم بسيط سفراً بعيداً جداً عن البيت الأبوي وهي لا تعرف أبداً حماها ولا زوجها ولا إنساناً من الأناس الذين ستعيش بينهم ، في حين أن

مانعاً واحداً مما ذكرنا كان كافياً ليوقف الزواج . ومع هذا فلم يوقفه شيء . كل شيء انتظم باتفاق وسرور ، وجعل الأهل ابنتهم بين يدي الخادم كما لو كانوا قد عرفوه من قبل دائماً ، وكما لو كان قريبهم ، وكما لو كان مولوداً معهم . فكما أن من يريد أن يعمل كل شيء بدون الله ، وعلى الرغم من قلة الموانع والمصاعب التي يلاقيها ، يسرع إلى المهالك والنوائب وكل نوع من التعاسة ، على عكس ذلك تكون حال من يمشي بمعية الله وعونه . فعلى الرغم من كل العقبات والصعوبات التي في الطريق ، يصل براحة وبسرعة إلى نهاية السفر . فلا نقم بأي عمل ، ولا نتكلم شيئاً قبل ان نكون قد رجونا الله وتوسلنا إليه ، على مثال الخادم الصالح ، خادم إبراهيم ، وقبل أن نكون قد أقمناه حافظاً لنا في كل مشاريعنا .

أمّا الآن ، وقد تم اختيار العروس فلننظر كيف يتم العرس . هل نرى الصناجين والزمّارين والطبالين والراقصات وكل آلات الطرب ، ومواكب أعراسنا في هذه الأيام ؟ لا شيء من هذا . الخادم يسير مع رفقة وحده ، ومعه فقط الملاك الذي طلب سيده من الله أن يكون له رفيقاً للسفر.هذا كان معه للهداية ورفقة الطريق .

وها هي العروس تتقدم ، ليس في وسط الضجيج والتزمير ، بل في وسط البركات الإلهية التي كانت تنزل على جبينها وتشكل لها إكليلاً أكثر لمعاناً من كل اللآلىء .

تتقدم غير متشحة بثوب مذهب ، بل متشحة بالتواضع ، والتقوى ، ومحبة الله وكل الفضائل . تتقدم لا فوق عربة تحت الهودج الفخم ، بل راكبة ببساطة على جملها . ذلك أن بنات تلك الأيام لم تكن لديهن كل فضائل النفس فقط ، بل كانت لهن أيضاً كل الميزات الجسدية . فلم تكن أمهاتهن تربينهن ، مثل اليوم ، في وسط العطور والإستحمام المرخي الجسم . لم يكنّ يغْرقنهن في الأدهان والأصباغ والملابس الناعمة .فطبيعة حياتهن ، إذا كانت أبعد من أن تضعف أجسادهن وترخيها ، لم يكن من شأنها إلا أن تقويها وتصلب عودها .

ولذلك كان جمالهن حقيقياً ونضراً مثل الزهرة . ذاك كان الجمال الطبيعي لا الحسن المصنوع ولا المجلوب . لذلك كانت أجسادهن تتنفس العافية والمروءة ، ولم تكن تعرف المرض والكسل . لم يكنّ يخشين العمل ، وكن يعرفن أن يعرضن أجسادهن للتعب ، وكن يقمن بكل شؤونهن بأنفسهن .

ولهذا فقد كن مرضيات كثيراً لأزواجهن وكان أزواجهن يزدادون في التعلق بهن ، لأنهم كانوا يرون فيهن نساء صحيحات النفس والجسم معاً .

وإذن فقد كانت رفقة تتقدم ببساطة فوق جملها وعلى رأس القافلة الصغيرة . وعندما اقتربت من البيت ، رأت إسحق من بعيد ، فقفزت عن مطيتها إلى الأرض . لاحظوا هذه الهمة وهذه الخفة في الحركات . تقفز هي بنفسها من ظهر الجمل إلى الأرض . هكذا كانت الفتيات ، في ذلك العصر ، يعرفن أن يجمعن بين شدة الأجسام وفضائل النفوس ! « فقالت للخادم من هو ذلك الرجل الذي يتقدم في السهل للقائنا ؟ ـ هذا هو سيدي » أجابها الخادم . فتجلببت بجلبابها . لاحظوا دائماً تواضعها وحشمتها ومروءتها . « ثم حدث الخادم إسحق بكل الأمور التي صنعها . فأدخلها إسحق إلى خباء ساره أمه ، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبّها وتعزّى إسحق بعد موت أمه». وليس بغير سبب أن الكتاب المقدس يقول لنا أنه أحبها كثيراً وتعزى بعد موت أمه . وإنما أورد هذا ليذكرنا بالفضائل التي حملتها معها رفقة ، الفضائل التي أكسبتها قلب زوجها وحبه . وبالفعل فأي امرىء كان من الممكن ألاّ يحب إمرأة في مثل تعقل رفقة واعتدالها ومروءتها وإخلاصها وحبها، امرأة فاضلة النفس وقوية الجسد؟!

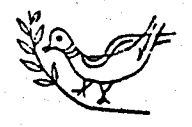
لا تصفقوا

. . . لا تصفقوا . . . لم أتحدث إليكم لكي تصفقوا لي، بل لكي أنهض فيكم شعوراً نبيلاً وجميلاً . فأنتم أيها الآباء اتبعوا مثال هذا البطريرك القديس، وفتشوا لأبنائكم عن امرأة بسيطة وطبيعية . لا تركضوا وراء الغنى والنسب وجمال الجسد النادر، فتشوا عن جمال النفس. وأنتن أيتها الأمهات ربين بناتكن على مثال رفقة .

وفي أعراسكم واحتفالاتكم ، يوم الزواج ، إجعلوها تضيء بالبساطة والحشمة وأدب الكتاب المقدس . لا رقصات خليعة ، ولا قهقهات فجّة ، ولا كلام قبيح ،بلا تزمير وتطبيل ولا أي شيء وثني، ولا أي شيء من مواكب الشيطان . أدعوا الله إلى أعراسكم وأجعلوه سيد زواجكم . وإذا أنتم عرفتم أن تنظموا وحدتكم في الزواج، فلا يمكنكم أن تخافوا طلاقاً وانفصالاً، ولا شبهة الزنا ، ولا فرصة للحسد والخصام والنزاع . ستعيشون في سلام وفي وحدة كاملة حيث تزهر بنفس الوقت كل الفضائل ، ولا يعكر صفو حياتكم شيء .

ففي وسط مثل هذا الزواج يمكن تنشئة الأولاد بسهولة في الفضيلة . وعندما يكون للمرأة كل المؤهلات وتعرف أن تجمع بين الحكمة والتواضع ، فمن الغير الممكن لزوجها ألا يحبها ويتعلق بها حتى يجعل القلبين قلباً واحداً ، والنفسين نفساً واحدة . وحين تكسب المرأة قلب زوجها تجد فيه العون الحاضر المتفاني في سبيل تربية أولاده ، وتستنزل كل بركات السماء من أجل نموهم وتقدمهم . وإذا كان الله هو الذي يسود في العائلة ، ويهيمن على تربية الأولاد ، فلن يعرف التعكير سبيلاً إلى سلام البيت وسعادة العائلة .

وهكذا يستطيع الرجل ، مع إمرأته وأولاده وكل أهل بيته أن يقضوا حياة هادئة على الأرض وأن يصلوا إلى الملكوت السماوي الذي أتمناه لكم جميعاً بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي له القدرة والمجد مع أبيه وروحه القدوس المحيي الآن وإلى جيل الأجيال آمين .



الفصل الثالث

الرسائل إلى أولمبيا

الرسالة الاولى

على طريق المنفى، آخر حزيران سنة ٤٠٤

والآن أيضاً ، وبعد أن أُبعدتُ عن القسطنطينية ، ألقى هذا التجمع الجماهيري ذاته الذي يحرك فيّ الشعور عميقاً . فكل الذين يلقونني على طول الطريق ، سواء من المشرق أو من أرمينيا أو من أي بلد آخر ، يسكبون ، وهم يتابعونني بأبصارهم ، الدموع الغزيرة يقطعها النحيب ، وترافقني التنهدات على طول المرحلة .

وإذا أنا ذكرت لك هذا فلكي تلاحظي العطف الذي أحاط به . وهذا أيضاً هو عندي تعزية كبيرة . وغياب العطف هو من أقسى الأمور وأصعبها على المرء .

فكم هو عزائي عظيم أنا الذي أجد الدنيا كلها تشاركني في آلامي !

وإن ما يعزيك أيضاً هو أنني في صحة جيدة مع ما أنا فيه من شقاء وعذاب . إني أعيش الآن بدون خوف ، وأفيد من سكينتي العميقة ، أن استعرض كل الأسواء التي ما برحوا يصنعونها معي ، والمؤامرات التي يدبرونها ضدي ، والاضطهادات التي كنتُ هدفها وإني لأجد متعتي في هذه التذكرات .

فاعملي أنت مثلما أعمل ، واطردي الحزن الذي يخيّم عليك . لا تقاطعيني بأخبار صحتك . قبل ساعة تسلمت رسالة من العزيز أدابيوس وفوجئت بأنني لم أتسلم واحدة منك ، خصوصاً وإن امرأته هي أعظم صديقة لك .

أقول مرة ثانية تذكري أن لكل شيء نهاية من أحزان هذه الحياة وأفراحها . وسواء أكان الباب ضيقاً والطريق مزدحماً ، وسواء أكان الباب عريضاً والطريق فسيحة ، فالكل يمرون منها على السواء . إنعتقي إذاً من الأرض ، أو بالأحرى من

ربط الجسد ، وطيري نحو القمم ، وحوّمي فوق الظلام والدخان اللذين يغلفان الحياة البشرية . وإذا كنت ترين الذين اقترفوا ضدنا مثل هذه الظلامات ، قد بقوا في بلادهم يستمتعون بأمجادهم وكراماتهم ، فرددي هذه الكلمات : « ما أوسع الباب وما أرحب الطريق المؤدية إلى الهلاك »! ولأجل هذا السبب إبكي بالأحرى عليهم وارثي لحالهم . إن أولئك الذين يفعلون الشر ، وبدلاً من أن يتلقوا القصاص ، لا يتلقون إلا الشرف والأمجاد ، فإن هذه الأمجاد ذاتها، أمجاد العالم، هي التي ستغذي العقاب الذي سيتحملونه في الحياة الثانية . هذا ما كان فيه ، على الأخص ، عذاب الغني الرديء الذي بدلاً من أن يكفّر ، على الأقل ، عن قسوته تجاه ألعازر بقي يستمتع أيضاً بالسعادة التي لم تجعله أحسن حالاً على الرغم من كل قسوته .

رددي لنفسك هذا القول وأمثاله من كل ما كنت أردده لك غالباً حتى تهدئي آلامك . ويجب عليك أن تتخلصي من أثقال أحزانك . أكدي لي ما هو بهذا الشأن . وعندما أقتنع أن رسائلي تحمل لك التعزية كالسابق ، سأستعملها أكثر فأكثر مثل العلاج الشافي .

الرسالة الثانية

نيقية ٣ تموز سنة ٤٠٤

لا تقلقي لأجل سفري . فأنا ، كما كتبت لك سابقاً ، أحس بالعافية ، وأشعر بأني أقوى من قبل.الهواء الذي أستنشقه هو هواء ممتاز ، والجندي الخفير الذي معي يجتهد في إراحتي فوق ما أرغب ، ويجعل في ذلك كل همه .

نحن في منطلق السفر إلى نيقية . أحرر لك هذا الكتاب في الثالث من تموز . لا تقاطعيني بأخبار صحتك . راسليني على يد برغاميوس ، إن لي فيه كل الثقة .

لا تطمئنيني عن صحتك فقط ، بل قولي لي أيضاً انك بددت كل حزنك . إذا حملت لي رسائلك المقبلة أخباراً طيبة ، سأكتب لك أيضاً وأضاعف الكتابة . وكنت قد لاحظت أن رسائلي هي مفيدة لك . وإذن فإذا كنت ترغبين المزيد من

المكاتبة ، فأظهري لي أنك تفيدين منها أكثر ، وسترين أنني سأكثر منها . وإن ما يجلب لي كثيراً من الهم هو أن الكثيرين القادمين من القسطنطينية يمرون من هنا وهم يستطيعون أن يحملوا رسائل ، ولا يأتونني منك برسالة واحدة.

الرسالة الثالثة

بين نيقية والقيصرية، تموز ٤٠٤

رحى المحنة تدور وتعزيتي تزداد وتعظم . والمستقبل يتمثل لي بأفضل الرجاء . الآن التيار يحمل المركب من غير أن يصادف عوائق ، وريح مؤاتية تدفع الشراع . فهل سُمع أو تُحدِّث بمثل هذا ؟ في كل مكان من حولنا تختبىء الصخور والنواتىء . في كل مكان أعماق وأخاديد وزوابع وهاويات ، وليال بدون قمر ، وظلمات كثيفة وهاويات ومخاطر . وفي مثل هذا البحر نسافر هادئين كأننا البحارة في المرفأ ! فكري مثلنا بهذا وارتفعي مثلنا فوق العواصف والزوابع .

أرجو أن تطمئنيني أيضاً عن صحتك . أما أنا فصحتي جيدة جداً ومطمئن من هذه الجهة . ازدادت قواي ، وأتنفس هواء جيداً . والرجال الذين يحرسوننا هم مخلصون لنا ،ولا يدخرون وسعاً في خدمتنا. وحرارة محبتهم هي التي تملي عليهم الإخلاص لنا . في كل مكان نجد الإكرام . ليس أمامي ما يعذبني سوى أنني لم أتسلم تطميناً عن صحتك . طمئنيني اذاً حتى أستمتع بسعادتي التي أنا فيها . وإني أشكر جزيل الشكر ولدي الحميم برغاميوس . وحين تريدين أن تكتبي لي اعتمدي عليه فهو أمين ، وهو شديد التعلق بي ،وهو يحترم كثيراً تواضعك وتقواك.

الرسالة الرابعة

قبل الوصول بقليل إلى قيصرية ، آب ٤٠٤

حين أرى ، على طول الطريق وفي محطات القوافل ، وعلى جوانب الشوارع في المدن ، حين أرى جماهير الرجال والنساء يقفون أمامي ويذرفون

الدموع ، لا أستطيع إلا أن أفكر ، بما يجب أن تكوني فيه أنت من الألم . لأنه إذا كان الناس الذين يرونني لأول مرة قد كسر الحزن نفوسهم وبلغ منهم هذا المبلغ وإذا كانت توسلاتي إليهم وتعزياتي وتوصياتي لهم لا تفعل إلا أن تنتزع ينابيع أحر من الدموع ،فيكون أوكد من ذلك أن ألمك أنت أشد وأعظم. ولكن لا تنسي أن المكافأة تعظم على قدر ما تعظم التجربة . إذا أنت ثبتِّ على حفظ البسالة التي تقتضيها المعركة ، وبفعل الصلاة والشكر لله كما أنت تفعلين الآن . فإذا بسط البحار الشراع واسعاً أمام الريح العنيفة ، انقلب مركبه . ولكنه إذا عرف ، على العكس ، أن يعدل الشراع تعديلاً ويدير دفة المركب كما يجب ، فلن يخشى شيئاً . فلا تدعي نفسك إذن تنسحق بالألم . وليتحكم عقلك بالعاصفة . وهذا ما تظهرينه لي ، والحمد لله ، فالإعصار ليس فوق قواك . واكتبي لي لتنبئيني بهذا النبأ ، حتى أستطيع أن أمتلك ، وأنا في المنفى ، هذا الفرح العظيم بأن أعلم أن عقلك وحكمتك جعلاك من حسن الحظ ، تتعالين فوق الخطر وتتجاوزينه .

أكتب لك هذا الكتاب ونحن على مسافة قصيرة جداً من قيصرية .

الرسالة الخامسة

قيصرية، آب ٤٠٤

أكتب لك من قيصرية . لقد نجحت في أن أتعافى من المرض الذي عانيت منه في سفري ، والذي لا تزال بعض آثاره تصحبني الى هنا . وهوذا أنا الآن في صحة تامة تقريباً . لقيت هنا اهتماماً وعناية فائقة،وسرعان ما تحسن وضعي كثيراً. وقعت على طبيبين ماهرين من الدرجة الأولى ، وصاحبي خبرة عظيمة في الطب : ساهمت كياستهما وعطفهما عليّ أكثر من صناعة الطب في شفائي . وقد وعدني أحدهما حتى بمرافقتي كما وعد بمرافقتي أيضاً عدد من أصحاب المنزلة الكبرى .

هوذا أنا أكتب إليك فيما يتعلق بي .أما أنت فلا تفعلين ذلك إلا نادراً، الأمر الذي أخذته عليك سابقاً . هذا تقصير كبير من قبلك وإهمال قاس . أنت تعلمين أن حمَلَة الرسائل إلينا لاينعدمون .وقد رأيت،منذ يومين،أخا الأسقف مكسيموس

المطوب الذكر ، وسألته إذا كان يحمل لي رسائل . فأجابني أنه ما من أحد أراد أن يعطيه رسالة ، وأنه سأل بهذا الخصوص الكاهن تيغريوس، ولكنه لم يكلفه بشيء . وأطلب إليك بإلحاح أن لا تقصري في توجيه اللوم إليه هو الذي يكنّ لي محبة حقيقية وشديدة ، وإلى كل الكهنة الذين مع الأسقف سيرياك .

لا تكلفيه ، لا هو ، ولا أحداً آخر ، بشيء من أمر نفيي وتغيير إقامتي . فقد يكونون بذلوا كل جهد ولم يفلحوا . فلنقبل بكيكيز . الحمد لله على كل ما يعطيني ! لن أكرر غير هذا القول قط مهما يحدث لي .

ولكن إذا كانوا لم يفلحوا في سعيهم ، فهل في هذا سبب في ألاّ يكتبوا لي . إنقلي إلى شقيقات الأسقف برغاميوس الجزيل الإحترام عرفاني العميق لفضلهن من أجل كل ما فعلنه معي . فقد جعلن صهره الدوق يكون في جانبي وقد رغب حقيقة في أن يأتي ليراني هنا .

أما أنتِ فوافيني دائماً بالأخبار عن صحتك وعن أحوال أصحابي . لا تقلقي من أجلي . إنني في صحة جيدة ، وفي راحة تامة .

كنت أتمنى لو أعرف إذا كان قد أُطلق سراح أتباع الأسقف سيرياك . ولم يوافني أحد بأخبار واضحة عنهم . أعلميني أنت أيضاً بما هو من أمرهم . قولي للأسقف سيرياك انني متأسف على أني لم أكتب له بعد .

الرسالة السادسة

كُتِبت في كيكيز بعد يومين من وصوله ، آخر آب ٤٠٤

وأخيراً استرحت : هوذا أنا في كيكيز ! ومن هناك أكتب لك . وأخيراً صَفَت السماء . صفت بعد الظلمات وبعد غيوم الأهوال المتنوعة التي لقيتها على طول الطريق !

والآن ، وبعد أن انقضت تلك الأهوال سأرويها لك كما حدثت . ولم أشأ ، إلى الآن ، أن أقول عنها شيئاً حتى لا أزيد في متاعبك . كان عليّ أن

أصارع ، مدة ثلاثين يوماً وأزيد ، حمّى شديدة جداً ، وأن أقطع ، وأنا على هذه الحال ، هذه الطريق الطويلة المضنية . هذا من غير أن ينفك عني حصار الآلام الرهيبة في معدتي .

تصوري حالي تلك : بلا أطباء ، بلا استحمام وبلا أي تدبير مما كان يجب اتخاذه ، بلا مواساة أو تعزية من أحد . يحيط بنا الخوف من الإيصوريين . يأخذنا السأم من طريق متعبة ، متروكين للهم والقلق والمخاوف وما من أحد يعتني بنا .

وأخيراً ، كل هذا قد انتهى ! وبوصولي إلى كيكيز لم يبق أي أثر من آثار شقائي . فقد صلحت حالي تماماً . فليس علينا أن نخشى الإيصوريين . توجد هنا فرق كافية وقوى مسلّحة ضدهم . لا ينقصنا شيء . يفيض علينا الخير من كل مكان . والكل يستقبلوننا استقبالاً جيداً ، حتى أننا لا نصدق أننا موجودون في مثل هذا المكان النائي .

إن ديوسقوروس موجود هنا . وكان قد أرسل إلي ، قبل أن أغادر قيصرية ، أحد خدامه يدعوني ويتوسل إليّ أن أشرفه بنزولي عنده . وكثيرون آخرون كانوا يتنازعون هذا الشرف . ورأيت أن أعطيه الأفضلية ، وهوذا أنا في منزله ! إنه يعمل كل شيء من أجلي . وأنا لا أنفك أعارضه بشدة فيما يريد مبالغته بإكرامي . لقد أخلى لي بيته وذهب ليقيم في بيت آخر ، وهو يحيطني بكل نوع من أنواع العناية . وراح يُعد البيت للشتاء حتى يكون صالحاً لإقامتي فيه ، وهو يعمل كل ما بوسعه ولا يفوته شيء مما يعود إلى مسرّتي .

ولست أدري كم من أصحاب الأملاك الآخرين كتبوا أو أوعزوا إلى وكلائهم وأبنائهم لكي يذهبوا دائماً ويروا ، بطريقة أو بأخرى ، إذا كنت محتاجاً إلى شيء . لقد أخبرتك بكل شيء من أتراحي وأفراحي آملاً ألاّ يرتجلوا تقرير سفري من هنا ارتجالاً . وإذا تركوا لي أن أختار مكان منفاي ، وألاّ يعيّنوا لي هم على هوى ذوقهم ، مكاناً آخر ، فإني أرغب في التغيير . ولكن إذا كان لا بد عندهم من تسفيري لإرسالي إلى أي مكان ، والتلذذ بجعلي على الطرق لكي استأنف سفراً جديداً ، فهذا أمر مستحيل عندي .

وهم كانوا ، في الأصل يبحثون لي عن مكان أبعد وأزعج . أضف إلى ذلك أن الطريق ذاتها ستكون أشق عليّ من ألف منفى ، لأن عذاب ذلك السفر قد جرني إلى أبواب الموت نفسه .

هوذا أنا في كيكيز الآن، في تمام الراحة والطمأنينة أستعيد قواي، وأرتاح شيئاً فشيئاً من عناء طويل وصلتُ وكأني مكسرّ الأعضاء مرضّض الجسم ، والآن تأتي الراحة لتعيد كل شيء إلى مكانه وحاله الأول .إن الشماسة سافينياني[1] هي أيضاً منهوكة القوى . فليست في سن الطاقة والعمل . وهي لا تتصور أن ترى ما نحن فيه من شقاء . وقد قالت إنها كانت مستعدة أن تصحبني حتى سكيثيا لأنها سرت إشاعة أننا سنُقتاد إلى هناك . وهي تقول ، على كل حال ، أنها لا تتركني قط ، وحيث أكون أنا فهناك ستعيش معي . وكل المؤمنين استقبلوها استقبالاً حاراً حماسياً .

أمّا قسطنديوس كاهني الأبر الأتقى ، فكان ينبغي أن يكون هنا . كان قد كتب إليّ طالباً المجيء إلى هنا والانضمام إليّ . ولكنه لن يجسر ، على الرغم من رغبته الكبيرة ، أن يجيء من غير رأيي . وهو نفسه يقول أنه لن يستطيع البقاء هناك فهو مضطر أن يتوارى ويفلت من الملاحقات . فإلى هذا الحد بلغ حَنَقهم عليه !

أرجوكِ إذن ألاّ تعملي ، في هذا الشأن ، أكثر مما عملتِ ، من أجل تغيير إقامتي . وإذا بدا لك أنه من الأفضل أن تعلمي ماذا يريدون عمله في المراجع العليا ، فلا تستقي الأحداث ، بل حاولي فقط أن تعلمي بحكمتك المعتادة ، إلى أين سيقتادونني. فإذا كان المكان غير بعيد عنك، إلى مدينة على شاطىء البحر ، إلى سيزيك مثلاً ، أو بقرب نيقوميديا ، فاقبلي بذلك . أما إذا كان المكان أبعد ، أبعد من كيكيز أو قريباً منها ، فلا تقبلي . فهذا سيكون قاسياً ومتعباً جداً . لأني ، هنا ، في الوقت الحاضر،أنعم بالراحة الحقيقية . يومان إثنان بعد وصولي ، كانا كافيين ليزيلا تماماً كل مشاق السفر .

---

(١) هي عمّة القديس

الرسالة السابعة

كيكيز ٤٠٤.

سأمضي إذن في محاولة تنظيف جرحك ، وتبديد الظلمات التي تغطي نفسك .

إن ما يطرحك في العجز واليأس والعذاب إنما هي العاصفة الرهيبة السوداء التي تقتحم الكنيسة لتلفها بليل حالك ، وظلمات بعضها فوق بعض تتكاثف على الأيام لتتسبب في إغراق الكثيرين ، وتنشر الدمار على وجه الأرض .

أنا أعرف هذه العاصفة وأعرفها جيداً ، وليس من ينكرها . بل إذا شئت فسأحاول أن أرسم ببعض الصوَر الأخاذة ، زمَن المأساة هذا الذي نجتازه .

إني أرى بحراً هائجاً من سطحه إلى أعمق أعماقه ، وأرى جثث البحارة بعضها عائماً فوق المياه ، وبعضها يغرق في اللجج ، وألواح السفن مبعثرة على سطح اليم ، والأشرعة ممزقة، والصواري مكسرة ، والمجاذيف منتزعة من أيدي المجذفين ، والبحارة جالسين على بقايا الجسور ، قابضين بأيديهم ، بدل المقود والمجاذيف ، ركبهم التي يشدونها نادبين عجزهم ، ومطلقين الصراخ ، مسمعين نحيبهم ، وليس بوسعهم شيء سوى البكاء . في هذا الجو لا ترى أرض ولا سماء ، وكل ما هنالك ظلمات كثيفة حالكة تغطي كل شيء بضباب كثيف أسود لا يميز فيه الإنسان حتى أهله ، ولا يُسمع شيء سوى ضجيج اللجج وصرخات البحارة القاسية التي يتوجهون بها الى الغرقى من كل جهة .

ولكن بأية عبارات أتعلق لأتمكن من أن أصف ما هو مستحيل وصفه ؟ لقد اتيتُ بتصوير لما هو من آلام هذه الدنيا، وآلامنا هي فوق ما يعبّر عنه بالكلام ، وإذا التمستُ لها صوراً يفوتني التعبير. ولكن ومع هذا، فمشهد آلامنا الحاضرة لا يمنعني من أن أتأمل بأيام أفضل. فلدينا ربان لا يحتاج إلى مهارة الصنعة ليتجاوز الإعصار، وحركة منه واحدة تكفي لتهدئة العاصفة.

وإذا رأيتِ أنه لا يفعل ذلك من البداية وعلى الفور ، فذاك من حكمته ألا

يوقف السوء في انطلاقه ، بل يتركه ينتشر ويتعاظم . وعندما يقترب الهلاك والدمار وحين يأخذ اليأس بكل النفوس ، يأتي بعجيبة من عنده تدهش الرجال وتسطع بها قدرته بعد أن يكون قد استنفذ الصبر من عبيده .

وإذن فلا تدعي نفسك تضطرب يا أولمبيا . ليس من محنة في الوجود خطيرة ومخيفة سوى محنة واحدة هي محنة الخطيئة .هذا ما كنتُ اردده أمامك دائماً . وكل ما عدا الخطيئة إنما هو وهم . أو سمّهِ ماشئت: المؤامرات ، والأحقاد ، والخيانات ، والوشـايات ، والمسبّـات ، والاتهامـات ، والمصـادرات ، والمنـافي ، والمجـازر والحرائق والغَرق ، كل هذه الأمور وقتية عابرة لا تصل إلاّ إلى أجسادنا المائتة وتترك الأنفس المستعدة سالمة من الأذى .

إن أفراح الحياة الحاضرة وأحزانها هي غير ذات أهمية . والقـديس بولس الرسول لا يقول عن هذه وعن تلك سوى كلمة واحدة: « الأمور التي ترى هي وقتية » (٢كور٤ :١٨) .لماذا نخشى مما لا نراه إلا لحظة عابرة ويمر كمياه النهر ؟ تلك هي أفراح الحياة الحاضرة وأتراحها . وهناك من الأنبياء من شبه بالعشب ، بل بزهر العشب أيضاً ، كل سعادة الإنسان ، ليس فقط الغنى والملذات والقدرة والأمجاد بل كل ما يعجب به الناس .« كل مجد بشري هو كزهر العشب » (أشع ٤٠ :٦). ليس من شك في أن الشقاء ثقيل وصعب الاحتمال ، ولـكن لا نعطـه كثيراً من الأهمية . فلنتذكر أن أشعياء النبي لا يعطي المسبـات والعسف والظلـم والتعيير والهزء ومؤامرات الأعداء من الأهمية أكثر مما يعطي الثوب البالي الذي قرض العث صوفه : « لا تخافوا من شكايات النـاس ، ولا تضطربـوا لظلمهـم لأن كل ذلك سيبلى كالثوب وسيصبح كالصوف فريسة للعث » (أشع٤٠ :٧ ـ ٨).

لا تدعي إذن نفسك تضطرب من أجل الأحداث التي حدثت.لا تلتمسي لك سنداً لدى فلان أو فلان ، ولا تركضي وراء الظلال (سَنَد الرجال ليس إلا كالظل) .وليكن يسوع وحده ،يسوع الذي تعبدينه، ليكن ملجأكِ وسنـدك . هو وحده يستطيع ، بحركة واحدة وفي لحظة واحدة ، أن يعيد الهدوء . ستقولين أنكِ رجوته ولم تحصلي على شيء . ولكن تذكري ما كنت قد قلته لكِ، أن الله ليس من عادته أن يأتي فوراً ليهدىء الأمواج، بل يتركها ترتفع، ويترك الإعصار يتعاظم .

وعندما لا يبقى أمل ، عندئذ يحضر فجأة ويُقر الهدوء ، ويعيد الى الناس طمأنينتهم المفقودة .

وليس يحقق فقط رجاءنا وانتظارنا بل يزيد على ذلك أكثر مما كنا نرجو . هذا ما يقوله بولس الرسول : « وهو الذي يعطينا فوق ما نطلب وفوق ما نتصوَّر » (أفس ٣ : ٢٠).

بداية الامر ان يطرح الفتية الثلاثة في أتّون النار. انه لم يفعل، وذلك لكي يغدق عليهم مكافأة اعظم . تركهم يسعرون الأتون حتى صار لهيبه عالياً جداً . ترك الملك يهيج غضبه كالنار وتركهم يُوثِقون أيدي الفتيان وأرجلهم وجعلهم يطرحونهم في النار المتقدة . وكان أنه عندما فقد المشاهدون أملهم من نجاة الفتية ظهرت يد الرب، وبعجيبة، جعلت قدرته تظهر ببهاء. فما هو أن أخذتهم النار فجأة بأيد موثوقة حتى انحلت ربط الأبرياء وسقطت من أيديهم. وكان الأتون يتحول إلى بيت للصلاة، والماء إلى ندىً مرطب، وألسنة اللهيب إلى قصر أفخم من قصر الملك. والنار التي تفترس كل شيء، النار التي تغلب الحديد والحجارة ولا يثبت أمامها شيء، لم تستطع أن تلمس شعرةً من رؤوسهم، وهناك يقف جوق الفتية الثلاثة القديسين لينشد نشيدهم داعين كل الخليقة الى أن تضيف صوتها إلى أصواتهم. وفي تسبيحهم الشكري كانوا يباركون الله الذي فكّ وثاقهم، ويهنئون بعضهم بعضاً على أنهم ألقوا في النار، وعلى أنهم أخذوا من بلدهم، واقتيدوا إلى السبي محرومين من الحرية ، تائهين بدون وطن ، وبدون أهل، مجبرين على أن يعيشوا في أرض غريبة، وشعب بربري، ولم يبق لأعدائهم إلا أن ينفذوا فيهم كل شرهم. (وماذا اكثر من أن يهلكوهم)، وكان يجب أن يترك هؤلاء الأبطال أن يمضوا إلى أبعد حدود انتصاراتهم، وأن يحملوا أكاليلهم، وأن يجمعوا جوائز نصرهم ولا يفقدوا شيئاً من هذا النصر والمجد.

وماذا بعد ؟ أَلَمْ نر ذلك الملك الطاغية الذي أوقد أتونهم وأسلمهم لمثل ذلك العذاب يصير المحتفِل الكبير بقديسينا الأبطال ، ويغدو بطل تمجيد القدرة الإلهية الفائقة ؟ فقد وجه رسالة إلى كل المسكونة مليئة بالحماس والإعجاب يذيع فيها قصة العجب الحادث . صار شاهداً لا يتراجع للعجيبة التي لم يسمع بمثلها والتي اجترحها الله تعالى . ذلك أنه عندما يشهد العدو بالعجب ، فتأكيده لا يمكن

أن يوضع موضع الشك حتى ولا من جانب الأعداء الآخرين .

ألا ترين الآن مهارة العناية الإلهية وحكمة الله وأسلوبه العجيب في توجيه الأحداث ، وبنفس الوقت تفرده في العجب والتصرف ، واستهدافه صلاح البشر؟ فلا تضطربي ، ولا تتعذبي لأجل كل ما يحدث . ولا تنفكي تشكرين الله وتمجدينه ، وتفزعين إليه ، وتدعينه وتصلين له . وليكن لك ان تتمثلي كل أنواع الإضطرابات والانقلابات والعواصف فلا يعذبْك شيء منها . ما من صعوبة تقف أمام المعلم حتى ولو ظهرت لك كل الأشياء سائرة إلى الغرق والهلاك .

كل شيء مستطاع عنده . يستطيع أن يقيل العاثرين من عثراتهم ، ويعيد الضال إلى سواء السبيل ، وأن يسوّي أوضاع المنحرفين ،وأن يعفيهم من خطاياهم ويجعل الساقطين في ألف خطيئة أنقياء . ويستطيع أن يقيم الموتى ، وأن ينهض هياكل رفاتهم ويحييها من البلى ، ويهبها جمالاً أبهى من الأول . ولعمري ان الذي أخرج الخليقة من العدم إلى الوجود ، وأعطى الحياة لمن لم تكن له قبلاً حياة ، يستطيع بالأحرى أن يعيد إلى ما كان عليه وضعاً كائناً ، وضعاً كان قد خلقه .

ولكن قد تقولين لي كم من النفوس تهلك ! وكم من النفوس تتشكك وتعثر ! وكثير من مثل هذا البلاء كان قد حدث قبلاً ، وكل شيء عاد إلى حاله فيما بعد . فما بالك تضطربين ، وما بالك تتعذبين ، إذا كان هذا قد أخرج إلى المنفى ، وذاك حل في محله ؟

المسيح صُلب في حين أُنعم على القاتل باراباس بإطلاق سراحه . والجمهور الشقي كان يصرخ مريداً أن يخلص القاتل المجرم بدلاً من مخلصه الحقيقي ، والمحسن إليه فعلاً .فكم من النفوس تشككت في ذلك الحين بسبب ذلك الموت ؟ وكم من الناس يتشككون في هذا حتى أيامنا الحاضرة ؟

ولكن فلنتناول سيرة مخلصنا من بدئها . فإنه ما ان ولد حتى اضطُر إلى تغيير بلده . وذهب إلى المنفى . كان في المهد حين ذهب مع كل العائلة إلى أرض غريبة ، إلى بلد بربري ، في سفر طويل جداً .

أضف كل ما تبع ذلك من أحداث : جداول الدم المسفوح في مقتل الأطفال الأبرياء في تلك المجزرة الرهيبة ، كل اولئك الأطفال الذين قتلوا بغير شفقة كما لو

كانوا في معركة وفي ساحة الحرب . كانوا ينتزعون عن أثداء أمهاتهم ليسلموا إلى السيف .والسيوف كانت تغوص في حناجر طرية مليئة باللبن . هل يمكن أن نتصور مأساةً أفظع من هذه المأساة ؟ هذا ما لم يكن يتحرّج من فعله ذاك الملك الذي كان يطلب أن يهلك المسيح . والله ،في صبره، كان يترك مثل هذه المأساة المروّعة أن تتم ، وأن تسفك تلك الدماء البريئة . كان يدعهم وما فعلوه وهو قادر على أن يمنعهم . وهذا إنما كان لسر في حكمته حتى أظهر مثل هذه الأناة .

ومن بعد عودة المسيح من مصر ، وبعد أن تهيأت له أسباب الدعوة في اكتمال السن وكمال النعمة والقامة ، شهد حرباً تولع ضده ، من كل جهة . فهوذا تلاميذ يوحنا الذين كانوا حاسدين له ، ومأخوذين بالغيرة منه، على الرغم من شهادة سيدهم له : « هوذا الذي كان معك في عبر الأردن يعمد وكل الناس تتبعه » (يو ٣ : ٢٦). تلك لهجة قوم وَخَزهم الحسد ، وأخذتهم الغيرة حتى تأكّلتهم شهوتها المشؤومة . وهذه الغيرة أيضاً هي التي قادت أحد تلامذة يوحنا أنفسهم إلى مباحثة اليهود في موضوع التطهير و إلى المقابلة بين المعموديتين، معموديّة يوحنا ومعمودية تلاميذ يسوع (يو ٣ : ٢٥).

ولما بدأ يجترح العجائب فكم أثارت عليه عجائبه من التجاديف والاتهامات الكاذبة ؟ البعض قالوا عنه أنه سامري وبه شيطان (يو ٨ : ٤٨)، والآخرون رموه بالتدجيل والتضليل : «ليس هذا من الله وإنما هو يضل الشعب » (يو ٧ : ١٢). ورماه غيرهم بالسحر والشيطنة : « باسم رئيس الشياطين بعلزبول يخرج الشياطين » (متى ٩ : ٣٤).

وكانوا يرددون عنه أموراً أخرى فظيعة وكانوا يقولون أنه منافق ، شرهٌ، أكول ، سكير ومرافق السكارى والخطأة : « جاء ابن الإنسان إلى الأرض يأكل ويشرب فقالوا عنه انه إنسان يأكل ويشرب ويعاشر الخطأة والعشارين » (لو ١٢ : ٣٤).وحينما رأوه يتكلم مع امرأة زانية قالوا عنه أنه نبي كاذب، « لأنه لو كان إنساناً نبياً لعرف مع من يتكلم » (لو ١٢ : ٣٩). وهكذا كانوا كل الأيام يتحاملون عليه ويضمرون له الشر في أنفسهم .

وليس اليهود وحدهم هم الذين كانوا يثيرون عليه الحرب ، بل حتى أولئك الذين كانوا يُحسَبون أخوة له لم تكن عندهم نية حسنة عنه ولا فكرة حسنة ، وكان أقرب أقربائه يناوئونه ويضطهدونه بلا انقطاع . يمكنك أن تستخلصي هذه الأمور مما ذكره الإنجيلي :« أن أخوته أنفسهم لم يكونوا يظنون به حسناً » (يو ٧ : ٥) .

انت تتكلمين عن أشخاص كثيرين قد تشككوا بالأحداث الحالية ، وخسروا إيمانهم . فافتكري بتلامذة المسيح جميعاً الذين تشككوا أيضاً وأضاعوا إيمانهم في وقت آلامه. أحدهم خانه وسلمه والآخر أنكره ، والبقية هربوا واختفوا . ولما هرب الجميع اقتيد وحده مقيداً الى العذاب والصلب .

كم وكم من أناس تشككوا بعد أن رأوه قبل قليل يجترح العجائب ، يقيم الموتى ، ويبرىء البرص ، ويطرد الأرواح الشريرة ، ويكثر الخبز ببركته ويجترح جماً من العجائب والمعجزات ؟! كم وكم تشككوا وغيروا فكرتهم عنه في وقت الصلب حين رأوه وحيداً مقيداً منقاداً إلى العذاب ومحاطاً بجنود سافلين تتبعه عصابة كهنة اليهود صارخين ونابحين خلفه ، وحيداً مسلماً إلى أعدائه ، وحيداً مع الجلاد المعتز بسوطه !

كم وكم من أناس غيروا رأيهم فيه حين رأوه يُصفع بالسياط ! كثيرون وكثيرون ! ويفترض أن يكون هناك جموع غفيرة ، لأن ذلك حدث أثناء عيد من أعظم أعياد السنة كان يجمع كل يهود العالم في أورشليم ، وفي أورشليم العاصمة ، وفي وضح النهار ، كانت تجري مأساة هذه الجريمة .ومن هذه الجماهير كان كثيرون ممن رأوا المسيح وتبعوه وارتدوا عليه في ذلك اليوم حين رأوه مقيداً مجلوداً بالسياط مخضباً بدمه ، يستنطقه القضاة من غير أن يكون إلى جانبه واحد من تلاميذه .

أجل ماذا عليهم أن يقولوا أمام هذه المشاهد المختلفة التي كانت تتبع بعضها بعضاً متلاحقة أمام أعينهم وعلى سمعهم ؟ هنا يكلّل بأكليل من شوك ، وهناك يلبسونه ثوب الجند الأحمر ، وأثناء ذلك يضعون في يده قصبة وينحنون أمامه ليعبدوه ولم يبقَ نوع من الهزء والسخرية لم يفعلوه به !

فأي انقلاب في أفكارهم ! أيّ اضطراب ، وأية بلبلة حدثت في أنفسهم حين رأوه يتقبل اللطمات ويسمعهم يقولون : « تنبأ أيها المسيح من الذي ضربك!» ، حين رأوه داخلاً وخارجاً ، ذاهباً وعائداً ،يقاد إلى هنا، ويقاد إلى هناك ، كل النهار بهدف السخرية والشتائم والضحك على مسرح أورشليم الواسع ؟

ماذا كان عليهم أن يفتكروا حين رأوا عبد رئيس الكهنة يصفعه ، وحين رأوا الجند يقتسمون ثيابه ، ويقودونه إلى الصليب عارياً حاملاً في ظهره آثار السياط والضرب ومعلقاً أخيراً على الصليب ؟ ما من شيء استطاع أن يلين قلوب اولئك الوحوش البرية .بل كان توحشهم يزداد، وهول المأساة يتعاظم كل ساعة ، والسخريات تبلغ حدها في قولهم :« آه يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام ! خلص اخرين ونفسه لا يقدر ان يخلصها! إن كنتَ انت ابن الله فانزل عن الصليب لنرى ونؤمن!» (متى ٢٧ : ٤٠ ـ ٤٢). وحين كانوا يطلقون عليه الشتائم الفظيعة، أحضروا له إسفنجة مغموسة بالخل لكي يطفىء عطشه ، وكان اللصان أيضاً أنفسهما يجدفان عليه .

وأراني لا أستطيع أن أمنع نفسي من العودة إلى اللص الأول الذي تكلمت عنه، إلى بارباس، إلى هذا اللص الهائل، هذا السفّاح الرهيب(الا يرعبنا مجرد التفكير بهذه الظلامة المنكرة ؟) الذي فضل اليهود إطلاقه بدل المسيح . كان عليهم أن يختاروا بين المسيح والمجرم ، ففضلوا المجرم . وليس الأمر عندهم أمر صلب المسيح فحسب ، بل يقصدون أن يمحوا ذكره . لذلك قصدوا أن يفهموا الجمهور أنه أكثر من مجرم ، وأن يجعلوه خارج القانون والشريعة حتى لا تأخذ الناس فيه شفقة ، ولا يشفع فيه بهاء العيد ورونقه . وكل ما فعلوه إنما فعلوه بهذا المقصد ، أن يمحوه من ذهن الجمهور ولهذا أيضاً علقوه بين مجرمين .وانت تعلمين أن حقيقته لم تختف لأجل هذا بل ظهر من هذا التصرف ظفره الباهر .

وأية شكاية كاذبة لم يقدموها للسلطة الحاكمة ؟ « من يجعل نفسه ملكاً يقاوم سلطة قيصر » (يو ١٩ : ١٢) . هذا ما عزوه إلى من لم يكن له مكان يسند إليه رأسه . ألم يشكوه بالتجديف ؟ لقد مزّق رئيس الكهنة ثيابه وهو يصرخ : « لقد جدف ! فما حاجتنا بعد إلى شهود ؟»

أمّا موته ! وماذا أقول عن موته ؟ يا له من موت تعيس رهيب ! موت أشقى المحكومين ! موت الملعونين ! الموت المهين جداً ! الموت المخصص لأكبر المجرمين ، لمن تحسب جثته كأنها توسخ التراب ، ومن لا يستحق أن يلفظ نَفَسه على الأرض ، بل كان يجب أن يلفظ أنفاسه بين السماء والأرض !

والجثمان ، حتى الجثمان ، لم يكن في سلطة أحد أو من حق أحد أن يأخذه . كان يجب أن يطلب الجسد طلباً من بيلاطس . ومن الذي يدفن ؟ رجل غريب لم يكن من ذوي قرابته ، ولا من تلامذته ، ولا من الذين شملهم إحسانه ، ولا من الذين نعموا بصحبته ، ولا من الذين يدينون له بخلاصهم : كل من ذكرنا كانوا قد هربوا واختفوا .

ولنذكر الضجة الكاذبة التي أثاروها حول قيامته المجيدة ، أي أن تلامذته سرقوا جسده ، ولست أدري كيف أن هذه الشائعة الكاذبة ، استطاعت ، على الرغم من جسامة الكذب فيها ومما لفقته من كل جهة ، وعلى الرغم من المال المبذول لرشوى الجنود وشراء سكوتهم ، وعلى الرغم من برهان بقاء الكفن في القبر ، على الرغم من كل هذا استطاعت تلك الشائعة ان تسري في الجمهور.

ذلك أن الجمهور لم تكن عنده أية فكرة عن القيامة ، والتلاميذ أنفسهم لم يكونوا قد فهموا أنه يجب أن يقوم من بين الأموات . ومع كل هذا فإن الله بصبره ترك كل شيء يجري ، مرتباً في أسرار حكمته الغير المحدودة .

وفي الأيام التالية نرى التلاميذ يختبئون من جديد ، ويتوارون عن الأبصار. يهربون تحت سيطرة الخوف ، مرتعدين دائماً ، مغيرين إقامتهم دائما . وبعد الاختفاء على هذا النحو مدة خمسين يوماً ، تراهم يظهرون من جديد ، متميزين بالعجائب مستعدين للبشارة. وتظهر المقاومة ، ويتجدد الرعب ، وتتشكك الأنفس الضعيفة ثانية حين ترى الرسل يُجلَدون والمؤمنين يُضطهدون والتلاميذ يطردون وذلك في الظفر الهام والعام لأعداء الكنيسة .

وحين تدعم العجائب المكملة على أيدي الرسل كلامهم بالسلطان القوي ، يأتي مقتل القديس استفانوس نذيراً بعنف الاضطهاد الذي شتّت المؤمنين وألقى

الرعب في صفوفهم ، فنرى التلاميذ من جديد في الضيق والخوف والهرب .

وهكذا ، وفي هذه المحن والتجارب كانت الكنيسة تنمو وتتزايد. كانت تزدهر من خلال معجزات التبشير والعجائب والاضطهاد. ومنذ فجر ولادتها كانت تتفجّر ضياءً باهراً.

هُرِّب بولس الرسول من نافذة السور ، وتخلص من يدي حاكم دمشق . وجاء ملاك يخرج القديس بطرس الرسول من السجن ويفك السلاسل من يديه ورجليه . وآوى الرسلَ المطرودين من وجه أقوياء هذا العالم تجار صغار ، وأناس فقراء عائشون من تعب أيديهم ، آووهم في بيوتهم وأحاطوهم بكل عناية : بائعات أقمشة وصُنّاع خيام ، دبّاغون في أقصى الضواحي ، وقرب الشواطىء وعلى حافة البحر ، هؤلاء آووا الرسل من الاضطهاد . ولم يكن الرسل ليتجاسروا ، أكثر الوقت، على الظهور ، وإذا تجاسروا مرة ، ففي الخفاء ومن غير أن يبصرهم أحد .

ففي وسط هذه المحن وفي وسط هذه الأفراح كان قطيع المسيح يتزايد . وهكذا نرى الذين كانوا يختبئون ينهضون ويظهرون ، والذين كانوا تائهين يعودون إلى الحظيرة ، وما كان مهدماً إلى الأرض قد أعيد تعميره على أكمل وجه .

واذكري في الكتاب بولس إذ كان الله ، بحكمته ووسائل تدبيره غير المحدودة ، يرفض سؤاله السلام والهدوء من أجل نشر الانجيل وعلى الرغم من تكرير سؤاله لم يكن يجيبه إلا بقوله : « تكفيك نعمتي. إن قوتي بالضعف تكمل » (٢كور ١٢ : ٩). والآن إذا أردت أن تقارني أفراحنا وأحزاننا بتلك الأحداث الماضية ، فستجدين أحداثاً ، إذا لم تكن عجائب ومعجزات ، فهي أشبه بالعجائب والمعجزات ، أو أنها على الأقل براهين قاطعة من براهين العناية الإلهية ، وأن يد الله فيها . ولكي لا أكلف نفسي بكل هذا الأمر ، ولكي لا أوفر عليك كل الاهتمام ، أترك لكَ أنتِ أمر الفحص عن تعزيتنا ومكافأتنا ومقابلتها مع تجاربنا . وهكذا أكون قد أسلمتك إلى انشغال حسن سينزع منك حزنك ، وستنتزعين انتِ منه تعزية كبرى .

تفضلي وقدمي عني أطيب تمنياتي إلى كل أهل بيتك المبارك . وتمكني انتِ نفسك أيتها السيدة الجزيلة الاحترام والتقوى،تمكني من أن تنعمي دائماً بالصحة الجيدة وبالفرح الكامل . إذا أردت أن تكتبي لي كتاباً مطـولاً ، فأظهـري لي ، بطيبة خاطر وبصراحة من غير ان تغشيني، أنـك طرحـتِ كل حزنـك ، وأنك وجدت السلام والهدوء لنفسك . هذا هو هدفي من الكتابة لك أن أعيد الفرح إلى نفسك . وأريد أيضاً ان اكتب لك مطولاً . لا تقولي لي أن رسائلي هي تعزيتك الكبرى : هذا ما أعرفه . ولكن قولي أن نفسك هي مطمئنة كما أريده لك وأنك لست متبلبلة، وأنك لا تبكين قط، وأنك قد وجدت الفرح مع الطمأنينة .

الرسالة الثامنة

كيكيز، آخر ٤٠٤

إن رسالتي السابقة كانت كفيلة بتخفيف حزنك المتفاقـم إلا أنـي أشعـر بأنك لا تزالين تعانين من سيطرة الضرر على نفسك بحيث أرى لازماً أن أشفعها بأخرى، حتى تستطيعي على هذا النحو أن تتزودي بتعزية أكبـر، وتـكون لك الأدوية الكافية، حتى لا يتحكم هذا الحزن بنفسك من الآن وصاعداً.

فلأمضِ إذاً إلى إزالة الغبار الذي تركه الحزن في نفسك ، وإلى دمل آخر آثار الجرح الذي أضناك . ولا يجب ، في كثير أو قليل ، أن نهمل هذا الغبار ، لأننا إذا لم نُزِلْه كلياً وبعناية، سيبلغ إلى القسم اللطيف من حاسة النظر وسيجرح غشاء العين ، ويعكر نظرنا تماماً . وهكذا ولكي أمنع عنك ضرره سأجعل كل اهتماماتي في إزالة كل آثاره .

ولكن هلمي إلى مساعدتي ومد يد العون لي في هذا السبيل . لأن ما يجري لطبيب الجسد من عدم نجاحه بمداواة المرضى من غير مساعـدة المريض هو ذاتـه يحدث للنفس . فلا تكنْ هذه حالنا. قومي انتِ بدورك كما أقوم أنا بدوري وهكذا نكون متأكدين من النجاح .

قد تقولين لي أنتِ إني أريد من كل بد ولكنني لا أستطيع ، وأنا عاجزة، على

الرغم من كل قواي ، عن تبديد غيوم الحزن الكثيفة السوداء. لا ، لا تقولي هذا وأنا أعرفك كل المعرفة . أعرف سمو فكرك وأعرف عمق تقواك ، وسعة حكمتك وكمال فضيلتك .أعرف أن ليس عليك في جسيمات الحوادث ، إلا أن تأمري اللجة في غضبها (لجة الاضطراب) وأن يعقب ذلك هدوء كامل .

ومع ذلك ، فأنا ماضٍ في إكمال دوري . ولكي أسهل عليك مهمتك ، سأقدم لك مساهمتي في ذلك. وماذا عليك انت أن تعملي من جهتك؟ أن تكوني قد تفهمت جيداً كل ما قلته لك في رسالتي السابقة (إنها تشتمل على عناصر كثيرة للتعزية) وأن تتّبعي فيما بعد الوصفات التي سأقدمها لك في هذه الرسالة.

وأية وصفات لأية أدواء ؟ على رِسْلك يا أختاه ! عندما تسمعين من يقول : « تلك الكنيسة قد أغلقت وأظلمت ،والأخرى هزتها العاصفة ، وهذه اجتاحتها الأمواج ، وأخرى ذهبت بلا رجعة. هذا ذئب وليس راعياً ، هذا الذي تسلم القطيع . هناك على مقود السفينة قرصان بدل الربان . وهنا أيضاً بدل الأب جلاد أخذ الكنيسة بين يديه ،تلك أخبار محزنة للغاية. ليس في هذا شك. وتقولين: وما هي الوسيلة لكي لا نغتم بها ؟ الجواب ألاّ تغتمي بغير قياس . فإذا كان ليس من الضروري ولا من الحكمة ، بل على العكس يكون من الضار والسيء أن نحزن فوق ما يجب على الخطايا التي نقترفها نحن أنفسنا وعلينا أن نؤدي حساباً عنها ، فكيف بنا ، يتملكنا الحزن ، والخطايا خطايا غيرنا ؟ أليس هذا من الزائد ، ومن غير النافع ؟ وماذا أقول ؟ بل أليس من مصلحة الشيطان بقدر ما هو أيضاً من شؤم الإنسان أن يستسلم إلى الجبن وقطع الرجاء ؟

ولكي اجعلكِ تدخلين في صورة هذا الموضوع، لنقرأ من جديد صفحة من أخبار القرن الأول للمسيح . رجل من أهل كورنثوس كان قد تطهر بمياه المعمودية ، وقُبل على المائدة المقدسة ، وبكلمة وجيزة تقبل كل الأسرار المقدسة (البعض زعموا أنه تقبل سلطان التعليم) .أجل بعد أن اتحد بأسرارنا المقدسة،بعد أن ارتفع إلى المراتب الأولى في الكنيسة ، سقط في خطيئة فظيعة .سمّر،ذات يوم ، نظراته في زوجة أبيه ، فولّدت عنده شهوة رديئة قادته إلى ارتكاب الفاحشة ، وفي هذا الفعل أكثر من بغاء ، فيه زنى ، أو شيء أفظع من الزنا .

وعندما علم به القديس بولس ، وإذ لم يجد تعبيراً يصف به تلك الخطيئة ، حدد فظاعتها بهذه الكلمات : «ارْتكبَتْ بينكم خطيئة زنى فظيعة ما سمع بمثلها حتى عند الوثنيين » (١ كو ٥ : ١) . وقد أمر أن يسلم الفاعل إلى الشيطان ، وأن يُقطع من الكنيسة، ويمُنع من قبوله في شركة المؤمنين قائلاً : لا يأكل أحد مع مثل هذا الإنسان . فقد أبان عدم استحقاقه ، وحدد له آخر قصاص ، وأسلمه إلى طغيان إبليس الجلاد لقمع جسده .

ومع هذا فإن بولس نفسه الذي قطعه من أحشاء الكنيسة ، وكان قد منع أي إنسان من مؤاكلته ، وأمر الكورنثيين أن يقيموا حزناً لأجل جريمته وكان يقول لهم : « وكأني بكم تتباهون وكان الأولى بكم أن تتألموا وتطردوا من وسطكم الذي فعل هذا الخزي»(١ كو٥ : ٢)، بولس نفسه الذي كان قد طرده من بينهم كأنه وَباء من الأوبئة ،والذي أوصد في وجهه كل الأبواب ،وأسلمه إلى حكومة الشيطان وأعلن له مثل هذا القصاص ، لمّا رأى أن المسكين غرق في الألم ، متأسفاً على خطيئته ومغيراً سلوكه ، وجه إلى الكورنثيين تعليمات مضادة للتعليمات الأولى ،فيقول لهم الآن : « لتغلبْ عنده محبتكُم له حتى لا يبتلعه الحزن المفرط ، ولا ننفذ لعبة الشيطان لأن ألاعيبه لا تخفى علينا »(٢ كو ٢ : ٨، ١١).

وانت تدركين الآن معي أننا نعمل لحساب إبليس حين نغتمُّ فوق ما يجب ، كما تدركين أن حيلة الشيطان هي في أن يدفعنا إلى التطرف وأن نحوّل بهذه الطريقة الدواء الذي يخلصنا إلى سم قاتل. فالتطرف هو سم فعلي يجعلنا في يدي الشيطان. هذا ما جعل بولس أن يقول بهذا المعنى إننا نعطي للشيطان تفوقاً علينا. فكأني بالرسول يريد أن يقول: «تلك نعجة أُصيبتَ بالجرَب المخيف. أبعدت عن القطيع ، وقُطعتْ من جسم الرعية ولكنها شُفيتْ من دائها وعادت إليها العافية ، (هذا هو فعل التوبة) وها هي الآن من جديد في وسط قطيعكم. إقبلوا هذا الأخ بدون توبيخ ، إفتحوا له أذرعكم ، وضموه إلى صدوركم ، وقبلوه وابلاً من قُبلكم ، واحفظوه بينكم».

وإذا لم نفعل هكذا فإن الشيطان يفيد من الفرصة ، لا لكي يمتلك فوراً هذا العضو المسكين بل لكي يغرقه أولاً في لجة اليأس ثم يستولي عليه . وهذا ما جعل

بولس يضيف إلى قوله : «إن حيلة (إبليس) ليستْ خافية علينا» . وهكذا تريدين أن تقومي بعمل عظيم ، ولكن تتصرفين خطأ ، فينزلق الشيطان وراءك ويضرب عملك في غفلة منك فيعكسه عليك عكساً .

وهكذا نرى أن القديس بولس لم يشأ أن يتخبط رجل في الحزن من أجل خطيئته الشخصية ، ويا لها من خطيئة ! نراه يضع كل همه ، وكل غيرته ، وكل قواه وكل نشاطه ليخفف حزنه ويمنعه من التطرف الذي هو من عمل الشيطان . أفلا يكون من أقصى الحماقة ، وآخر الجنون ، أن ننسحق بالألم ، ونغرق في ليل الحزن إلى حد أن نكون نهبة الاضطراب والقلق والبلبلة ، وذلك من أجل خطايا الآخرين ؟

أنتِ ترغبين مراجعة ما قلت إنك تريدين ذلك من كل بد، ولكنك لا تأنسين من نفسك القدرة عليه، فأجيبك مع هذا إني لا أصدق في شيء ما تقولين، وإني أعرف كل المعرفة نشاط نفسك وحيويتها.

ولكي أسهل عليك الصراع ضد هذا الجُبن المشؤوم المميت، وأن تتغلبي بأوفر اليسر على حزنك ، سأفتح لك سبيلاً آخر : عندما تعرض أمامك الصورة التفصيلية لهذا البلاء الحالي ، أديري انتباهك فوراً من هذا المشهد وانتقلي بفكرك إلى يوم الدينونة الرهيب .

تمثلي المحكمة المخيفة ، والقاضي المطلق الذي لا يحابي . أنهر النار ، واللهب في شدته وغليانه وزفيره ، والسيوف المصلَتة ، والوعيد الوارد ، والقصاص الذي ليس له نهاية ، والليل بغير نهار ، والظلمات المحفوظة للمجرمين ، والدود الذي يخزهم ولا ينام ، والسلاسل التي لا يمكن لأحد أن يفكهم منها ، وصرير أسنانهم ونحيبهم بغير تعزية .

تمثلي هذا المشهد على مسرح الكون الواسع ، في عرض السموات والأرض ، لأن المسيح يقول لنا: « أن قوات السموات تتزعزع » (متى ٢٤ : ٢٩)، إذ ليس عليها إذ ذاك ذنب يوبخها ، أو حساب تؤديه ، وهي ترى كل هذا الانتشار للمحاكمة ، كل الجنس البشري وكل الشعوب والقبائل بغير نهاية ، لا

تملك تلك القوات (السماوية) أن تكون شاهدة لكل هذا من غير أنْ تضطرب من الخوف . هكذا يكون يومئذ الخوف العام ! أجل افتكري بهذا اليوم المخيف والقضاء الرهيب !

ان ذلك القاضي ليس له حاجة إلى الشاكين والمدعين والشاهدين ، ولا إلى الحجج والبراهين : كل الخطايا ستكون مكشوفة للأنظار في وضح النهار ، وكما كانت قد اقتُرفت . والمجرم ، ليس له وسيلة أو شخص ينتزعه من العقوبة : لا أب ، ولا أم ، ولا ابن ، ولا ابنة ، ولا ذو قرابة ، ولا جار ، ولا صديق ، ولا مجير ، ولا مال ، ولا غنى ، ولا قوة : كل هذه تكون قد ذهبت كما ننفض غبار الأرجل . والإنسان يقف وحيداً أمام قاضيه ليسمع ، حسب أعماله ، تبرئته أو الحكم عليه . في ذلك اليوم لا تُسْألين عما فعله غيرك وإنما تسألين عما فعلته أنتِ .

تمثلي هذا المشهد أمام عينيك . تشبّعي من هذا الخوف . ليحفظَك من البكاء ، ومؤاخذة النفس ، ضد الحزن الشيطاني المشؤوم الذي نتكلم عنه . وعندما يأتي هذا الحزن مرة ثانية ليمسك بكِ فستحطمينه منذ أول لحظة بهذا السلاح الجديد كأنه نسيج العنكبوت . فعلى قدر ما يكون التفكر بالبلايا الحاضرة في غير محله وغير نافع بل مضراً ومشؤوماً ، على قدر ذلك خوف الدينونة الأخيرة يكون جيداً ومفيداً وضرورياً وجالباً للنفس أمنها وسلامها .

ولكنني أراني الآن قد انسقْتُ في مجرى فكري من غير انتباه ، ووجهت إليك إرشادات ونصائح ما كان يجب أن توجّه إليك أنتِ . وإنما يصلح أن ترسم هذه اللوحة من أجلي أنا ومن أجل أمثالي المثقلين بالخطايا الكثيرة ، لعلهم يجدون فيها خوفاً خلاصياً رادعاً لهم عن خطاياهم . أما أنتِ فلن يعرف مثل هذا الخوف إليك سبيلا ، ما دامت نفسك تحفل بكل هذه الفضائل التي فيك ، وقد لامست باب السماء نفسها . فسأغيرّ اللحن - إذا جاز القول - بل سأرسم لك لوحة غير تلك اللوحة ، ما دام تصوّر القضاء الأخير لا يؤثر فيك ولا يخيفك إلا إذا أخاف الملائكة الطاهرين .

فلنتحوّل إذن نحو وجهة أخرى فوراً . انظري معي إلى الجوائز المحفوظة

لك على أعمالك الحسنة ، وتأملي في جمال المكافآت وبهاء الأكاليل ، وجوق العذارى ، وسرير العرس ، والختن السماوي ، والحياة الملائكية ، وصحبة العريس ، والدالة عنده ، والاحتفال الدائم البهج والمشاهدة النورانية ، والمصابيح المضيئة المشعشعة، والسعادة التي تتجاوز كل حدود التعبير ،وكل حدود التصور .

لا تعارضيني لإدخالي إياك في مصف العذارى . وقد سمعتني غالباً أقول لك ، في أحاديث خصوصية أو في خطبي ، ماذا يجب أن نفهم بصف العذارى ، وأنه ما من شيء يمنعك أن تكوني في عدادهم ، بل أنكِ تتجاوزينهن في كمالات فضائلك . « والعذراء ، في نظر القديس بولس ، ليست الغير المتزوجة ، بل التي تحصر همها وعملها في خدمة الله » (١ كور ٧ : ٣٤). والمسيح نفسه ، لكي يبرهن أن البتولية ذاتها هي دون فضيلة الإحسان إلى الفقراء ، فقد أغلق الباب دون العذارى اللواتي حضرن إلى العرس ، ولم تكن معهن كمال فضيلة الأعمال الصالحة . لأن أولئك العذارى كان معهن زيت ولكن ليس كافياً . وأنت تتقلدين صولجان هذه الفضيلة ، وضفرت لك منها إكليلاً منذ عهد طويل .

وانظري من جهة ثانية بكم من السعادة يحيط أولئك اللواتي اشتعلن بالمحبة وبفعل المحبة ، عذارى كن أم لا ، وكيف يدعوهن مباركي أبيه : وقال لهم أن يأتوا إلى جانبه . ووعدهم أن يعطيهم مملكته ليساهموا فيها ، ويعلن ذلك أمام الملأ طراً . وهو إذ يوسع لهم في ملكوته السماوي ، لا يتردد في أن يقول أمام الملائكة وجميع القوات السماوية إنه منحهم هذا النصيب لأنهم أطعموه على الأرض وأضافوه . وهذا هو الصوت العذب الذي ستسمعينه أنتِ وهذه هي المكافأة الأبدية التي ستقبلينها في ذلك اليوم . فإذا كان إحسانك إلى الفقراء وحده يساوي مثل هذه المكافأة ومثل هذا الإكليل ، والإمتياز والمجد البهي ، فكيف إذا أضفنا إليه كل فضائلك الأخرى ؟ وفي الوقت الذي يجب عليك فيه ، ومنذ الآن أن تفخري وتسرّي ، وتصنعي الجوقات لتتويج رأسك ، تتركين الحزن يتسرب إليك ويحطم ضلوعك من أجل جنون الآخرين

وخطاياهم ، وتفتحين باب نفسك المقدسة للشيطان الذي ما فتىء يهاجمك ، وينصب لك الحبائل ؟ لا ! لا عذر لك في حزنك أبداً .

من يستطيع أن يعدد ، ومن يستطيع أن يصف فقط صبرك على ما انتابك في كل الحالات من كل الألوان والأشكال ؟ أن المقالة والكتاب لا يفيان بذلك ، هذا إذا أردنا أن نتناول حياتك في سنواتك الأولى ، وأن نعدد كل ما كان عليك أن تتحمليه ، حتى الآن ، من أهل بيتك ومن الآخرين على السواء ، من أصدقائك ومن أعدائك ،من ذوي قرابتك ، ومن الأبعدين ، من أقوياء هذا العالم ومن الطبقة المنحطة ،من أرباب الوظائف والمناصب ومن الأشخاص العاديين،حتى من أعضاء الإكليروس . وإيراد واقعةٍ من هذه الوقائع والمحن يؤلف وحده كتاباً .

وماذا ترانا نقول إذا نحن أضفنا إلى ما تحملته من قبل الغير ، العذاب والألم ، ألم التقشف الذي قضيت أنتِ به على نفسك ؟ ونرى ، بالنتيجة ، انك قد انتصرت على كل شيء ، وأنك كنت أكثر مقاومة وثباتاً من الحجر والحديد والماس !

لقد انهكتِ جسدك الغض ، الذي كان غارقاً في رفاهية العيش ، بكل نوع من أنواع الإماتات ، وجلبت عليه عدداً من الأمراض التي تستعصي على الطب والأطباء وكل دواء واعتناء ، وتفرض عليك أن تعيشي في أوجاع متواصلة .

وكيف أصف الآن إماتاتك بالتزهد في الطعام والمنام ؟ فالكلمات العادية لا تفي بوصف فضائلك تلك ! فالكلمات العادية تحدد الانتصار على شهوة من الشهوات التي تضايق الإنسان . أما أنت فقد نجحت في أن تقمعي الخصم نفسه أي الجسد باعث الشهوات كلها . فقد نفخت بشدة منذ بدء الصراع ، على شهوات اللحم والدم حتى أطفأت نارها كلياً . وهكذا فإنك لم تكتفي بأن تضعي لجاماً في فك الشهوات الجامحة ، وأن تضبطيها في حدود وقيود ، بل صرعتها جملةً ومرةً واحدة وتركتها هامدة لا تتحرك . فلقد غنمت النصر عليها واختتمت الصراع معها منذ زمن بعيد .

فالشهوة مثلاً إلى الأطعمة الفاخرة لا تزعجك أبداً ولا تجدين عسراً في حكمها والسيطرة عليها . فلقد قمعتها مرة واحدة ، وهي غريبة عن طبيعتك. فلقد ربيت معدتك على أن تأكل وتشرب ما يلزم لها وذلك لكي لا تموت المعدة من جهة ولكي تستطيعي من جهة ثانية أن تمارسي عمل التوبة . فليس هذا العمل صوماً وليس إماتةً ، بل يجب ان نلتمس له تعبيراً أقوى من الصوم والإماتة وهكذا الأمر نفسه في أسهارك المقدسة . فعندما أطفأت فيك شهوة الطعام ، أطفأت معها شهوة النوم ، والطعام في الواقع يوجب النوم . وأما أنت فقد قتلت شهوة النوم بطريقة أخرى هي تعوّدك السهر الطويل الذي أصبح فيك طبيعة ثانية . والناس لا يستطيعون أن يعيشوا بغير نوم ، وأنت لا تستطيعين أن تعيشي بغير سهر .

هاتان فضيلتان تكفي واحدة منهما لأن تملأنا من الدهشة والإعجاب . ومن يفتكر كيف مارستِ هاتين الفضيلتين وأنتِ في غضاضة عمرك ، من غير أن تتعلمي من أحد ، بل كنت ، على عكس ذلك ، محاطةً بأسباب المعاثر والشكوك . ومن يعلم أنكِ خرجت من بيت الكفر والضلال إلى مسكن الحقيقة ، وأن جسدك رأى بالإضافة إلى نعومة نشأته ، نعومة العيش التي توفر له الرفاهية وملذات الدنيا التي كانت متوفرة في بيت أبيك . أوَليس لمن يعرف هذا ، أو يفكر فيه ، ويقيم أمام عينيه هذه الاعتبارات المختلفة ، أن ينفتح أمام عينيه محيط من التعجب والاندهاش ؟

ولأجل ذلك ، لا أريد أن أسهب في ذكر تواضعك ونقاوتك وسائر فضائل نفسك المقدسة .ومجرّد التأمل بها ، بل مجرد اسمها يوقظ فيّ ألف ذكرى . وتناوُلُ جزء منها يقتضيني مقالاً طويلاً . ولكني لست أريد أن أبعد عن الغاية التي رسمتها وأن أخوض بحراً لا حدود له . ولعمري لو لم يكن هدفي هو استئصال الحزن من نفسك فقط لما اكتفيت بما ذكرت ، بل لكان لي في ذلك موضوع يلذ لي أن أتبسط فيه وأسهب، وأنا فائض الخاطر ومنطلق الفكر، ولكنتُ خضت هذا البحر بل هذه البحار الواسعة بفرح وطمأنينة ، وإذن لكنتُ تتبعت كل أثر من آثار فضائلك ، ثم أسهب في جمع تشعباتها والتوسع فيها . وأنا أعرف أن كل

تشعب جديد فيها يفتح أمامي بحراً جديداً . ذلك ما يكون في بحث فضائل صبرك وتواضعك وحسناتك التي اتخذت كل شكل ، وبلغت أطراف المعمور ، ونار غيرتك التي غلبت نيران العالم ، وحكمتك العميقة مع لطف جم سما على الطبيعة البشرية . وأخيراً إذا أردنا أن نعدد كل أثمار فضائلك فكمن يعد أمواج البحر ، ولكني كرهت أن أجتاز هذا الاتساع .

إن الأسد يُعرف من براثنه . وأنت يا أولمبيا تُعرفين من ملابسك . ودعيني أتحدث ببعض كلمات قليلة عن بساطة ملبسك وعن عدم اهتمامك مطلقاً بما تلبسين . وهذه فضيلة قد تظهر لأول الأمر أقل شأناً من غيرها من الفضائل . ولكن من ينظر إليها بعين فاحصة وناقدة يرى فيها فضيلة من أسمى الفضائل ، ويرى أنها تتطلب نفساً كاملة تكون قد ازدرت كل أباطيل العالم ونبذتها واتخذت وجهة طيرانها نحو السماء ليس في العهد الجديد فحسبُ بل منذ العهد القديم ، والله تعالى ينذر بالدينونة الهائلة من يهتم كثيراً بملابسه . في ذلك العهد الذي كان الله فيه يقود الجنس البشري في الظل والرمز وحين كانت المبادىء أرضية وجسدية ، وحين لم تكن القضية قضية أشياء سماوية ولا حياة مستقبلة ، ولم يكن للناس من صلة أو عهد بحياة الإنجيل الكاملة ، وحين كان الناس يعيشون في شريعة اللحم والدم في الناموس الموسوي ، أجل منذ ذلك الحين أنذر الله بالدينونة بفم نبيه أشعياء أولئك الذين يفرطون في الاهتمام بملابسهم : «ويقول الرب اذ قد اختالت بناتُ صهيون فيمشين رافعات الرؤوس ، غامزات بالعيون ، يقاربن الخطو في مشيهن ، ويجلجلن بخلاخل أقدامهن ، فسيصلع السيد هامات بنات صهيون ، ويزيل السيد فخر الخلاخل والأهداب والأسْوِرَة ، ويكون لهن النَتَن بدل الطيب ، والحبل بدل الزنار والقرع بدل تجعيد الشعر وحزام المسح بدل الوشاح» (أشع ٣ : ١٦ ، ١٨ ، ٢٤) . أرأيت هذه العقوبة وهذا المنقَلَب الذي لم يسبق له مثيل؟ أرأيت هذه العبودية المهينة التي يسلمهم إليها؟ ومن هنا تستطيعين الحكم على عظم الخطيئة. فهذا الإله الكلي الصلاح ما كان ليعين لمثل هذه الخطيئة مثل هذا القصاص الهائل لو لم تكن هذه الخطيئة أعظم منه .

وبما أن هذه الخطيئة هي كبيرة جداً ، فيلزم أيضاً أن تكون الفضيلة المضادة لها كبيرة جداً . إن القديس بولس الرسول عندما يخاطب نساء العالم لا يكتفي

بأن يصرفهن عن التزين بالذهب ، بل لم يكن يسمح لهن حتى بالملابس الفاخرة ذات الثمن المفرط . وما ذاك إلا لأنه يعرف أن فيها مرضاً هائلاً للنفس القليلة التهذيب. وإننا نجد الفضيلة المضادة لها في النفوس العاشقة للكمال والأدب الحقيقي.

وبرهان ذلك لا يظهر فقط في نساء العالم وفي النساء المتزوجات اللواتي ما من واحدة منهن تقبل بارتياح النصائح بهذا الشأن ، بل في النساء اللائي يهدفن في حياتهن إلى الكمال ، ويكنّ في مصاف البتولات (الراهبات) . وإنكِ لتجدين كثيرات منهنِ قد صارعنَ ضد الطبيعة ، بشجاعة غير مغلوبة ، وقطعن من غير سقوط ميدان البتولية ، يعشن على الأرض عيشة الملائكة ويحققن بالجسد المائت ، وقبل القيامة ، ما سيكون بعد القيامة ، (لا يزوجون ولا يتزوجون) ويناضلن كل يوم ضد القوات الغير المنظورة ، يماثلن القوات العقلية بأجساد أرضية ، ويحققن بأفعالهن ما يستغرب البعض حتى سماعه ، ويدافعن دائماً الشهوات التي تثب عليهن وثوب الكلاب الكلبة ، وينجحن في تسكين البحر الثائر في داخلهن ، حيث يجذفن مطمئنات فوق الأمواج الصاخبة ، ويجتزن بارتياح محيطاً من العواصف ، وينتصبن واقفات في وسط أتون النار ويثبن فيه من غير أن تمسهن ناره بأذى ، ويَدُسْن بأرجلهن النار المضطرمة كما يَدُسْنَ الطين الطريء . ومع ذلك ، وبعد أن يكن قد ربحْن كثيراً من المعارك، فمن المؤسف والمخزي معاً أنهن ينغلبن أمام أقل أعدائهن شأناً ، وبعد أن ينتصرن على الشهوات والميول الجبارة يغلبهن حب التبرج وزينة اللباس .

ان البتولية هي من الصعوبة والمجهود الجبار بحيث أن المسيح نفسه عندما كان يعلم تلاميذه ، وينشر مبادئه ، وعندما كان يغرس على الأرض حياة السماء ، لم يلزمهم بها ، ولم يشأ أن يجعل منها ناموساً . فقد أمرهم أن يميتوا ذواتهم (وهل من شيء أقسى وأمر من هذا الأمر ؟).وأمرهم أن يصلبوا ذواتهم كل يوم ، وأن يعملوا الخير مع أعدائهم ، وما أمرهم بلزوم التبتل ، بل ترك لسامعيه الاختيار الحرّ في ذلك: « من استطاع أن يحتمل فليحتمل » (متى ١٩ : ١٢). ودون التوصل إلى حفظ العفة صعوبة عظمى ومعركة هائلة ، وجهاد عنيف ، في

طريق ضيقة محفوفة بالحفر والمعاثر . وهذا ما تبرهنه لنا حياة أمثل الرجال في العهد القديم .

هذا موسى رجل الله العظيم ، أول الأنبياء ، خصّيص يهوه الذي كان له عنده من الدالة والسلطة ما شفع له بإنقاذ ستمائة ألف رجل من القصاص الذي فرضه عليهم ، ذلك الرجل العجائبي القدير الذي أمر البحر فانفلق له ليعبر فيه وفجّر من الصخرة ينبوعاً ، وغيرّ وجه السماء وجعل مياه النيل دماً ورمى فرعون وبلده بجيش من الضفادع والجراد ، وغيرّ مفعول العناصر واجترح آلاف العجائب ، ولمع في جميع الفضائل ، فأنارت فضائله وعجائبه حياته من كل جوانبها ، ومع كل هذا فقد بقي غريباً عن البتولية تماماً ؛ ولم يواجه معاركها ، وما استطاع العزوف عن الزواج وعشرة النساء ، ولم يجسر أن يجازف برمي نفسه في بحر البتولية المجهول .

وإبراهيم ذلك البطريرك العظيم الذي ضحّى بابنه الوحيد والذي أقدم على أشد الأعمال رعباً لقلب الوالد ، سهل عليه أن يأخذ ابنه الوحيد ، ووريثه الوحيد وهو في زهرة العمر وغضاضة الصبا ، وأن يقوده إلى أعلى الجبل حيث بنى هناك المذبح ، ورتب الحطب ، ووضع فوقها الضحية ، وأمسك السكين ليدفنها في عنق ولده .

أجل ! هم أن يدفن السكين في عنق ابنه وأن يغمسها بدمه بقلب كأنه النحاس . وماذا أقول ؟ بل أشد قساوة من النحاس ، لأن قساوة النحاس هي طبيعية ، في حين أن ابراهيم قد سلب الطبيعة قساوتها ، وتغلب على المشاعر الطبيعية كما لو كان من غير هذا العالم . ومع ذلك نرى أيضاً ان هذا الرجل الذي خاض مثل هذه المعركة حتى نهايتها ، وارتفع فوق الطبيعة البشرية (إذا جاز القول) هذا الرجل العظيم لم يحاول أن يقترب من معارك البتولية ، واجتنب لقاءها والنزول إلى ساحة قتالها فتزوج وتعزى بالزواج واستمتع به .

ولنتمثل الآن أيوب المتفرد في استقامته وتقواه الذي كان يتنكب عن كل أمر رديء ، والذي أغار الشيطان مسلكه ، وسرعان ما استشرى ضده ، فتساقطت عليه السهام كالبرد حتى فرغت جعبته ، فتلقاها ذلك البطل من غير أن يكبو .

لو جمعنا أعظم مصائب الدنيا وويلاتها التي يمكن أن تمر بإنسان في حياته ، من فقر ومرض وثكل ، ونقمة الأعداء ، وجحود الأصدقاء ، والجوع ، والآلام الطبيعية الدائمة ، والشتائم والسعايات ، وظن السوء وإيقاع الشبهات ، لو جمعنا كل هذه المصائب وصببناها على رأس شخص واحد كما انصبت على رأس أيوب الصديق لعرفنا قيمته وثباته ، وخصوصاً إذا عرفنا أن هذا الرجل هو أيضاً أقل الناس استعداداً لتحملها . وإليك بيان ما أقول : ان من يولد في أسرة فقيرة ويتربى في الفاقة فإنه يسهل عليه تحمل هذا العبء وتلك المشقة ، بالنظر إلى تعوده عليه من فجر حياته ولممارسته هذه الحياة وقتاً طويلاً كأنه أصبح شيئاً مألوفاً . في حين أن الذي يرى نفسه إلى ذلك الوقت غارقاً في الغنى ، والمال متوفر بين يديه ، ثم يحرم من كل شيء فجأة ، ويصير إلى الفقر المدقع بعد اليسار العظيم ، لا يستطيع أن يتحمل هذا التغير العاجل الذي لا بد أن يبدو عليه من القسوة بمقدار ما كان عليه من عدم الاستعداد له .

وهكذا القول في الرجل الخامل الذكر المولود في بيت وضيع ، والمعتاد أن يعيش في وسط المهانة والاحتقار ، فإنه لا يتأثر كثيراً بالشتائم والإهانات . وأما من يكون مثل أيوب ، عائشاً إلى الوقت الذي ابتلي فيه ، في العزة والمنعة والجاه العريض ، يحيط به المجد من كل جانب ، ويفيض عليه الثناء من كل فم ، ثم يسقط في المهانة والاحتقار ، فيكون له من ألم السقوط مثل ما يكون للغني الذي يسقط بين عشية وضحاها ، من الغنى إلى الفاقة .

ولنقل الأمر نفسه فيمن يفقد أولاده . فقد يفقدهم كلهم ، ولكن في أوقات متباعدة بحيث يجد فيمن بقي له بعض التعزية عن فقده الآخرين . وعندما تخمد جذوة الحزن في قلبه ، ويفاجئه الموت بولد آخر ، فإن الحزن يكون أخف وطأة لأن الضربة الجديدة تقع على جرح مندمل ، وهذا ما يخفف ألم الجرح الجديد .

أما أيوب فقد فوجىء بفقد أولاده جميعاً في لمحة الطرف ، وفي ميتة من أقسى الميتات هولاً . دهمهم الموت الطاغي وهم في زهرة العمر في مكان وزمان جعلا الفجيعة أشد وقعاً وغماً . أما الوقت فكان وقت وليمة ، وأما المكان فكان

البيت الذي يستقبلون فيه أضيافهم وأصحابهم ، فانقلبت الوليمة مأتماً وصار البيت مقبرة !

وكيف لي الآن أن أصف هذا الجوع الجديد من نوعه الذي كان ذلك الرجل القديس مجبراً على تحمله ، ذلك الجوع الذي يصعب عليّ أن أفسره ؟! ولست أدري أي اسم أطلق عليه وبأية عبارة أعرِّف هذا الأمر الغريب ! فما كان يقترب من المائدة التي تقدم له ، وما كان يمس الطعام الذي يوضع أمام عينيه ، ذلك لأن الرائحة الخارجة من قروح جسده كانت تخطف له كل شهية إلى الطعام ، وتزيده نفوراً منه . وكان يقول : « لست أرى طعاماً أمامي ، ولست أرى غير هذه الرائحة الكريهة الدائمة » (أيو ٦ : ٧).كان الجوع يضطره إلى التهافت على الطعام ، ولكن النتانة الشديدة كانت تسلبه كل شهية !

وكيف السبيل إلى وصف الآلام التي كان يصابرها والدود الذي كان يسعى في قروحه ، وما كان يسيل منها من قيح لا ينضب ؟ وكيف لي أن أصف شماتة أصحابه به وملامتهم له ، وسوء المعاملة التي كان يلقاها من أهل بيته وذويه ؟ « يكرهونني ويبتعدون عني ولا يستنكفون عن البصاق أمام وجهي »(أيو ٣٠ : ١٠).

أوَلا تبدو لك هذه الآلام وتلك البلاوى أقسى من أن تحتمل ؟ أنها كذلك بلا شك .

والآن هل يمكن أن نعرف آلامه وما كان يضيق به أشد الضيق ويطفح به جام تعاسته ؟

ان الأمر الذي كان يمرمر نفسه ، ويقلق فكره ، ويعذبه أكثر من أي شيء آخر ، إنما كان ارتياح ضميره إلى أنه لم يفعل شراً ، وجهله سبب مصائبه : هذا ما كان يثير فيه عاصفة داخلية هائلة ويظلم عقله ، ويضيع ربان قاربه ، ويضيق عليه أنفاسه ، ويجعل له الآلام غير محتملة !

وفي الواقع ان الذين يعرفون أنفسهم ملوثين بكثير من الجرائم ، لا يهمهم أن يلتمسوا للمصائب التي تغشاهم سبباً . فخطاياهم ماثلة أمام أعينهم تزيل

كل لبَسٍ وحيرة في عدالة ما أصابهم .

ونقول زيادة على هذا ، أن الأبرياء الذين يجّربون بالمصائب ، وهم مؤمنون بالآخرة ، ومعلقون الآمال على المكافآت التي تذخر لهم بدل آلامهم ، يكونون مطمئنين إلى أن مصائبهم إن هي إلا تجارب وأسباب لآلاف الجوائز والمكافآت .

ولكن أيوب المرتاح الضمير من جهة ، والذي لم يكن يدري شيئاً عن الآخرة من جهة أخرى ، كان يجد نفسه محمولاً في زوبعة من الشك ، جاهلاً سبب آلامه . وكان هذا الجهل آلم على نفسه من جراحه وأوجاعه .

إن لذة التكلم عن أيوب ساقتني إلى البعد عن موضوعي . وإن ما أريد أن أنقله إليك من خبر أيوب الصديق هو أن أبينّ لكِ كيف أن هذا الرجل العظيم الذي كان في مثل هذا الصلاح ، وفي مثل ذلك المستوى من الصبر ، والذي داس برجليه كل ما في الطبيعة من حدة وقسوة ، لم يجسر هو أيضاً أن ينزل إلى ساحة الصراع مع البتولية ، فقد تزوج امرأة وصار أباً لأبناء كثيرين . وأكرر ما قلت إن دون حفظ البتولية صعوبة عظمى ومعارك قاسية وجهاداً جباراً !

وما أقصد إليه أخيراً من كلامي هو أن أبرهن لك أن كثيراً من النساء اللواتي ثبْتنَ بشجاعة في معارك هذه الفضيلة التي تكاد تكون مستحيلة ، قد غُلبنَ بالتبرج وخسرنَ أنفسهن ، إذ خضعن للزينة أكثر من نساء العالم . ولعلك تقولين لي : بل إنهن لا يحملن الذهب في أيديهن ، ولا يلبسن الألبسة المزركشة بالذهب والعقود المنظومة بالحجارة الكريمة ، فأجيبك بأن هناك ما هو شر من كل هذا كله . وما يظهر عمق شرهن ، وحيلة مقصدهن في جموح العاطفة هو أنهن يجربن ، بل يجتهدن أن ينافسن بألبستهن البسيطة المتواضعة أجمل المتزينات بالحرير والذهب ، ويلتمسن أن يجدن ، حتى في بساطة ملابسهن ، واسطة لأن يصرن أكثر فتنة وإغراء . وهذا سلوك ناعم يفتح أمام الإنسان مزالق عميقة . ولأجل هذا يجب ان تمدحك آلاف الألسنة بالمقابلة إلى مثل هؤلاء أنت الأرملة البسيطة التي أحرزت ، كما نرى ، مثل هذا الانتصار السهل ، حيث لاقت العذارى معثرة لهن وسقوطاً وانهزاماً ؟

إن ما أكبره فيك ليس فقط زهدك، الذي لا يصدق ، في الملابس التي لا تعدو ثياب الفقراء في مظهرها الفقري وفي رثاثتها ، بل أيضاً ، وعلى الأخص عدم تفتيشك مطلقاً عن الملابس وعدم اهتمامك بها كأنه أمر لا يخطر في بالك ماذا تنتعلين وكيف تمشين . وهذه هي العلامة على كمال فضيلتك . قال الحكيم : « الإنسان يُعرف من ثيابه وضحكه ومشيه » (أمثا ٢٩ : ٢٧). لأنكِ لو لم تطّرحي ، إلى حد بعيد ، كل ما تواضع عليه الناس جهلاً ، من عادات وتقاليد ، ولو لم ترتفعي إلى مثل هذا الاحتقار لأشياء العالم ، لما كنت غلبت هذه الرذيلة التي لا تستأصل . ولست أقبل ان يتهمني أحد بالمبالغة حين أتكلم عن فظاعة هذه الخطيئة في هذا العصر المسيحي .

إذا كانت هذه الخطيئة، خطيئة التبرج ، قد استلزمت العقاب على النساء العالميات في زمن العبرانيين وتحت الناموس القديم، فماذا نقول عن النساء اللواتي يتبعن ناموس النعمة ، وهن من أهل مدينة السماء والمفروض فيهن تقليد عيشة الملائكة ؟ وأي مبرر لتلك الخطيئة في مقدار حجمها وسعة دائرة تشكيكها ، وكيف نحسب صاحبتها بتولاً وعذراء ؟ هي بنت عذراء وأنتِ إمرأة متزوجة ومترملة ! فتلك العذراء التي ترتدي الملابس الطويلة ذات الطيّات والتجاعيد الكثيرة ، تجر أذيال ثوبها على نحو الحال التي ينكرها النبي على نساء صهيون ، وفي مشيتها وخطراتها ما يستثير الشهوة ، وفي صوتها وعينيها وكل حركة من حركاتها ما يسكب السم في أنظار الفاسقين ! هذه العذراء التي تحفر الحفر في كل يوم ، وتنصب الحبائل في سبيل المارة ، هل لنا أن نسميها عذراء ، أم أن نحتسبها في مصف البغايا ؟ وماذا أقول ؟ ان البغايا هن أقل خطراً ، إذ ليس على صنارة صيدهن طعم كثير مثل أولئك ، ولا ينشرن مثلهن في كل مكان الفتنة والإغراء . ولأجل هذا أنا أهنئك وأكبر فيك هذا النصر المبين الذي أحرزته وأضفته إلى سلسلة انتصاراتك كلها . وإنك لفي بأس الرجال . حين يستسلم غيرك لطبيعة الضعف الأنثوي ، وحين يسعين وراء الزينة والتبرج تتسلحين أنت بالفضائل . إن الأسد يعرف من مخالبه . وقد حاولت أن أبرهن أنك تعرفين من ملابسك . ولك في هذا فضيلة لم أستطع أن أتم وصفها . وأعتقد أني ما زلت بعيداً عن الإحاطة بها وسبر غورها .

أما عامة فضائلك فإنها كما قلت لك آنفاً ، بحار لا حد لها ولا أريد أن أقتحمها . وبالتالي فإن مقصدي الآن ليس أن أعمل لك تقريظاً ، بل أن أهيء لك بلسم التعزية .

فلنعد إذن إلى ما قلناه قبلا . ماذا قلت لك في أول الكلام ؟ لا تهتمي بخطيئة هذا أو ذاك، بل فليكن لك ، نصب عينيك ، التأمل في منازلاتك العدو وقوة نفسك وصبرك وتقشفاتك وإماتاتك وصلواتك وأسهارك المقدسة ، وسيطرتك على نفسك ، وحسناتك الكثيرة وإخلاصك وحنوك على الغرباء وتجاربك المتنوعة الكثيرة . . . تذكري أنك ، منذ نشأتك ، ما برحت تقدمين الخبز للمسيح في جوعه ، وتسقينه في عطشه ، وتكسينه في عريه ، وتؤوينه في غربته ، وتعودينه في مرضه ، وتزورينه في سجنه .

تذكري فيض إحساناتك وعظيم محبتك التي لا قرار لها ، والتي انتشرت إلى أطراف المعمور . تذكري بيتك الوحيد المفتوح لعابر السبيل من البر والبحر. وسخاؤك فتح أبواب الضيافة إلى طوائف المسافرين والقادمين .

ألا تذكّري كل هذا ، واجعليه حاضراً أمام عينيك ، وافرحي وارقصي طرباً بانتظار الأكاليل والجوائز التي استحققتها .

أذا أردت أن تتصوري من جهة ثانية ، معاقبة أهل النفاق الذين تكلمنا عنهم،أولئك الذين سكروا من دم الأبرياء ، أولئك الأشقياء البائسين بأفدح الخطايا ، فسترين ما يكفيك مرآه يوم القضاء العادل الرهيب .

إن لعازر قد رأى الغني الرديء يتخبط وسط اللهيب . واختلاف نوع معيشتهما قد باعد بين موضع كل منهما : «هوة عظيمة كانت تفصل بينهما لأن الواحد كان في أحضان إبراهيم ، والآخر في الجمر الذي لا يخمد سعيره» ،غير أن لعازر رأى الغني الرديء وسمع صوته وأجابه . وهكذا سيكون الأمر معك في ذلك الوقت وسترين ما رآه .

فإذا كان احتقار رجل واحد سبب للغني مثل هذا العذاب ، وإذا كان من جهة ثانية ، من يشكك أحد هؤلاء الصغار ، فمن الخير له أن يعلق في عنقه حجر

رحى ويُطرح في البحر، فماذا يكون نصيب الذين يشككون المسكونة بأسرها، ويبلبلون الكنائس، ويخلقون الفوضى والإضطراب في كل مكان؟ وقد تجاوزوا بقساوتهم وقلة إنسانيتهم القراصنة والبرابرة وهاجوا تحت قيادة إبليس، وبرفقة جنوده إلى أبعد الحدود بالجنون والأراجيف والهذيانات حتى جعلوا من كنيستنا الشريفة المقدسة موضوع هزء وسخرية لليهود والوثنيين؟ ماذا يكون نصيب هؤلاء الذين شككوا آلاف النفوس وأهلكوا الآلاف المؤلفة في كل المسكونة، وأضرموا مثل هذا الحريق الهائل، ومزقوا جسم المسيح، وشتتوا أعضاءه مع كل ريح؟ لأن الرسول بولس يقول:« أنتم شركاء في جسد المسيح لأنكم أعضاء في جسده » (١ كو ١٢ : ٢٧).

ولكن ما إجهاد النفس في وصف ما لا يمكن وصفه من مصير هؤلاء الناس الأشقياء؟ وأي عقاب يمكن أن يتصور سيحل بهؤلاء الأشقياء الذين ابتُلي العالم بهم، هؤلاء الوحوش المتعطشة الى الدم؟ فإذا كان الذين لم يعطوا المسيح خبزاً في جوعه سيحكم عليهم بالنار الدائمة مع إبليس، ففكري إذن في العذاب الذي ينتظر من يميتون الرهبان والراهبات من الجوع، والذين بدلاً من أن يضيفوا أخوة المسيح، لا يكتفون بأن يغلقوا دونهم أبوابهم، بل يطردونهم من مساكنهم الخاصة، وبدلاً من أن يكسوهم في عريهم، قد عروهم هم أنفسهم من ثيابهم، وبدلاً من أن يعودوا المرضى في مرضهم قد أرهقوهم بأمراض أخرى، وبدلاً من أن يواسوا المساجين في إسارهم، قد كبلوهم بالقيود، وأودعوهم غياهب السجون؟!

أجل سترين يومئذ هؤلاء الطغاة يَصْلَوْنَ تلك النار الحامية ويحترقون فيها، ويحاولون أن يفكوا قيودهم الثقيلة، ويصرفون بأسنانهم وينتحبون ويندمون، ولات ساعة ندم، ويستتيبون ولات ساعة توبة، إذ يكون قد حكم عليهم، كالغني، بالنار لا مخرج لهم منها.

وأنهم هم سيرونكِ بدورهم جالسة في المجد مكللة بالإكليل، مترنمة مع الملائكة، ومالكة سعيدة مع المسيح، وسيقذفون زئيرهم ويطلقون صرخات نحيبهم الموجعة ويقرون لك بأسفهم عن كل شتائمهم ويتوسلون إليك لتأتي إلى

نجدتهم ويستصرخون إشفاقك وكرمك ، وكل هذا يذهب سدى . رددي لنفسك وراجعي كل هذا فلا يبقى أثر للجرح الذي أثخنك به الحزن المرير المضر .

ولكن ، لك سبباً آخر للحزن يتأكد لي بأنه ليس بالقليل . وسأحاول بأكثر مما أوردته من قبل ، أن أوافيك له بالدواء .

إن ما يحزنك أيضاً هو أنك منفصلة عني أنا الحقير الذي لا شأن له . وأنتِ لهذا محزونة أبداً ، وتقولين لكل من يغشى منزلك ولكل الناس : « أننا لم نعد نسمع له صوتاً ، ولم نعد نستمتع بدرر أقواله التي اعتدنا أن نغتذي بها . فها نحن نهلك جوعاً ، وقد تحقق فينا وعيد الله لآل إسرائيل قديماً . فها نحن لا ينقصنا الخبز الطبيعي ولا الماء الطبيعي ، بل منَ الأقوال الإلهية» .

وبماذا عساني أجيبك ؟ وقبل كل شيء تستطيعين أن تستعيضي عن غيابي بقراءة كتبي . ثم إني أجتهد ، في كل مناسبة تسنح ، أن أبعث إليك بالرسائل المطولة .

وبعد ، فإذا كان يشوقك أن تسمعي صوتي نفسه ، ففي الأيام متسع إذا سمح الله بأن أراكِ ويتم فرحك . فقد يكون محققاً ، بل سيكون من المحقق ، بإذن الله ، أنكِ سترينني ، فلا تشككي في ذلك لحظة . ولست أتكلم بغير تفكير ولا أحاول أن أخدعكِ ، ولا أقول شيئاً مخادعاً . فسيأتي يوم أقول لك بصوتي الحي ما أكتبه اليك اليوم .

وإذا وجدت الانتظار طويلاً وقاسياً فثقي بأن هذا الانتظار لن يكون بدون فائدة ، وأنه يعظم جوائزك إذا أنت عرفت كيف تتحملينه بغير تذمر ، وإذا كنت تقدمين به مجداً لله ، كما تفعلين في كل حال . إنه معاناة الانفصال عن الذين نحبهم وهو ليس بالأمر اليسير ، فإنه معركة قاسية يلزمها قوة نفس وكمال فضيلة . وأنا الذي أكلمك أعرف من هذا بعض الشيء . وكل من أحب حباً حقيقياً ، ومن يعرف قوة التعلق الحقيقي ، يفهم ما سأقوله .

لا نكلف أنفسنا عناء التفتيش في كل موضع عن الرجال الذين في حياتهم

ما يصلح لأن يكون شاهداً على ما أقول (وهم قليلون مع الأسف) بل فلنستشهد القديس بولس ، وهو نفسه يقول لنا ماذا يكلف مثل هذا الإنفصال عمن نحب وأية نفس تستطيع أن تثبت له .

كان بولس متعرياً ـ إذا جاز لنا أن نقول ـ من اللحم والدم . وكان كأنه أنكر جسده ، حتى يمكن أن يقال انه لم يكن سوى نفس تتردد في العالم ، وقلبه خلا من كل شهوة وهوى . وفي مثل هدوء الأرواح الملائكية ، كان يحيا على الأرض حياة سماوية . وكان يعيش في رفقة الشيروبيم ، يشاركهم في أنغامهم السرية . وكان يحتمل كل الاضطهادات كأن جسده لا يخصه : السجن والقيود والنفي والتشريد والتهديد وخوض البحار والضرب والرجم والموت وما كان يتأثر من شيء أو يخشى شيئاً . كان يتحمل كل هذا ولكن انفصاله عن عزيز عليه كان كافياً لأن يقلقه ويعذبه إلى حد أنه لم يستطع البقاء في مدينة جاء ليكرز بالإنجيل بين أهلها . فإذا هو مجبر على مغادرتها حالاً . ذاك خبره في طروادة إذ يقول : « ولما وصلت إلى هنا ، تقدمت للكرازة بالإنجيل ففتح لي أهلها الأبواب باسم الرب ، غير أني كنت قلقاً ولم تكن لي راحة في روحي لأني لم أجد تيطس أخي حتى أني اضطررت إلى توديع هؤلاء الرجال الصالحين والسفر إلى مكدونية » (٢ كو ٢ : ١٢ ـ ١٣).

لله أنت يا بولس ! ماذا تقول ؟ لَكَم شوهِدتَ في غير هذا المكان مكبّل الرجلين بالسلاسل ، ومطروحاً في السجن ! ولكم شوهِدْتَ وقد انطبعت اللطمات والصفعات في لحمك، وسال الدم فوق منكبيك وظهرك ، فما فَلّ عزمك ، وبقيت تواصل التعليم والكرازة والتعميد وإقامة الخدمات المقدسة ، وما كنت تريد ، إذا امكنك ، أن يفوتك تخليص نفس واحدة . فكيف بك الآن ، وقد قدّموا لك ، في طراودة ، أرضاً جيدة مسوّاة ومهيأة لاقتبال البذار ، قدموا لك صيداً كثيراً ، ولم يبقَ إلا أن تلقيَ الشبكة ، كيف تدع مثل هذه الغنيمة تُفلت من بين يديك ، وفي حين أتيت ، لا لغرض آخر ، إلا لتكرز بالإنجيل ، فما صادفت في سبيلك مانعاً ، ولا أغلق في وجهك باب ؟ أترى تجيبني عن هذا حالاً ؟

أجل ! يجيب الرسول : إن حزناً عظيماً قد استولى عليّ لعدم وجود تيطس الحبيب . وما أجبرت على المغادرة إلا حين وجدتني مغلوباً لا أستطيع أن أحتمل ما بي من الشوق والموجدة . هذا هو جواب الرسول الصريح.« أجبرت على توديعهم وسافرت . .» .أرأيتِ كم من الصعب احتمال الانفصال عمن نحب !؟ أريأتِ كم هو قاس وشديد ، وأنه يتطلب نفساً عالية وبأساً أشد منْ بأس الرجال !؟ هذه هي التجربة التي تمرين بها الآن . ولكن الإكليل يجمل ، والمكافأة تعظم بمقدار ما تعظم التجربة ، ويجمل الصبر .

هذا هو عزاؤك في انتظارك . وهذا ما سيزدهر به فرحك حين أراكِ وأنت تحملين الإكليل فوق جبينك ، ويُعلنُ أمامَ الملأ انتصارك . لا يكفي ، لمن يتحابّون في المسيح ، أن تكون الأنفس متحدة بربط المحبة . وربط الاتحاد النفسي لا تعزّي عن انفصال الأجساد ، والفرح لا يكون كاملاً ما دام يُفصل بين الواحد والآخر . وهذا ما نجده وارداً عند القديس بولس ذي القلب الزاخر بالمحبة . فقد كتب لأهل مكدونية يقول لهم : « وأما نحن أيها الأخوة إذ قد تيتمنا لعدم رؤيتكم ،بالوجه لا بالقلب ، وقتاً قصيراً،اجتهدنا كثيراً وباشتياق كثير ، أن نرى وجوهكم .لذلك أردنا القدوم إليكم أنا بولس مرة ومرتين ولكن عاقنا الشيطان »!(١ كور ٢ : ١٧ - ١٨).يا لقوة التعبير في هذه الكلمات ! وكم تكشف لنا عن كنوز من الحنو ينطوي عليه ذلك القلب ، قلب بولس! فإنه لا يقول « أنا منفصل عنكم أو بعيد عنكم » بل إنني أشعر كأني يتيم في بعدي عنكم . وهكذا نراه التمس أوفى العبارات بالدلالة على حزنه . فإنه وإن يكن أولى به كونه أباً لهم جميعاً ، يتكلم كأنه ولد صغير فَقَدَ في سن مبكرة أباه . وذلك ليحسن التعبير عن عمق حزنه . فليس أحزن للنفس من اليتم في السن الباكرة حين لا يستطيع الإنسان أن يقوم بأمر نفسه ، وحين لا يجد أحداً يهتم به ، بل يجد ، على العكس ، الناس من كل جهة يهاجمونه وينصبون له الحبائل وحين يكون كالحمل بين الذئاب المستعدة أن تثب عليه من كل جهة لتمزقه وتفترسه . وما من عبارة تفي بالتعبير عن مدى هذا الألم . ولأجل هذا فإن القديس بولس حين التمس ما يعبر به عن وحدته وحزنه لم يجد عبارة غير هذه العبارة عن شكواه مرارة الانفصال عن الذين يحبهم .

وليست العبارات التالية أقل دلالـة وقـوة أو أضـعف أثـراً في النفس من سابقتها . فإنه لم يقل : « أنني أشعر أنني يتيم لأني تركتكم منذ زمن طويل » بل لوقت قصير فقط . فليست المشكلة عنده مشكلة افتراق القلوب ، ولكنها فقط مشكلة ما يلاقي من الألم لعدم رؤيتهم في مدى وقت قصير ، غير أن هذا يكفي لأن يثير في نفسه حزناً لا يُغلب .

ـ ماذا تبتغي إذن؟ وما هي رغبتكَ ؟ وهلاّ أفصحتَ لنا عنها مهما يكن فيها من مبالغة؟ فاسمعه يجيب : ليس لي من رغبة إلا في أن أراهم.

ـ وما تقول أيها الرسول العظيم!؟ لله أنت ما أعجب أمرك! لقد صلبت العالم فيك ، وصُلبتَ أنت عن العالم ، ولقد تنكرت لكل ما هو من لحم ودم حتى لكأنك بلا جسد، وإذا بنا ، مع كل هذا، نراك مأخوذاً بقلبك وعاطفتك حتى تتنزّل نحو هذا اللحم ، نحو تراب الأرض وطين الحس والحواس؟

ـ أجل! ولست أخجل من أن أقوله بل أحتسبه لي فخراً . هذه هي العاطفة يطفـح بهـا قلبـي ، وتلك هي المحبـة ، منبـع كل فرح ، تجعلنـي أسعـى إلى رؤيتهم . .

ـ أ إلى أوجههم إذن تحس بك الحاجة؟ أأوجههم هي التي تريد أن تراها؟

ـ نعم! وإنها لحَاجةٌ ملحـاح. ذاك أنـه في الوجـه تجتمـع كل العـواطف والأحاسيس . وإذا ما رغبت نفس أن تجتمع بنفس أخرى ، فإنها لا تستطيع ، بغير الحواس ، أن تتكلم وأن تسمع . وكيف تريد أن أتكلم مع الكائن الذي أحبه ، وأن أسمع صوته ، إذا لم يتهيأ لي الاستمتاع بحضرته ؟ ولهذا فأنا أرغب في رؤية هذا الوجه الذي منه تنطلق نغمة الصوت الذي أحبه . ولهذا أيضاً فأنا أرغب في أن أسمع هذا الكلام الذي يبوح بأسرار هذا القلب ، وأن أنظر إلى هذا الوجه حيث الأذنان تقتبلان أقوالي ذاتها ، وحيث العينان ترسمان على مرآي جميع اهتزازات النفس وتأثراتها . فلست أستطيع ، على الحقيقـة ، أن أسر وأفـرح بأحبائي إلا وجهاً إزاء وجه . ولاحظي كيف يحترق بهذه الرغبة إلى رؤيتهم ! ثم ترين أن بولس ، لكي يظهر نفسه على المساواة مع الآخرين في حبهم وأنه لا يطيق

صبراً على أن يقول لهم أنه يحبهم أكثر من الجميع ينتقل إلى الإفراد بعد أن قال « نحن » فيقول : « أنا بولس جربت مرة ومرتين أن أذهب لأراكم». وذلك لكي يفهمنا أن رغبته كانت أشد بكثير من رغبة سائر أصحابه .

وأخيراً فإنه ، لأجل تحقيق رغبته ، لا يكتفي بأن يكتب إلى أحبائه المكدونيين ، بل يريد أن يرسل لهم عوض الرسالة أول منتخبيه وتلميذه تيموثاوس قائلاً : « حرمت نفسي من تيموثاوس لأرسله إليكم».وهذه عبارة تنفلت حقيقة من قلبه ، عبارة قوية تظهر حباً ما كان يستطيع أن يسيطر عليه وألا يبوح به .

وكما أن الرجل الذي أصابه اللهيب يلتمس جميع الوسائل ، ويعمل كل ما يمكنه لكي يخفف لذع الحريق الذي يضايقه ، أمسك بأولى وسيلة واتته :« أرسل لكم تيموثاوس كأنه يقول «سأقتطع مني هذا العضو الضروري وأستبدل الملأ بألم ». ولكي تعرفي أنه كان من الصعب عليه أن ينفصل عن تيموثاوس وأن إرساله إليهم يكلفه تضحية كبرى ، فتأملي فيما استعمل من التعبير : « فإني أرضى أن أبقى وحيداً في أثينا».يا له من قلب كله حنو ومحبة ! إنه إذ ينفصل عن واحد من إخوته ، يحتسب نفسه وحيداً مهما يكن حوله من الناس !

هذا ما يجب أن تتأمليه بغير انقطاع . وعلى قدر ما يصعب الانفصال ، على قدر ذلك تعظم المكافأة . إذ كنت دائما تشهدين بفضل ربك وتشكرينه ، فليست آلام الجسد وحدها هي التي تكسبنا الأكاليل ، بل ان آلام النفس تكسبنا الأكثر من الأكاليل إذا نحن تقبلناها بشكر . وإذا أنت أسلمت جسدك للجلد والتمزيق ، وتحملت ذلك بشجاعة وقدمت شكراً ومجداً لله تعلمين أنك ستنالين عن عذابك مكافأة عظيمة . أما إذا كانت نفسك هي التي تتألم الآن فانتظري مكافأة أعظم .

احسبي أنك ستريني من جديد ، وأنك تخلصت من كل أحزانك ، وأنك أخذت أجركِ وافياً . فتعزي منذ الآن . والواقع أن من كان في مثل ذكائك وفطنتك وتقواك العميقة ، وتجردك وإنكار الذات ، ومن كان مثلك قد داس برجليه أباطيل الدنيا فإن الشفاء له من الحزن أمر يسير .

برهني لي أنك تحبينني بسماعك أقوالي ، وبرهني لي أن لكلامي تأثيراً عليك كما لو كنت لا أزال أتكلم أمامكِ ، وإنه ليتبرهن لي ذلك إذا أنت أخبرتني أن رسائلي تكون خيراً لك ، وأكثر من الخير. وكل الخير الذي أتمنى أن تستخلصيه منها ، وجل ما أتمناه لكِ، هو أن تستعيدي الفرح الذي كان لك سابقاً .

وإذا أنتِ أخبرتني هذا النبأ فسيكون لي تعزية كبرى في وحدتي . وإذا كنت ترغبين أن تكون الحياة سهلة عندي (وأنا أعلم أنكِ ترغبين لي هذا من كل قلبك) فبيّني لي أنك قد نظفت كل الحزن الذي في نفسك ، وأعطني مكافأة إخلاصي ومحبتي لك لأنك تتأكدين جيداً أنك تجددين فيّ الحياة عندما تكتبين لي أنه قد عاد حقيقةً الفرحُ والهدوء الى نفسك .

الرسالة التاسعة

كيكيز، آخر ٤٠٤

إن الجسد الذي صارع شدة الحمّى ، والبحر الذي صارع الرياح العاتية ، لا يجدان فوراً : الأول الراحة بعد الحمّى ، والثاني السكينة بعد العاصفة . فالراحة والهدوء لا يعودان عادة إلاّ في بطء وعلى مهَل . ويحتاج الجسد إلى وقت ، بعد ذهاب الحمى لكي يستكمل الصحة والعافية ، ويتخلص من الضعف والخمول الذي يعقب المرض . كما أن الأمواج أيضاً تبقى ، حتى بعد مرور العاصفة ، إلى مدة يسيرة ، في اضطراب واهتزاز شديدين هائمةً بحركة عنيفة من المد والجزر ، ويلزمها أيضاً ما يكفي من الوقت لتعود إليها سكينتها التامة . ولست أسوق هذه المقدمة بغير ما سبب فإني أريد أن أقول لك أني أرى من الضرورة أن أكتب إليك أيضاً هذه الرسالة . فقد تكون رسائلي السابقة عملت على انتزاع الحزن الذي كان يسيطر عليك ، وقد تكونين غلبت هذا العدو الطاغية وقلبت حصونه ، ولكن مع هذا يبقى لنا شيء كثير نقوله ، ليساعدك على إقرار السلام الكامل في نفسك ، ويمحو منها الاضطراب الذي أقلقها ، وليوفر لها جواً صاحياً صافياً ودائماً ويعيد إليها كل الفرح الذي فقدته . ورغبتي الكبيرة ليست فقط في إقصاء الحزن عن نفسك ، بل في أن أملأكِ دائماً فرحاً كاملاً لا ينضب معينه .

وإني لناجح في ذلك إذا أنت أردت . ليس في وسعنا أن نعكس قوانين الطبيعة أو نغيرها ، ولكننا نستطيع أن نوجه اهتزازات النفس وتأثراتها في طواعية ارادتنا . وهكذا نستطيع أن نقودها نحو الشيء المفرح .

أنت تعلمين أنني كنت قد خصصت منذ أقرب وقت عدة أبحاث حول هذا الموضوع ركزتها على أحداث وشواهد كنت أتلقاها في ذلك الوقت .

إن سعادة المرء لا تتعلق بالحوادث والوقائع بل بإرادته . فكثيرون من الناس سابحون في بحر من الغنى يجدون ، مع ذلك ، أن الحياة عبء ثقيل لا يحتمل ، في حين أن آخرين يقضون أيامهم في وسط الفقر سعداء هانئين . وكثيراً ما نرى أمراء يلعنون الحياة ويضيقون بها ، وحولهم الحراس يحمونهم ، والأمجاد تحيط بهم ، ونرى إلى جانبهم من الخاملين وغير ذوي الشأن مَن يحسون أنهم أسعد خلق الله . وأعيد مرة ثانية أن السعادة لا تتوقف على الوضع الذي نكون فيه ، بل على الشعور الذي ننشئه ونغذيه في نفوسنا . فلا تضطربي إذن أيتها الأخت الحزينة . بل انهضي وامددي إليّ يدك وساعديني في مقاتلة حزنك وتحطيم عبوديته القاسية . والحقيقة أنه إذا لم تتجاوب إرادتك القوية مع غيرتي وحماسي ، فإن علاجي لا يفيد شيئاً . وما من شيء يدهشني ويحيرني سوى الفشل في هذه الناحية ، والناجم عن عدم إرداة من أعالجه . والله تعالى نفسه ، على الرغم من كل قدرته ، فانه يكثر من نصائحه ووصاياه ، فإذا لم يرد أحد أن يصغي إليها ، فلا ينذره الله بغير القصاص الهائل في العالم الآخر . وهذا ما قاله المسيح : « لو لم آت وأكلمهم ، لم تكن لهم خطيئة ، وأما الآن فليست لهم حجة في خطيئتهم » (يو ١٥ : ٢٢) .

ولأجل هذا السبب نفسه كان يبكي على أورشليم : « يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم يريدوا . هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » (متى ٢٣ : ٣٧ ـ ٣٨) .

إنك تعلمين كل هذا أيتها السيدة الجزيلة التقوى . فبادري إلى العمل ، واستعملي كل جهودك ، وجربي ، بمساعدة ما أكتبه إليك ، أن تدفعي عن نفسك ، وتطرحي بكل قواكِ ، الأفكار التي تعذبك ، وتلقي في نفسك

الاضطراب والتعكير . وإنك لفاعلة ذلك بإذن الله ، ومتبعة نصائحي . وما من أحد يشكك في ذلك.

فلا يبقى عليّ إلا أن أهيء الأسلحة والعدة التي تحتاجين إليها : السيوف والرماح والسهام والحراب من جهة والدروع والتروس والخوذات من جهة ثانية ، لكي تتقي بهذه ، وتضربي بتلك ، وتصرعي وتبيدي كل الأفكار التي تقلقك وتزعجك. ومن اين لنا بكل هذه الأسلحة، وعلى الأخص بتلك المقاليع لتقذفي بها أعداءك، وتمنعيهم من الاقتراب منك وأن تبقيهم على مسافة بعيدة منك؟ سنأتي بها من الحزن نفسه. وسأسوق إليك كلمة عن الحزن أحاول بها أن أظهر كل ما يمكن أن يحمل الحزن بين مطاويه من التباريح والتعاذيب! الحزن هو عذاب النفس. وهو الألم الذي لا يعبر عنه. وهو العقوبة والوجع اللذان يفوقان كل الأوجاع والعقوبات. هو دودة لا تكتفي بإتلاف الجسد ولكنها تقرض النفس أيضاً. وهو دودة لا تقتحم العظام وحدها فتنخرها، بل تقتحم العقل وتظلمه. وهو جلاد لا يكل، ليس يسلب الجسد حياته، بل يسلب النفس قوتها.

الحزن هو الليل الطويل لا ينجلي ، والظلمات الحالكة والعارض الدائم . هو حمّى غير منظورة تتلفك بدون أية حرارة . وهو حرب بلا هدنة . هو مرض يعمي ويخفي منظر العالم الخارجي في نظر الذين يصابون به . فكأن الشمس والسماء الصافية تزعجان النفس المحزونة ، والنهار ضاحياً ، لدى المحزونين ، كالليل حالكاً . (وأضحى النهار من الحزن عندهم كالظلمات الدامسات) . وهذا ما أنطق النبي بهذه العبارة الرائعة : « والشمس تغيب عندهم في قائلة النهار » (عاموص ٨ : ٩).وليس معنى هذا أن الشمس تختفي أو تختصر سيرها بغتةً ، ولكن النفس المحزونة لا ترى في بهاء النهار نفسه إلا الظلمات . زد على ذلك أن ظلمات الليل لا تداني في الشبه الظلمات التي ينشرها الحزن لأن الأولى ليست إلا من نواميس الطبيعة . وأما الثانية فتأتي من ظلام الأفكار . فهي ظلمات مخيفة لا تنتهي ، ذات وجه كالح وخد أصلب من خد أي طاغية . ومن عَزَم أن يتخلص منها يجد مشقة في تبديدها وملاشاتها . وهي تتطلب أنفساً فولاذية لكسر شوكتها .

ومالي أمضي في إجهاد فكري لأسهب في وصف الحزن على حين يكفي النظر

إلى ضحاياه حتى نقف على سوء فعله في النفس ؟ ومع هذا فاسمحي لي أن أقيم ، بطريقة غير مباشرة ، القياس بين الموت والحزن .

إن آدم قد حُكم عليه بالكد والعمل جزاء عصيانه الذي جر هلاك الجنس البشري . وأما حواء التي كانتَ خطيئتها أفظع فقد حُكم عليها بالحزن . وبما أن جريرتها أكبر فقد حُكم عليها بما هو أصعب إذ قال تعالى : « سأضاعف همومك وأحزانك وبالأوجاع تلدين الأولاد » (تك ٣ : ١٦).فنصيبها من الحكم عليها لم يكن بالكد والعرق بل بالتنهدات والأحزان وما يتفرع عنها مما هو أصعب، وماذا أقول؟ ، بل إنهأصعب من ألف شغل وألف موت .

وهل يوجد ما هو أشد هولاً من الموت ؟ أوَ ليس الموت ، في نظرنا ، أعظم من جميع المصائب ، وهو الذي يرجفنا خوفاً ، ولا نستطيع أن نرضى به ، وهو الذي يستنزف دموعنا أكثر من أية مصيبة أخرى ؟أوَليس في نظر القديس بولس قصاصاً لأكبر الجرائم ؟ ألم يكن في نظره العقاب المعد للذين يقتربون بغير استحقاق من السر الجليل المكرم ومن المائدة السرية المقدسة عندما قال : « من أجل ذلك فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يموتون » (١ كو ١١ : ٣٠)؟ أليس هو القصاص الذي يفرضه المشترعون على أكبر المجرمين ؟ أليس كذلك في الناموس الموسوي أكبر قصاص يخص الله به المجرمين ؟

أجل هو الخوف من الموت الذي خنق في قلب إبراهيم نفسه صراخ الطبيعة ، وجعله يسلم امرأته إلى الاهانة في البلد الغريب ، وإلى أهواء فرعون . وهو الخوف من الموت الذي صور له هذه المهزلة المخجلة وحتى أن يطلب من امرأته ان تقوم بهذا الدور المهين لها . ولم يخجل من أن ينقل إليها ما الذي حمله على هذا التصرف . « وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوني ويستبقونك . قولي انك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك » (تكو ١٢ : ١٢ - ١٣).فانظري فعل الخوف من الموت حتى في النفس الكبيرة ، كيف يهز هوله أصلب النفوس ، وكيف أن مجرد الخوف منه يصرع أقوى النفوس ! لقد أنكر إبراهيم أقدس العلاقات . وهذا الخوف حمله على جعل امرأته تقوم بدور

والأسف ، وتمزق خديها وتنفش شعرها ، وتصفّ حولها جوق خادماتها ليندبن وليس هناك من يسمع شيئاً . في طرفة عين كل شيء قد اختفى : النفس والعقل والتمييز . الوجه فقد نضارته والأعضاء مرونتها وحركتها ، والجسد متصلب كأنه قطعة واحدة . ثم تتعاقب الأحوال العجيبة على الجسد : السكوت وفقدان الحساسية وفساد الرائحة ، والدود والتراب والرماد والانحلال التام ، أعْظُمٌ بدون إسم ، رميم مختلط والفناء التام .

ومع كل هذا ، فإن الخوف من الموت الذي يتملكنا جميعاً ويُرجِف حتى القديسين الذين تكلمنا عنهم آنفاً ليس بشيء مقابل الحزن وبالقياس اليه . وإذا كنت قد تبسطت قليلاً في هذا الموضوع فلكي أُفهمكِ عظم التجربة التي تجتازينها ، ومدى المكافأة التي لا مثيل لها التي ستأتيك من جرائها .

ولكي أُتم تنويرك يبقى عليّ أن أعود ثانية إلى أعظم أمثلة الحزن التي كنت أريد أن أفزع إليها في أول الكتاب.

إن موسى حين جاء ليخبر العبرانيين بانعتاقهم من العبودية في مصر ، لم يستطيعوا أن يعيروه أذناً صاغية . والكتاب المقدس يبين السبب في ذلك إذ يقول : « فكلم موسى هكذا بني إسرائيل ولكن.لم يسمعوا لموسى من الحزن والعبودية القاسية » (خرو ٦ : ٩).وعندما يهدد الرب الذين عصوا ناموسه بالعقوبات الهائلة ، فإن آخر قصاص وأرهب قصاص الذي يذخره لهم إنما هو الحزن : « وأغرقهم في اليأس والاضطراب والحزن » (تثن ٢٨ : ٦٥).ولكن لماذا نتكلم عن اليهود وهم شعب منكود جحود ، عبد للجسد ، وجاهل للأمانة ، حين يكون متيسراً لنا أن نتخذ الشواهد من أكبر النفوس وأسماها ؟ فلنأخذ الرسل الذين عاشوا ثلاث سنين في صحبة المخلص وسمعوا كل ما صرح به عن الخلود وعن الأسرار الأخرى التي كانت إلى ذلك الحين مجهولة. وقد كانوا كل تلك المدة شاهدين على عجائبه. وقد اجترحوا هم أيضاً عجائب مدهشة لا تصدق. أجل عاشوا مع المسيح يساهمونه في مأكله ويحسون إخلاصه العميق، ويسمعون أحاديثه العذبة. فما ان سمعوا منه كلاماً يُدخل الحزن واليأس إلى القلوب حتى وجموا صامتين مكتئبين. الرسل الذين كانوا، إلى ذلك الحين، يعملون كل ما

بوسعهم أن يبقوا معلمهم عندهم دائماً، وكانوا يتعلقون بفمه تعلق الرضعان بأثداء أمهاتهم، ما انفكوا يسألونه كلما أحسوا أنه ينوي مغادرتهم: «إلى أين تذهب»؟ فقد وجدوا من الذعر والإنسحاق تحت وطأة الحزن الشديد بحيث أنهم لم يتمالكوا أن يسألوه. وهذا ما أدركه المعلم فيهم ولامهم عليه قائلاً : « فقد سمعتموني أقول ها أنا ذاهب إلى الذي أرسلني ثم آتي وأجدكم ولم يقل أحد في هذه المرة إلى أين تذهب؟ ولكن لأني قلت لكم إني ذاهب ملأ الحزن قلوبكم» (يو ١٦ : ٥ - ٦). فانظري هذا الستار الذي كفن به الحزن محبتهم، وكيف تملكهم الحزن واستعبدهم وإذا بهم يصبحون فريسة له!

لا بأس بأن أعود الى النبي إيليا مرة ثانية . فلقد لاذ هذا النبي العظيم بالفرار ، واعتزل القفر بعيداً عن فلسطين . وقد كان من الحزن والكآبة بحيث لم يكن يقدر على مقاومته (والحزن هو الذي جعله يهرب كما يحدثنا سفر الملوك) وإذا به يصرخ نحو الله : « يكفي يا رب ! أمِتني فلست أفضلَ من آبائي »(٣ ملوك ١٩ : ٤).فالموت الذي هو « بعبع » الرجل والضربة القاصمة الظهور ، والحكم الأفظع من جميع الأحكام ، وقصاص الخطيئة ، هو ما كان يلتمسه في صلاته من الرب ، وتلك هي النعمة التي كان يلح في طلبها من الله . وما ذاك إلا لأن الحزن أسوأ من الموت . ولما كان على النبي ان يختار بينهما فقد آثر الموت على الحزن .

ولا بد لي هنا من أن أعود لأرد على اعتراض قد يمر في ذهنك ، وقد يبدو لك اعتراضاً وجيهاً . وإني لأعرف فيك الميل إلى الاعتراضات وطلب الرد عليها . وأي اعتراض هنا ؟ إذا كان الموت أخف وطأة على قلب النبي من الحزن فلماذا سعى في اجتنابه حين اعتصم بالهرب بعيداً عن بلده ومواطنيه ؟ وكيف به يتمناه لنفسه بعد أن أراد ان ينجو منه قبل قليل ؟ إنما كان هذا لكي نتحسس ونتيقن جيداً بكَم من الهول يفوق الحزن الموت ! حين كان الخوف من الموت وحده يطارده فمن الطبيعي أن يسعى للخلاص من الموت ، ولكن لما جاء الحزن محل الموت لكي يسيطر وحده ، وحين أحس بالحزن يتأكله ويكاد يتلفه وشعر بيد الفراسة تمتد إليه ، وفمه ينفغر ليبتلعه ، وبكلمة واحدة حين أصبح لا يطيق على الحزن صبراً آثر عليه الموت .

وكذا القول في يونان النبي الذي رغب في أن يموت لكي يفلت من قبضة

الحزن : « خذ حياتي فخير لي أن أموت من أن أعيش » (يونان ٤ : ٣).

وداود النبي نفسه أراد أن يعبر عن الشيء ذاته حين تكلم عن نفسه أو عن شخص آخر غريق في الحزن . والألم الذي لم يطقه على الحزن أنطقه بهذا الطلب الصارخ : « عرفني أيها الرب كم هي أيام عبدك ». فها هو بطلب الموت أكثر من أي شيء آخر ، وكأنه يتكلم بلسان إيليا بعبارة ثانية ، وكأني به يريد أن يقول : « لماذا تبقيني بعد آبائي ؟ لماذا تتركني في هذا العالم وقد ارتحلوا عنه ؟» فهو مُلحف في طلب الموت حتى أنه عند نفاذ صبره ، يطلب على الأقل ، أن يعرف مدى الوقت الذي يفصله عن الموت . عرفني كم بقي من عمري حتى أملك على الأقل هذه التعزية . فالآلام والتعاذيب التي يجرّعنا إياها الحزن تتفاقم حتى تجعلنا نتمنى هذا الأمر المخوف الذي هو الموت .

واذا كنت تجتازين مثل هذه التجربة العظيمة ، تجربة الحزن والصبر عليه ، فانتظري اذن مكافأة أعظم واستحقاقات بدون عد ، وتعويضا لا يقدر ، وأكاليل لامعة ، وأزهاراً رائعة فوق جبينك ، فليست الأعمال الصالحة هي وحدها التي تكسبنا المكافأة ، بل التجارب والمحن أيضاً . بل اني لأعتقد أن المحن هي التي نستحق عليها أكبر المكافآت .

والآن أصل من الرسالة الى هذا القسم الذي أرجو أن يكون لك ولغيرك نافعاً في تعليمك الصبر ، ورباطة الجأش ، لكي لاتضعفي في المعركة أمام ألم المحنة .

أما وقد اتضح لنا جلياً أن الحزن هو أصعب المحن والتجارب ، وأمضُّ على النفس من أي شيء آخر ، فيبقى علينا أن نقابل بين الفضائل والمصائب، لكي نظهر أن مكافأة الآلام والصبر عليها هي أعظم من مكافأة الأعمال الصالحة .

فلنأخذ أيوب مثال الصبر في كل التجارب والمحن : ايوب ذا النفس الفولاذية والقلب الحجري الذي لم تتجاوز سمعته في حياته حدود امارته ، في أرض عوص (حوران) ولكن فضائله البطولية تلألأت في عيون أهل الأرض طُراً ، ولنقابل بين آلامه وبين فضائله ، ولننظر أيهما كانت له أظهر وأشهر .

وما هي فضائله ؟ وماذا كانت ؟ « ان بيتي كان مفتوحاً لكل من يغشاه وكل عابر سبيل كان يأتي منزلي » حتى يمكن القول ان أملاكه الكثيرة لم تكن تخصه بل كانت ملكا لكل المحتاجين . « كنت عيناً للأعمى ، وساقاً للأعرج وكنت أدافع عن الضعفاء وأنتزع لهم حقوقهم من فكوك الظالمين . . . وما خرج من بيتي انسان صفر اليدين » ، فترين هنا كل شكل من الاشكال التي اتشحت بها فضيلة إحسانه ، وجميع الوسائل والطرق التي كان ينفق فيها من ماله بسخاء . وهي تتلخص في مساعدة الجميع : إطعام الفقراء ، وحماية الأرامل واليتامى ، والدفاع عن الضعفاء وردع المغتصبين والظالمين . فما كان ليكتفي بأن يغار ويندفع لمساعدة الملهوفين والمُعتَفين[1] ، بل كان يمضي في حسن فعلته حتى النهاية: « دعوى لم تبلغني ، سعيت اليها ، وهتمت أسنان الظالم وانتزعت الفريسة من بين أسنانه » . فكأنه كان ملجأ حصيناً للضعفاء ضد القوة الغاشمة . وما كان يجرد قوته ومروءته ضد الرجال الظالمين فقط ، بل ضد غدر الدهر وجور الطبيعة ، محاولاً بتوسطه أن يعوض عن نقصها ويقوّم اعوجاجها . فاذا لم يكن يستطيع أن يرد للمقعدين اعضاءهم وحواسهم التي تنقصهم أي للعرج سُوقهم ، وللعمي أعينهم ، كان يعيرهم عينيه وأعضاءه الخاصة . وهكذا كان العميُ بفضله يبصرون ، والعرج يمشون ، وماذا عسى أن نجد نظيراً لهذا البر وهذه المرحمة ؟ !

وأنت تعلمين باقي فضائله التي اذا أتينا على تعدادها جميعاً يطول حديثنا عن صلاحه ولطفه ووداعته واستقامته واندفاعه ضد الظلم ، الامر الذي لم يمنعه (وهذا ما هو خليق بالدهشة والاعجاب) من أن يحفظ لطفه وهدوءه وعلاقاته الطيبة مع الجميع ، وعلى الأخص مع خدامه الذين كانوا يمحضونه محبتهم الى أبعد حد . واذا كان الى هذا الحد أثيراً وحبيباً الى خدامه (الذين يجب أن يشعرهم غالباً خوفه) ، فإلى أي حد كان يجب أن يكسب محبة سائر الناس ؟

أما وقد ألمنا بفضائل أيوب (وليس بكلها) ، فلنحاول ان نعدد تجاربه ومصائبه ، وأن نرى بمقابلتنا بين فضائله ومصائبه في أي وقت حاز على أكثر المكافآت ، أحين كان يمارس فضائله أم حين كان يصابر آلامه ؟

أجل في أي وقت كان أيوب خليقاً بالاعجاب ؟ أحين كان يفتح بيته لكل

(١) المعتفي: طالب الاحسان.

عابر سبيل أم بعد خراب بيته ولم ينبس ببنت شفة ، وجعل يبارك الله ؟ في الحالة الأولى كان يمارس فضيلة وأما في الحالة الثانية فكان يصابر محنةً !

ومتى كان أيوب أخلق بالاكبار والاعتبار ؟ أحين كان يقدم الضحايا عن أولاده ويحفظ بينهم اتحاداً قوياً ؟ أم بعد أن دفنهم جميعاً تحت أنقاض بيته ، وتلقى تلك الضربة القاتلة وتحمل المصيبة بأشد ما يكون الاحتمال والثبات وبارك الله ؟

ومتى كانت فضيلة أيوب أكثر تلألؤاً ؟ أحين كان يكسو عواري الأبدان بأصواف أغنامه ، أم بعد أن علم أن الصاعقة قد أفنت رعيانه وقطعانه فما تمرمر ولا تذمَّر ؟

ومتى كان أيوب أعظم ؟ أحين كان ملجأ للبائسين والفقراء فكان يستعمل صحته للذود عن المستضعفين وكان يكسر فكوك الغاصبين ، وينتزع منهم الفريسة، أم حين كان يرى جسده ممدداً فوق المزبلة مغطى بالقروح ومُرعىً للدود؟ في الحالة الاولى فضائل ، وفي الحالة الثانية مصائب . ولكن ألا يبدو لنا أن بهاء الحالة الثانية يكسف بهاء الفضائل ؟ ذلك لأن في الحالة الثانية وجهَ المعركة القاسي الذي يتطلب أكثر ما يكون من الشجاعة . يتطلب قلباً أقوى ، ونفساً أسمى ، ومحبة لله أوفر .

عندما كان أيوب يمارس الفضائل ، كان الشيطان يتجاسر ويتواقح ، ولكنه بعد أن رآه مطمئناً في كل بلاياه أدار ظهره خازياً مندهشاً وولىَّ هارباً من دون أن تجد وقاحته في هذه المرة كلاماً .

فالصبر على الشدائد هو عربون الأكاليل الجميلة لأنه قمة الفضيلة نفسها ، والبرهان الأسمى على الشجاعة ، ورباء التضحية وإنكار الذات .

وانظري أيضاً كيف أن الرجل القديس أيوب ، لكي يفهمنا ان الحزن الذي يسيطر عليه هو أردأ من الموت كان يدعو الموت راحة : « الموت هو راحة للجسد » (ايو ٣ : ٢٣) . وكان يطلبه بمنة كأنه حَسَنة لكي يتخلص من أحزانه : « حق المحزون معروف من صاحبه . يا ليت طلبتي تأتي ويعطيني الله رجائي . ما هي قوتي حتى أنتظر وما هي نهايتي حتى أصبِّر نفسي » (ايو ٦ : ٨ - ١٠) .

فكم هو حقيقي أن الحزن أرْهَق شيء للنفس : ولكن جائزته تعظم ، بمقدار ما يعظم ارهاقه .

هذا ولا حاجة بنا ، في آلامنا ، إلى أن نعرف السبب لهذه الآلام . (ولست أقول الا الحقيقة الراهنة) . فاذا تألمنا بشجاعة وبدون تذمر وبدون انقطاع عن حمد الله ، فان آلامنا يكون لها دائماً أجرها الأكبر . وان أيوب ما كان يدري لماذا أرسل الله له مصائبه ، ومع ذلك فقد كوفيء لأنه تحمل مصائبه دون أن يعرف سبب آلامه .

وماذا أيضاً ؟ وهكذا القول في لعازار المسكين ، فان أسقامه كانت طبيعية . ومع ذلك كان يطوي أحناءهُ على الألم بدون تذمر صابراً على اهماله من أية عناية ، وعلى آلام جراحه وسُعار جوعه ، وازدراء الناس له ، وقسوة الغني الرديء . وانظري ما كانت مكافأته .

لم تُعرف لِلعازر فضائل خاصة : فما ذكرت عنه الرأفة بالفقير ، والذود عن المظلوم ، ولا شيء من هذا القبيل ، بل قيل ببساطة انه كان مطروحاً على باب الغني . فما عرفناه بغير علامة أسقامه . وقيل أن الكلاب كانت تأتي لتلحس قروحه . ثم يذكر الى جانبه مسلك الغني الرديء ، وبعبارة واحدة ان قضيته لم تكن سوى قضية آلامه . الا أنه وان لم تذكر عنه فضيلة واحدة ، فان صبره على محنته قد ضمن له من الجزاء كما ضمنت للبطريرك العظيم ابراهيم ، فضائله العديدة .

وسأقول شيئاً قد يبدو غريباً ولكنه مع ذلك هو الحقيقة عينها : مهما تكن أعمالنا كثيرة وجليلة ، فانها لا تجدينا سوى فائدة بسيطة اذا نحن قمنا بها بدون تعب ولا مخاطرة ولا آلام . وقد قال القديس بولس الرسول : « كل انسان سيأخذ أجره على قدر مايتعب » (١ كور ٣ : ٨) ، أي ليس بنسبة جلالة الأعمال التي يأتيها ، بل بنسبة عظم المصائب التي يتحملها . ولهذا نرى بولس لا يفتخر بأعماله أكثر مما يفتخر بآلامه . فانه اذ كان أبعد من أن يعتقد بنفسه أنه دون بقية خدام الانجيل ، كان يعتقد انه قد تجاوزهم : «لأني لم أحْسَبْ أني أنقص شيئاً عن أكابر الرسل» (٢ كور ١١ : ٥) . ولكي يوضح ما يقول ، لم يقابل بين كرازته

وكرازاتهم ، وبين جلائل أعماله وجلائل أعمالهم ، بل راح يعدد آلامه وشدائده : «أخدام المسيح هم؟ فأنا أفضل. في الاتعاب أكثر، في الضربات أوفر ، في السجون أكثر . في الميتات مرات كثيرة . خمس مرات جلدني اليهود أربعين جلدة الأ واحدة . ضربت بالعصي ثلاث مرات . ورُجمت مرةً . وانكسرت بي السفينة ثلاث مرات ، وقضيت في اليم نهاراً وليلاً . بالاسفار مراراً كثيرة . بأخطار السيول ، بأخطار من اللصوص ، وأخطار من بني جنسي ، وأخطار من الأمم ، وأخطار في المدينة ، وأخطار في البرية ، بأخطار في البحر وأخطار من الاخوة الكذبة . في التعب والكد والأسهار مراراً كثيرة ، في الجوع والعطش وفي الأصوام مراراً كثيرة . في البرد والعري هذا فضلاً عما يتفاقم عليَّ في كل يوم من الاهتمام بجميع الكنائس » (٢ كور ١١ : ٢٣ ـ ٢٨) .

لقد سمعتِ تعداد مصائبه ، وفيها آية فخرِه . ثم يتكلم بعدئذ عن أعماله . ولكنه في ذكر أعماله أميَل الى ابراز الصعوبات والشدائد التي لقيها في سبيلها ، منه الى ابراز بهائها وفضلها . فبعد أن ذكر الاضطهادات يضيف قائلاً « والاهتمام بكل الكنائس ».لا يقول « ادارة كل الكنائس » الذي يعطيه مركزاً وأهمية، بل « الاهتمام بجميع الكنائس » حتى لا يسجل إلا أتعابه .

وهكذا قولي فيما يتبع هذا من الكلام : « من منكم يضعف ولا أضعف أنا؟» لا يقول « أنا أنهضه » بل « أضعف مثله ومعه » . « من يشكك منكم ولا أحترق أنا».فانه لا يقول « أسرع الى تخليصه » بل «أقلق أكثر منه». وأخيراً فلكي يتبين بوضوح أن الأكاليل الجميلة هي مذخورة جزاءً وفاقاً للعذاب او الألم يقول :«فاذا كان لي أن أفتخر ، فلا افتخر الا بضعفي ومصائبي ، وإلا بصليب ربنا يسوع المسيح».

فاذا كانت مصائبه وتجاربه هي التي تكفل له هذه المكافآت العظيمة واذا كان الحزن هو من أكبر مصائبه وتجاربه ، فأترك لك أن تحكمي ماذا سيكون إكليله ؟

هذا واني لاعزف لك المعزوفة بعينها ، وذلك بغية الوصول الى ما كنت أهدف اليه منذ البداية ، فانني أريد أن أنتزع من الحزن نفسه أسبابا للعزاء ، ولكي نقف على الفرق بين قيمة العمل الحسن الذي يتحقق بالمعاناة والتعب

والمحنة ، وبين العمل الحسن السهل من غير معاناة ومشقة ، فلنأخذ المثل من فعل الملك نبوخذ نصر . فهذا الملك المعتز بصولجان الملك وتاجه ، وحامي الكفر والوثنية ، قد صار وقتاً ما رسولاً لله يذيع اسمه في العالم . فبعد آية الأتّون المدهشة قد أذاع تصريحاً الى كل المسكونة يقول فيه : « تبارك إله شدراخ وميشاخ وعبد ناغو . . فمني قد صدر هذا الأمر بأن كل شعب وأمة ولسان يتكلمون بالسوء على إله شدراخ وميشاخ وعبد ناغو فانهم يقطعون إرباً إرباً وتجعل بيوتهم مزبلة » (دانيال ٣ : ٢٨ - ٢٩).

أرأيتِ قوة هذا الوعيد وعظم ما يريد أن يلقي من الرعب في القلوب ؟ أرأيتِ صراحته في الاعتراف بالايمان المذاع الى كل أصقاع العالم ! ؟ والآن قولي لي هل يقع في ذهنكِ انه ينال مثل مكافأة الرسل على كونه أعلن هكذا قوة الله القدير ، وأنه أظهر مثل هذه الغيرة في اذاعتها الى أطراف المسكونة ؟ لا - وانما مكافأته أقل بما لا يقاس من مكافأة الرسل . لا إنكار أنه أعلن الوهية الاله الحقيقي أيضاً . ولكن بما أنه فعل ذلك دون أن يكلف نفسه مشقة ، ودون ان يلقى ألماً ومشقة ، يكون قد نقص من مكافأته بقدر ما توفر عليه من المشقة والعذاب . فهذا مليك ذو حول وطول ، يستطيع أن يتكلم دون خوف ، في حين أن الرسل كانوا يصارعون كل ما يعترض طريقهم من حواجز وما أكثرها ! الرسل كانت تغلق في وجههم الأبواب ويطردون ويقبض عليهم ويُضربون ويُجلدون ويتحملون كل نوع من أنواع الاهانات والتعدي ، ويدفع بهم إلى كل المهالك ، فيطرحون في البحر ، ويهلكون من الجوع ، وفي كل يوم يموتون بالعذاب والحرمان والتنكيل . وكانوا يقاسمون ، فوق هذا ، كل فرد من المؤمنين آلامه . وما ينتاب كل نفس من هذه النفوس يجعلهم في كل يوم يضطربون خوفاً . كل تلك المشقات والمصائب كانت تعظّم مكافآتهم : « كل واحد يأخذ جزاء بقدر تعبه».

هذا ما لم أفتأ أردده على سمعك .

ولهذا السبب ، فان الله ، على صلاحه وجودته لم يرد أن يستجيب توسلات القديس بولس المتكررة التي كان يلتمس بها أن يُعتق من آلامه وأحزانه ومخاطره واضطهاداته «طلبت اليه ثلاث مرات متوالية ولم استفد شيئاً» (٢ كور ١٢ : ٨).

ولو أن توسله قُبِلَ تُرى ماذا يكون له من المكافأة ؟ أعلى كونه يكرز بدون عناء عائشاً ناعم البال ، وكل شيء يسير وفق رغبته ؟ أعلى أنه يكتفي بأن يفتح فاه ، ويحرك لسانه وهو مطمئن في بيته ؟ وفي وسع كل انسان أن يفعل مثله حتى من وراء طاولته ومن على كرسيه وهو يعيش عيشة راضية ناعمة في الاسترخاء والتكاسل . إلا أن ما يضمن له المكافآت العظيمة والاكاليل البهية انما هو ما يعدده في تلك اللائحة الطويلة من الأوجاع والميتات والأسفار براً وبحراً والأهوال والدموع والأحزان يكفي ان نستفيد منها ما يقول فيه « اني مدة ثلاث سنين متتالية ما فتئت بالدموع ، ليلاً ونهاراً ، أعطي التنبيهات والارشادات لكل واحد منكم » (اعمال ٢٠ : ٣١) .

وانه ليتبينّ لكِ ، في كل هذه الأمثلة ، كم تكون عظيمة مكافأة حياة الهمّ والعذاب ! وكم هي واسعة وفسيحة آمالكِ بالافراح والهناء الأبدي ، أنتِ التي منذ سنوات حياتك الأولى قد سلكتِ الطريق المفروشة بالآلام الدائمة المؤدية الى نيل أجمل المكافآت وأبهى الأكاليل ! فالأمراض بكل أشكالها وأحوالها ، الأمراض التي كانت غالباً أمرَّ من الموت، ما برحت تحاصر جسدك وتعذبه . والشتائم والاهانات والسعايات من كل نوع تنهال عليك بغير انقطاع ، ولم يكن نصيبك من الدنيا سوى الدموع والأحزان . وكل محنة من المحن التي اعترضتك في سبيل حياتك تكفي لأن تغمرك بالمكافآت .

أن أسقام لعازر كانت كافية لان تكسبه حضن ابراهيم ، وشهادة الفريسي بالعشار بررت هذا أكثر من ذاك ، ودموع بطرس غسلت ذنب جحوده . وأنت اذ ترين فعل كل واحدة من هذه الآلام ، فكري بمبلغ الاستحقاقات التي جمعتِها واختزنتِها في السماء . انتِ التي جمعت كل أنواع الهموم والآلام على أشد ما تكون من الهول ، وأنتِ على أشد ما تكونين لها من الصبر والثبات ! وبالفعل فإنه ما من شيء يستطيع أن يبرز المكافأة ، وأن يضاعف أكاليل الاستحقاق الا المصائب التي تحتمل بغير تذمر ، والأخطار والأتعاب والأحزان والاضطهادات الدائمة تغشانا من كل جهة ، وعلى الأخص من الذين لا نتوقعها منهم .

وهكذا قولي في يوسف العجيب ابن يعقوب ، فان مجده ومكافآته توقفت

على الحسد والوشاية التي كان ضحيتها ، وعلى حبسه وقيوده وسائر الآلام التي ألمت به . ولا شك في أن فضيلة العفة كانت عظيمة عنده . ولا شك ، كذلك ، في أن انتصاره على تلك المرأة المصرية الغنية ، وثباته أمام الحاحها ، في فتنتها وإغرائها ، كانت فضيلة سامية جداً ، ولكن جائزة آلامه حجبت جائزة عفته . وأية مكافأة عظيمة في عدم ارتكابه الزنا ، وعدم تدنيس المضجع الزوجي الذي لا حق له فيه ، وفي عدم اهانة من جاءته منه الحسنة وفي عدم فضيحة بيت سيده ؟

ان مكافأة يوسف العظمى انما جاءته من مصائبه : من المخاطر التي تعرض لها من جراء رفضه ، والفخاخ التي نصبت له ، وجنون العاطفة الثائرة والعنف الذي اخذ به : أجل مكافأته انما جاءته من حبسه ظلماً .

واني لأراه في ذلك الوقت ، وقت حبسه ، مكللاً ببهاء لا مثيل له أكثر مما كان عليه حين كان جالساً على عرش مصر يوزع المؤونة للشعوب في سني الجدب ، وينقذهم من المجاعة ، وحين كان ملجأ لكل الذين كادوا يهلكون جوعاً ! وانه ليبدو أجمل في عيني ، والجوامع في يديه ، والقيود في رجليه ، منه في كل بهاء ملابسه وفي أوج سلطانه ! واني لأراه أيضا أحب اليَّ يوم كان بغيضاً الى اخوته ، محاطاً بالاعداء في بيته ، منه يوم كان أثيرا الى أبيه مفضلاً ومدللاً عنده .

وأريدكِ ألاّ تمري بهذه القصة دون توقف ، بل فكري واعتبري ! انسان كان شاباً سليل أسرةٍ شريفة ، تربى الى ذلك الوقت في بيت أبيه متمتعاً فيه بكل حريته ، مخصوصاً بالايثار من أبيه لأجل فضيلته، فاذا به يجد نفسه قد باعه اخوته ، وسلموه الى قوم غرباء لا يعرف لسانهم يختلفون عنه كل الاختلاف بطبائعهم وأخلاقهم ، وهم أقرب الى الوحوش منهم الى البشر . ثم يرى نفسه بدون وطن ولا منزل، عبدٌ يُغدَى به ويراح من بيت الى بيت ! تصوريه ينحط الى أسفل دركات العبودية ، الى التعاسة القصوى ، وهو لم يعمل شيئاً يستحق عليه هذه الخاتمة . وتصوريه في ذلك البلد الغريب البعيد بين أيدي اسيادٍ لا تعرف الشفقة الى أنفسهم سبيلاً ! ولم تقف مصائبه عند هذا الحد ، بل ان الظلامات والإهانات تلاحقه يمسك بعضها ببعض . فأين هو من تلك الأحلام الحلوة العجيبة التي كانت قد كُشفت له قبلاً بأنه سيصير يوما معبود إخوته ! والتجار الذين اشتروه لم يحتفظوا

به لأنفسهم ، بل باعوه مرة ثانية الى تجار آخرين قاذفين به هكذا الى بربرية أخرى . وأنت تعلمين كيف يكون الانتقال في مثل هذه الحال من يد الى يد ، وتعرفين بؤس العبيد الذين يتغيرون دائماً تحت رق السادة انفسهم . فالعبودية تصبح أكثر إرهاقاً . وفي كل يوم وجوه جديدة ! وفي كل يوم يتعاقب على العبيد طغاة جدد أشد قسوة من الأولين ! تصوريه في هذا البلد المصري العجيب الذي كان اهله يومئذٍ في حرب دائمة جنونية مع الاله الحقيقي ، وبين تلك الافواه الغاشمة والألسنة التي كانت تتلفظ دائماً بالتجديف . ولكن له هنا وقفة ليستريح قليلاً . فإن الله الذي يرتب كل شيء بصلاحه سراً ، قد أعطاه سيداً أفضل ، وقَلَبَ الوحش المفترس الذي اشتراه الى حَمَل .

على أن الاستراحة لم تكن طويلة . فها هو الله يهيىء له ساحة جديدة لمعركة جديدة ، ويكلفه القيام بدور بطولي جديد يقتضيه جهاداً ومشقة كبرى . ها هي ذي امرأة سيده تسمر في وجهه يوماً نظرات اثيمة فتفتتن بحسنه ، واذا شهوة صاخبة مجنونة تسيطر عليها ، واذا هي تنقلب من امرأة الى لبوءَة لتفترسه ! تهيأ ليوسف عدو في ذلك البيت يختلف عن الأعداء الاولين . فلقد كان عدوه في المرة الأولى الكراهية التي أثارت اخوته عليه . وأما في هذه المرة فكان عدوه الحب الذي كانت تلك المرأة وليّةً له . وفي هذا النزال الجديد مع هذا العدو الجديد من الخطر ما يفوق خطر الأول ، بمرتين وثلاثة وألف مرة .

واذا علمتِ انه تخطى الشرك المنصوب بوثبة واحدة ، وحل العقدة المكينة بلمحة وجيزة ، فلا تتصوري انه خرج من المعركة ظافراً بغير جهاد ومشقة . وفي الحق أن تلك المعركة كلفته كثيرا من المشقة وكثيراً من العناء . واذا اردنا ان نتبين صحة ما أقول فلنتصور كيف يكون الفتى في فجر الفتوة ونضارتها . وقد كان في الحقيقة في سن تكون فيها الطبيعة على أشد قدرتها . والشهوات تثور كأنها العواصف ، وصوت العقل خافتٌ لا يرتفع . فالحكمة ليست للشباب على الغالب ، والفضيلة ليست موضع اهتمام كبير عندهم . تلك مرحلة من العمر تثور فيها عواصف الاهواء الشديدة ، ويضعف سلطان العقل كثيراً .

وكما أن يد الفرس كانت تمتد الى كل ما تصل اليه لتحشو بها جوف الأتُون

البابلي لتزيد ناره ضراماً ، وتهيء له بلا انقطاع وقوداً جديداً ، هكذا ، لكي تغذي نار شهوتها كانت تلك الشقية تستعمل كل ما تصل اليه يدها : من سحر ريحها ، ومسحوق الخدود ، وكحل العينين ، وغنج الصوت ، ودلال المشية ، وفتنة الحركات ، وإغراء الشباب ، وبعبارة واحدة كل ما من شأنه ان يستهوي الفتى ويجذبه ويغلبه .

وكالصياد الذي اذا أراد أن يوقع في شباكه حيوانا يُعجزه ، يروح يستعمل كل فنه في الصيد من ختْلٍ وعدة ليحصل على بغيته ، فهمت تلك المرأة التي كانت تعرف عفة يوسف (وقد كان لها الوقت الكافي لتعرفها) فهمت أنها لكي تتمكن منه ، يلزمها استعداد مدروس واستعمال كل فنها ومهارتها .

وليس هذا فحسب ، بل كان عليها أيضاً أن تسترق المكان والزمان الملائمين . فقد احترست جيداً أن تهاجمه إبان ثورة شهوتها لأول مرة ، بل تربصت حتى تسنح ساعتها ، وهي تحمل الشهوة وتغذيها بين ضلوعها ، وتخاف من نجاة فريستها في مهاجمات ارتجالية وسابقة الأوان .

وها هي ذي الساعة قد حضرت . فقد وجدته ذات يوم منهمكاً في مشاغله الاعتيادية .وها هي- إذا شئنا ان نقول - تعمق حوله الحفرة . خَفَقَت فيها جوانح اللذة كما لو كانت قد امسكته في شباكها لا محالة . ثم أقبلت عليه ودلِفت نحوه ، حتى اذا صارت الى جانبه أمسكته . وهل كانت وحدها ؟ كلاً لأن سن الفتى وطبيعته كانا يحاربان معها ، وسلاحها كل ما يفتن ويغري. وها هي تتابع ما عزمت عليه ! وها هي تحاول إرغامه بالقوة ! ويا لهول التجربة !

فأية نارٍ وأي أتّونٍ يشبهها ؟ شاب في أشد فورة الحياة فيه . عبدٌ غريب بعيد عن بني قومه ، بعيد عن بلاده ، سلعة تُباع وتُشتَرى ، تتشبث به سيدته ، وهي في أشد هياج شهوتها ، امرأة في مثْلِ ذلك الغنى ، وفي مثل تلك القوة ، وفي خلوة خفية عن الأنظار ، يحس بنفسه بين ذراعيها تراوده عن نفسه الى هذا الحد ، ويدعى الى مقاسمة مضجع سيدة البيت ! وهذا بعد كثير مما اصابه من نكد الطالع ، وما ناله من الاضطهادات ! ونحن نعلم بكم من الاندفاع يتلقى الانسان

رخاء العيش ، ونعمة الهدوء بعد الحرمان والسأم ! وبأي رغبة يقبل على اللهو والعبث والمجون بعد أن عانى الحبس والتضييق !

وما كان الأمر هكذا مع يوسف الذي ثبت غير متزعزع أمام كل شيء . ولست أخشى من أن أقول ان ذلك السرير كان أخطر عليه من الأتون البابلي على الفتية الثلاثة ، ومن جب الأسد على دانيال ، ومن جوف الحوت البحري على يونان ، لأن قضية اولئك لم تكن الا قضية خسارة الجسد ، وأما قضية يوسف فكانت خسارة النفس ، والموت الأبدي ، والحكم الذي لا مفر منه .

ولْنُضِفْ الى هذا ، العنف الذي أُريد أخذه به ، واحتيالات المرأة وتملقاتها وتلطفها ودِعابها من كل نوع . تلك نار آكلة لا تقتحم الجسد بل النفس ! تلكُ نار وصفها ، فأحسن وصفها سليمان الحكيم اذ قال في كلامه عن خطر الزنا الذي ينجم عن الاحاديث الخطرة . هل يمكن حمل النار في الثياب من غير أن تحترق؛ وهل يستطاع المشي على الجمر من غير أن تحترق القدمان ؟ وبأكثر من ذلك لا يستطاع الاقتراب من المرأة من غير الوقوع في الزنا (امثال ٦ : ٢٧ - ٢٩) .
فكما أنه يستحيل على المرء أن يقترب من النار من غير أن يحترق، كذلك يستحيل عليه ان يعاشر المرأة من غير أن يعثر.

والخطر الذي أحدق بيوسف كان أكبر بكثير . لم يكن عليه أن لا يقترب منها ، لأنها كانت هناك وأمسكته بذراعيها وضمته اليها جسداً الى جسد . لقد جاءته الفرصة لكي يخرج من تلك التعاسة وينجو من تلك الاضطهادات ! وكان طالما انتظر بشوق وبفارغ صبر النجاة من ضيقه ، واستنشاق الراحة والطمأنينة ! ولكنه مع كل ذلك لبث ثابتاً متماسكاً ساخراً من الشباك التي ألقيت له ، وساخراً من قوة الوحش الهائج ضده ومن شراسته ، ومستخفاً بلمسات اليذ ونعومتها ،ولهث الأنفاس وحرارتها ، وحدة النظرات وسطوتها، ونداء رائحة الطيوب والمساحيق والكحل والذهب ، هازئاً من إغراء الثياب ، ومن فتنة الحركات والكلمات ، وروعة الجمال ، وعلى الرغم من خلوة المكان وكتمان الغرفة ، وعلى الرغم مما يجذبه من دوافع الغنى والقوة ، وعلى الرغم من كل ما يحارب ضده : السن والطبيعة والعبودية والغربة ، ومع كل ذلك فقد غلب كل شيء!

ولست أتردد في اعتبار هذه التجربة أعظم بكثير من كل التجارب التي تقدمتها الى ذلك الوقت. فهي أعظم من حسد اخوته وكراهية من كانت تربطهم به رابطة الدم ، وأشد عليه من وضاعة بيعه واسترقاقه لأسياد أجانب ، ومن سفره واقامته في أرض بعيدة ، وسجنه وقيوده وكل الآلام التي تحملها ، لأنه لم يصادفه في كل ما حدث له موقف فيه من العار والخطر الكبير مثل هذا الموقف .

وها هو الصراع ينتهي ، ونسيمٌ بَليلُ الجناح يصافح المنتصر ! ذلك نسيم النعمة الإلهية وطيب عفة يوسف! ومثل الفتية الثلاثة خرج من الأتُّون من دون أن تعلق بأذياله رائحة أو أثر للنار التي مر فيها (دانيا ٣ : ٢٨) ولقد صار يوسف المثل الأعلى للطهارة، ومثل الألماس صلابةً ونقاوةً وجمالاً!

ولكن تُرى ما هي الفائدة التي حصل عليها من انتصاره ؟ وما هي جوائز المنتصر ؟ اضطهادات جديدة ، وحُفَرٌ تحفر أمام قدميه ، والموت النازل فوق رأسه . . . أخطار جديدة ، ووشايات جديدة ، وحقد أشد من الأحقاد التي عرفها ! فستعمد تلك الشقية الى الانتقام لشهوتها المذبوحة بكل ما يخترعه لها الغضب من وسائل . وجنون الغضب يولد جنوناً آخر ، وسيتبع فسق الشهوات مظالمُ الانتقام ، وسيتبع الزنى قتلُ الفتى .

وها هي تصطنع الغضب (حتى تغدو عيناها في مثل حمرة الدم) وتقيم محكمة جائرة ، وتحتكم الى حكم واثقة منه لأنه زوجها وسيد عبدها الغريب ، وتقذف اليه عبدها بجريمة لم يكن عليها من شاهد . وهذا المشتكى عليه لا يُقبل حضورُه في المحكمة . وانها تستطيع شكايته بكل هدوء وارتياح ، وعندها كل وسائل الإقناع من حماقتها ، ومداراة القاضي وثبوت شهادتها التي لا ترد ، وضعف العبد المشتكى عليه .

واذن فقد اخبرت القاضي بعكس ما حدث تماماً ، وأقنعته بسهولة ، وأملت عليه ما أرادت ، واذا البريء يُحكم عليه بطائلة الجريمة ، بالحبس العاجل فيوقف ويقيَّد !

وهكذا فقد حُكم على هذا الفتى الكريم من دون ان يرى القاضي .

والأدهى من كل ذلك انه يحكم عليه بأنه زانٍ أراد أن يدنس مضجع سيده ، وتجاسر على امرأته الشرعية ، كما لو كان مأخوذاً بالجرم المشهود ، وكما لو ثبتت عليه كل الدلائل والبينات ! والواقع ان القاضي والمدعية والعقوبة المحكوم بها كل ذلك كان شيئاً يساعد على تبرير الغدر امام الجمهور الذي كان يجهل الحقيقة .

كل هذا ، وما من شيء عكر صفاء تلك النفس العجيبة . فلا نسمعه يقول مثلا : « يا لتعس حظي ! أوَ في هذا تحققت احلام الرؤى التي رأيتها ؟ أهذه هي مكافأة عفتي وطهارتي ؟ محكمة ظالمة وحكم جائر قائم على سبب مخزٍ ومهين ! فلقد طُردت من بيت أبي كأنني فاسق ، والآن أساق الى السجن كأنني زان ومدنسٌ عرض امرأة . وكل الناس عليّ. وها هم اخوتي الذين ، بمقتضى أحلامي ، كان يجب ان يعبدوني ، يعيشون أحراراً وبدون خوف ،وينعمون بالسعادة في بلادهم وفي بيت أبي ، وأنا الذي كان يجب ان أسود عليهم موجود في السجن بين اللصوص وقطاع الطرق من شذاذ الآفاق . وبعد أن طردت من بلدي لم أجد أيضاً نهاية لآلامي وأحزاني . وها أنا قد وجدت من جديد في الأرض الغريبة حفراً في سبيلي وخناجر مسلولة ومشهورة على صدري ! والمرأة التي أرادت أن توقعني في الزنى شكتني ظلماً ، وهي التي كانت تستوجب، على هاتين الجريمتين ، قطع رأسها ، ترقص الآن في نشوة من الفرح كأنها فازت بالغنائم الكثيرة ، وكأنها تحمل فوق جبينها اكليل انتصارها ، على حين يُحكم عليَّ بأشد العقوبات ولم أفعل شراً . . . ! لا . انه لا يقول شيئاً من هذا ، ولا يخطر له على بال . ولكنه الجندي الحقيقي الذي يتقدم في مجد غلبته . كانت نفسه سعيدة هادئة لا يحمل حقداً لا لإخوته ، ولا لتلك الزانية .

وبرهان ذلك في المحادثة التي جرت بينه وبين أحد الذين كانوا معه في السجن . فاذا كان أبعد من ان يسحقه الحزن ، كان يجرب أن يبدد أحزان الآخرين . فلما رأى ذات يوم رفاقه في الأسر غارقين في الهموم والمخاوف والاضطرابات ، اقترب منهم حالاً لكي يسألهم عن السبب ، وحين علم أن اضطرابهم ناتج عن أحلامهم فسَّرها لهم .

ثم انه حين طلب الى واحد منهم ان يذكره لدى الملك لعله يعتقه (لأنه كان

ذا طموح عظيم ، وكان رجلاً حقيقياً لا يرغب ان يخلد في السجن) اكتفى بأن يقول : « لقد خُطفتُ وأتي بي من بلاد العبرانيين وأودعت هذا الحبس من دون ان أقترف ذنباً » (تك ٦ : ١٥) . وما بالك يا يوسف لا تتكلم بشيء عن تلك الفاجرة الزانية وعن حسد الاخوة وسلوكهم المشين ؟ لماذا لا تتكلم عن دعارة سيدتك وعن مراودتها لك عن نفسك وفجورها واحتيالها وكيدها ووشايتها ، وعن الحكم الجائر ، والقاضي الظالم والتهمة الباطلة ؟ لماذا تسكت عن كل هذا او تخبئه ؟ وكأني به يجيب ويقول : « لأنني لا أعرف الحقد . ولأني أعلم أن كل هذه الظلامات هي أكاليل ظفر وجوائز استحقاق» ، يا لها نفساً متحررة من الأهواء! يا لها نفساً تسمو على الانتقام، والحقد لا يعرف اليها سبيلاً! أما رأيناه يبدي نحو مضطهديه اشفاقا بدل الحقد؟ ولكي لا يسمي اخوته ، ولا تلك الفاسقة الشريرة ألم يكتف بان يقول: «أتي بي من أرض العبرانيين وأودعت هذا السجن من غير أن اقترف ذنباً» غير معيّن شخصاً ، ومن غير أن يقول كلمة عن البئر التي رموه فيها ولا عن الاسماعيليين ولا عن شيء من قصته الطويلة؟

وبعد هذا الا ترى مصيبة جديدة تضاف الى مصائبه ولا تقلّ عنها هي اهماله واطالة سجنه ؟ كيف لا والرجل الذي طالما واساه وعزاه في سجنه ، وتنبأ له عن أطلاق سراحه ، ما ان أعيد الى وظيفته القديمة حتى نسي يد يوسف ولم يتذكر طلب ذاك البريء .وحين كان هذا ينعم في بلاط فرعون بأيام سعيدة ، كان الفتى القديس يعيش في السجن وهو صاحب الفضيلة التي تكسف الشمس وتتجاوز بهاء رونقها ، ولم يكن من أحد يذكره أمام الملك .

ان الله تعالى كان يريد أن تضفر له أكاليل جديدة وأن يهيء له أجمل المكافآت . ومن أجل هذا كان يطيل طريق تجاربه . فقد كان يسمح بإلقائه في السجن مدة طويلة من غير أن يتخلى عنه . وكان يسمح بأن يستعمل أعداؤه كل قواهم ضده حتى يظل الفتى من جهة ثابتاً كالبطل الصنديد ، ومن الجهة الثانية حتى يُظهر أنه يصونه عن الموت من هجمات الأعداء . فقد تركهم يلقونه في البئر ، ويصبغون ثوبه بالدم ولكنه لم يسمح أن يقتلوه . نعم ان هذا كان بمشورة بعض إخوته ، ولكن ما من شيء يتم بدون سماح العناية الالهية . وكذلك القول في خبره

مع المرأة المصرية . قولي لي كيف أمكن لرجل ثائر غاضب (ككل المصريين) بلغ به الغضب أقصى حد أمام رجل يحسبه زانيا ومدنسا عرض امرأته ، كيف أمكن له أن يصبر عن قتله أو طرحه في النار في حين كانت امرأته واقفة امامه غاضبة ناقمة ترتجف من الإهانة التي زعمت أن الرجل ألحقها بها ، تريه ثيابها الممزقة وتمضي في ولولتها ونحيبها كيما تضاعف قصاصه !

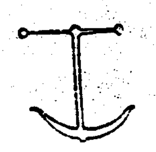
لقد نجا من حكم الموت. ولماذا؟ قولي لي. أليس من البديهي أن نقول ان الذي لجَم الأسُد وحوّل لهيب الأتون الى ندى ، هو الذي لجم عتُوّ هذا الطاغية ، وأطفأ حدة نار غضبه ، وحمله على تعديل العقوبة؟

وهذا ما حدث له أيضاً في السجن . فإن الله سمح بتقييده وطرحه في السجن بين المجرمين ولكنه منع عنه القسوة من جانب القائم على السجن ، ولا يخفى عليك كيف يكون السجان .

ولكنه كان مع يوسف لطيفاً رفيقاً . فلم يكتف بأن يعفيه من الأشغال الشاقة ، ولكنه اقامه أيضاً ناظراً على المساجين الآخرين . تصرف هكذا مع يوسف مع علمه بسبب زناه واجرامه الخطير الى بيت من أعظم البيوتات قدراً . وهكذا فإن الله كان يسمح بمصائبه ولم يكن ليتخلى عن عبده وكان يحفظه في النضال .

وأعيد ما قلته لك : بددي حزنك واحمدي الله دائماً كما فعلت وتفعلين . واشكريه على كل المصائب والتجارب التي يرسلها لك . وهكذا تحصلين على أعظم الاستحقاقات ، وتُنزلين بالشيطان ضربة قاضية ، وهكذا تغمرينني بالتعزية والمواساة ، وهكذا أيضاً تنجلي سماء نفسك وتنعمين بالطمأنينة التامة .

فلا تحزني اذن ، وتحرري من هذه الأوهام ، (وأنت تستطعين اذا أردت أن تبددي الحزن بسهولة كأنه دخان) واكتبي لي في هذا الشأن لكي تمنحيني الفرح العظيم في منفاي البعيد .



الرسالة العاشرة

كيكيز (آخر ٤٠٤)

لمَ تحزنين ؟ وفيمَ تقلقين ؟ ولماذا تفرضين على نفسك عذاباً ما استطاع أعداؤك ان يفرضوه عليك ،باستسلامك لسيطرة الحزن الغاشم؟ان الكتاب الذي بعثت به إليّ مع باتريكيوس أراني جراح نفسك . والذي يحزنني أنا ويهمني كثيراً هو أن اراك تفتشين في كل ناحية عن موضوع جديد للاكتئاب والألم ، على حين يلزمك أن تفعلي كل ما بوسعك لتطردي الحزن من نفسك.

ولماذا تتألمين لعدم استطاعتك نقلي من كيكيز؟ أوَلم تفعلي كل ما بوسعك؟ أوَلم تحاولي بكل ما تستطيعين؟ لماذا يكون الاخفاق في المسعى سبباً للحزن؟ ومن يدري لعل الله أراد أن يبعد شأوَ سباقي ليعظم جائزتي . ما لكِ اذن تحزنين لما هو عندي داعية للفخر والفرح، حين ينبغي لك أن ترقصي فرحاً ، وتقري عيناً ، وتتكللي بالزهور حين ترينني مخصوصاً بهذه النعمة التي هي فوق ما أستحق؟

أو هل تسبب لك الحزنَ العزلةُ التي انا فيها ؟ ولكن هل أبهج في النفس من الإقامة في كيكيز ؟ فأن فيها الراحة التامة والسكينة الكاملة ، وخلوّ البال . وهي المكان المنشود من أجل تجديد القوى . ليس في المدينة سوق للبيع والشراء . ولكن ماذا يهمني من ذلك وكل شيء يأتيني بوفرة كأنه من مَعين لا ينضب وأسقف المدينة مع الوجيه الكريم ديوسقوروس ليس لهما من شاغل يشغلهما سوى صحتي وراحتي . وسيقول لك الفاضل بتريكيوس كم أنا مسرور وسعيد ، وان العناية بي على أشد ما يمكن أن تكون .

وإذا كنت لا تزالين تأسفين لما لقيته في قيصرية فَلأنت مخطئة أيضاً كل الخطأ . ولكن الآن حاولي جهدك ألاَّ يعرف أحد شيئاً وان يكن الخبر بدا ينتشر منها .

والذي علمته مما قاله لي بوانيوس ان هنا كهنة من خاصة فاريتريوس يدَّعون أنهم معنا ، وأن ليس لهم علاقة مع اعدائنا ، وأنهم لم يختلطوا بهم وليس لهم شركة معهم . فلكي لا نخلق لهم مشاكل لا تعرَّ في احداً شيئاً . وان يكن من المحقق انهم أساؤوا معاملتي ، فأرجوك الآ تقولي لهم شيئاً عن ذلك .

وسأقص عليك كل ما حدث باختصار لا لكي أحزنك بل لأفرحك بإيراد سبب ما يغمرني بالجوائز والمكافآت. لأني في الحقيقة قد نجوتُ في قيصرية من أقصى حدود الخطر. ولَكَم تسرني تلك الذكريات لانني جمعت لي فيها كثيراً من الجوائز والمكافآت، وكفَّرت بآلامي عن ذنوبي، لا سيما ان تلك المصائب قد جاءتني ممن كنت لا أتوقعها منهم!

ازمعنا الدخول الى الكبادوك بعد أن كنت قد تخلصت من الغلاطي (أسقف أنقره عدوي الأكبر) الذي بلغ به الأمر أن يهددني بالموت . وفي أثناء سيرنا كنت ألتقي بأناس كثيرين كانوا يقولون لي أن فاريتريوس ينتظرني بفارغ الصبر، وأنه كان يسعى الى كل جهة لكي لا تفوته رؤيتي، وأنه كان يريد أن يراني مهما كلف الأمر ، وأن يعانقني، ويثبت لي محبته ، وأنه كان قد شَغَلَ من أجلي الرهبان والراهبات. وأما انا فما كنت اصدق شيئاً مما قيل لي. وأحسبُ أن الحقيقة هي عكس ما يقولون، ولكنني لم أكشف لأحد عن شكي.

بلغت القيصرية بُعيد المساء منهوكاً مضعضع الجسم من التعب ، مُضنى بالحمى ، ولم أدر الى أين أذهب ، أعاني من الألم ما لا يُعبَّر عنه بالكلام ، حتى وجدت لي مأوى في أقصى المدينة وأخذت أبحث عن طبيب لعله يوقف الحمى التي كانت على أشد حرارتها . أضيفي إليها تعب المسير وإجهاد السفر ، وتضعضع الجسم ، وما من أحد يهتم بي ، وكل الأشياء الضرورية تنقصني ، بعدم وجود الطبيب ، والضنى الذي حل بجسمي من المرض ، وتتابع الحر

الشديد ، والليالي الطوال لم أذق فيها طعم الكرى . ولقد كنت في دخولي الى القيصرية جثة محمولة ، لا كائناً حياً .

وبعد قليل رأيت الإكليروس والراهبات والرهبان والشعب والأطباء قد أسرعوا إليّ ، وأحاطوني بالعناية ، وهيأوا لي كل ما أريد ، وكان الجميع يندفعون في خدمتي . ولكنني كنت من اشتداد الحمى والإرهاق بحيث كنت أحس أن حياتي كانت تجتاز أشد الخطر . إلا أن الحمى بدأت تهبط وتخف عليّ وطأتها .

وأمّا فاريتريوس فلم يظهر منه شيء ، وقد علمت أنه كان ينتظر مبارحتي المدينة . ولم أدر مباشرة ما السبب في ذلك .

ولما رأيت حالي تتحسن قليلاً أخذت أفكر في استئناف السفر ومواصلة الطريق الى كيكيز حتى أرتاح أخيراً من كل هم السفر . وقبل أن نغادر المدينة شاع أن عصابة كبيرة قوية من الايصوريين كانت تعيش في الكورة القريبة منا ، وكانوا قد أحرقوا ، قبل ذلك ، قرية من أمهات القرى وأسلموها للسيف والنار . وعلى الأثر خرج رئيس الجند الذي كان في القيصرية يطوف مع جنده المنطقة ، وبات الناس يتوقعون هجوم الأشقياء على المدينة والجميع في شدة وضيق . وأحدق الخطر بكل تلك الأرض حتى أن الشيوخ والعُجّز كانوا يتولون حراسة المدينة من فوق الأسوار . وفي هذه الأثناء ، طلع علينا بغتة في أول النهار عصابة من الرهبان (هذا هو الأسم الذي تصلح تسميتهم به ، ولا أجد إسماً آخر للتعبير عن هياجهم) فأحاطوا بالبيت الذي كنت فيه وأخذوا يهددون بإضرام النار إذا لم أغادره بسرعة . وما من شيء استطاع أن يهدىء هذه الشرذمة من الكلاب الكلبة ، لا ما أنا فيه من المرض ، ولا خوف الايصوريين ولا أي شيء آخر . وقد بلغ الجنون بتلك العصابة الى أنهم يدفعون جنود الحاكم ويهددونهم بالضرب ، ويتبجحون بأنهم هزَموا قبلاً عدداً منهم .

وكان الجنود يرجونني ويتوسلون إليّ أن أبقى لأني إن تجنبت هؤلاء الحيوانات المفترسة ، سأقع بين أيدي الايصوريين ، لا محالة . ثم أسرع الحاكم نفسه الى مساعدتي وكلم الرهبان في ذلك كثيراً فما سمعوا شيئاً من كلامه حتى

وقف لا يستطيع شيئاً . وإذا كان حائراً بين الإشارة عليّ بالخروج الى الموت المحتم ، أو بالبقاء والوقوع في غضب الرهبان ونقمتهم ، بحث يطلب من فارتيريوس إمهالي لبضعة أيام لأجل الراحة مما بي من المرض ، ولتجنبي الخطر في سيري ، ولم يحصل على نتيجة أبداً .

وفي الغد عاد الرهبان وهم أشد حماساً وقوة للقيام بما عهد إليهم به من أمر إخراجي ، ولم يجسر أحد من الكهنة أن يأتي لمساعدتي وقد تهربوا وتواروا خجالى حيارى (وهم يقولون أن كل ما يجري إنما يجري بأمر الأسقف فاريتريوس) .ثم عدت الى طلب النجدة ورجوتهم فلم يسمعوا رجائي . وماذا يجب أن أقول لك أكثر من هذا ؟ على الرغم مما كان يحدق بي من الخطر والموت الذي أراه ماثلاً أمام عيني ، وفي الظهيرة ، وتحت وطأة الحمىّ التي لم أكن قد تخلصت منها ، ارتميت في محملي ، وحملني الرجال بينْ نحيب وزفرات الشعب الذي كان يلعن مسبب هذه الويلات ، وشيعني كل الجمهور بالدموع والحسرات . وحين بعدت عن المدينة قليلاً ، خرج بعض الاكليريكيين خفية ، ورافقوني مسافة وجيزة وهم يبكون . وكنت أسمع بعضاً منهم يقولون : « لماذا يساق الى حتفه المحتم ؟» . إلا أن واحداً من الذين كانوا أوفر محبة لي خاطبني قائلاً : « إني أتوسل إليك أن تسافر . وخيرلك أن تقع بين أيدي الأيصوريين من أن تبقى هنا . وأنىّ تتوجهْ تكنْ في خير إلا بين أيدي فاريتريوس وأصحابه» .

غيرأن سيليسيا الشريفة امرأة رفينوس التي لم تدع خدمة إلا قدمتها لي ، لما سمعت بخبري ، وعلمت بكل ما جرى لي رجتني وتوسلت إليّ كثيراً أن أنزل في بيتها الكائن في إحدى المزارع ، على مسافة قصيرة من المدينة ، وقد أرسلت إليّ رجالاً يرافقوني فعرجت الى بيتها .

ولكن هناك أيضاً لم تشأ أن تهدأ نقمة فاريتريوس . فما ان علم بوجودي في بيت سيليسيا حتى أسمع تلك المرأة الشريفة كثيراً من التهديد . وأما أنا ، فإذ كنت بعيداً عن القيصرية لم أكن أدري ما يجري وكانت تأتي إليّ ولا تكلمني شيئاً عن هذا ، بل كانت تخبر بذلك وكيلها الذي كان يضيفني ، وكانت توصيه ألا يقلقني . بل وكانت توصيه أن يجمع الفلاحين العاملين في أرضها ليأتوا الى

نجدتي ، إذا جاء الرهبان مرة ثانية لإهانتي وضربي ، وأن يدفعوهم عني . وقد دعتني الى أن أقيم في منزلها الخاص الذي كان محصناً منيعاً وحيث أكون بمأمن من خطر الأسقف ورهبانه ، فرفضت القبول ، وبقيت في المزرعة جاهلاً تماماً كل ما كان يدبر لي .

وبالفعل ، فإنه ما من شيء استطاع أن يخفف نقمة أعدائي . ففي منتصف الليل ، حين لم أكن أعلم بشيء بما يجري (وكان فاريتريوس قد شدد تهديداته وتوعداته لتلك المرأة الشريفة حتى أرغمها على أن تخرجني من بيتها) بثاءت المرأة التي لم تعد تستطيع الثبات في وجه فاريتريوس وبعثت إليّ من يقول لي أن البرابرة كانوا هناك إذ لم تجسر على التصريح باضطرارها الى ما تقول .

ففي ظلام الليل جاء الكاهن إيفتيوس يستيقظني وهو يرتجف ويطلق صراخاً عالياً : « إنهض ! إنهض ! إن عصابات البرابرة هنا قريبون جداً » . ولك أن تتصوري ارتعادي لهذا النبأ . قلت له : وماذا أفعل ؟ لن أعود الى القيصرية . والوقوع في أيدي البرابرة أهون من ذلك . كان يريد قبل كل شيء أن يحملني على مغادرة البيت . وكانت ليلة سوداء الجلباب كثيفة الظلام . الى أين أذهب ؟ وكيف العمل ؟ كان ينقصني كل تدبير ، وما من أحد ليساعدني برأيه وعمله ، والجميع قد هربوا . غير أن الخطر المحدق ، والموت الماثل أمامي وتفاقم المصيبة جعلني أنهض وأقرر السفر . أنرت المشاعل فأطفأها الكاهن قائلاً إنه لا يريد أن ينبه البرابرة الى مكان وجودنا . وهكذا أطفأنا المشاعل وسافرنا .

كانت الطريق قاسية وعرة ومصعّدة . وبغتة كبا بي البغل الذي يقلني فرما بي الى الأرض ، وما زالت رجلاي عالقتين في الركاب وبالجهد تخلصت منهما . وجعلت أمشي متباطئاً ومستنداً على الكاهن إيفتيوس الذي ما ان أحس بوقعتي حتى قفز عن دابته الى الأرض وأخذ يقودني بيدي . وكنت أحاول أن أتقدم أو بالأحرى أن أجر ذاتي ، لأنه كان يستحيل عليّ المشي في جبال وعرة المسالك يصعب تسلقها وسط الظلام الدامس . تصوّري ما كان يجب أن أحتمله في غمرة آلامي تلك وفي ضنى من الحمّى جاهلاً كل ما كانوا يتآمرون به عليّ ومعتقداً بوجود البرابرة ، يملأني الخوف والهلع ، منتظراً في كل لحظة أن أقع بين أيديهم .

وإليك بيان هذه القصة وسبب بلائي هذا : منذ وصولي الى القيصرية ، كان يتسارع إليّ في كل يوم أرباب الوظائف العالية ، والمتقاعدون والعلماء والفلاسفة والقادة وكل الطبقات ليروني وليقدموا لي الخدمات . وكانوا يحيطوني بكل الاحترام والمحبة والاعجاب . هذا ما قد جنّ له جنون فاريتريوس . فإن الحسد الذي سبب إبعادي عن القسطنطينية يتبعني الى هنا . ليس لي بينة على ما أقول ولكن هذا ما أقدره .

من يستطيع أن يقول كل ما تحملته في سفري ويصف كل المخاوف التي ساورتني ، والأخطار التي نجوت منها ؟ وفي كل يوم أذكرها فيه أتنفس الصعداء ، وأكاد أطير من الفرح كما لو كنت عثرت على كنز عظيم !

ولأجل هذا يجب أن أراك أنت أيضاً فرحة وسعيدة . ويجب أن تشكري الله حين تريني أهلاً لأن أتحمل مثل هذه المصائب والتجارب .

والآن أريد منك أن تحفظي تفاصيل ما جرى في نفسك ، وألا تحدثي بها أحداً ، وإن يكن الآخرون يستطيعون أن يخبروا بها ، ولا سيما الجنود الذين اجتازوا أكبر المخاطر . ولكن لا يتسرب عن طريقك شيء من هذا ، بل على العكس أسكتي الذين يكلمونك فيه .

أما مصائبي وآلامي ، التي لا تزالين تحزنين من أجلها الى الآن ، فتأكدي أنني قد تخلصت منها ، وأن صحتي قد تحسنت كثيراً من حين وصولي الى هنا . وإذا كنت تخشين عليّ البرد ، فأكرر لك ما قلته قبلاً إنهم قد هيأوا لي ملجأً واقياً منه ، وديوسقوروس قد اتخذ كل احتياط من هذا القبيل. أما مناخ هنا ، فإذا جاز لي أن أحكم عليه من أول مرة ، فهو مناخ الشرق ، ولا أكاد أجد فرقاً بينه وبين مناخ إنطاكية : الجو ذاته والاعتدال الطبيعي ذاته .

وكم صعب عليّ أن أقرأ لك قولك ، انني ربما كنت مستاءً منك ، لأنك لم تعملي كل ما يتوجب عليك من أجل نقلي الى كيكيز ! إنك تتوهمين مثل هذا توهماً . وقد كنت كتبت لك منذ وقت طويل ورجوتك ألا تسعي بنقلي من هنا .

فلقد أسأت إليّ كثيراً وإلى نفسك بما توهمت وذكرت . ولعل ما يشفع لك بعض الشيء في توهمك هو إضافتك قولك : « أتصور وأبتدع هذه الفكرة لكي أزيد في همي وفي شَجَني » . وهذا مأخذ من أكبر المآخذ عليك لأنك تجهدين فكركِ لكي تجدي مواضيع جديدة للحزن ، لأنه في الوقت الذي يجب أن تعملي كل ما بوسعك لكي تبددي حزنكَ تتممين إرادة الشيطان في إضافتك حزناً على أحزانك ، وألماً على آلامك » !

أما آن لك أن تعرفي شر الحزن وخطره ؟ أماالايصوريون فلا يكن عندك خوف عليّ منهم أبداً . فلقد عادوا أدراجهم ، واعتصموا في جبالهم وبلادهم ، وقد سيطر الحاكم على الموقف كل السيطرة . ونحن هنا آمن على أنفسنا مما كنا فيه في القيصرية . إذن كوني في طمأنينة تامة من جهة الايصوريين . لقد انكفأوا راجعين ، وسيمسكهم الشتاء في بلادهم ، وليس علينا أن نخاف منهم شيئاً من اليوم إلى العنصرة .

لست أدري كيف لم تتلقي رسالة من رسائلي بعد ؟ كنت قد أرسلتَ لك ثلاثاً من هنا : الأولى مع جند الحاكم والثانية مع أنطونيوس ، والثالثة مع خادمك أناطوليوس . كل رسالة منها طويلة . ولك في الثانية والثالثة على الأخص دواء ملائم يرد القوة للنفوس المغمومة واليائسة ، ويقتادها الى الطمأنينة والفرح التام .

إقرئيها إذن من أولها الى آخرها ، وأطيلي تأملك فيها . تري كم تكسبك من القوة ، وقيمة الدواء الناجع الذي فيها ، وبكلمة واحدة سترين فائدة لنفسك فيها . أخبريني بعد ذلك وقولي لي إنك استفدت منها ، وتحسنت حالك . وعندي رسالة جديدة جاهزة . ولم أشأ أن أرسلها لك من عظم صعوبة قولك لي إنك تفتشين في كل ناحية وتجهدين فكرك لتجدي موضوعاً جديداً للحزن ، وإنك تستندين الى الأوهام التي لا حقيقة لها وهو كلام لا يليق بك ، يَندَى له جبيني خجلاً ، وأغطي وجهي دونَ سماعه . وعلى كل حال أقرأي رسائلي وأعيدي قراءتها ، ولا إخالك تقرئينها ما دمت تريدن أن تبقي غريقة الحزن .

وأما فيما يختص بالأسقف هيراكليد ، فإنه يستطيع إذا شاء أن يستقيل ويضع حداً لتضايقه ، وليس له إلا هذا المخرج . وأما أنا فبما أني غير مستطيع عمل شيء فقد كتبت إلى السيدة بنداتيا الفاضلة أن تعمل كل ما بوسعها لتجد علاجاً لهذه القضية .

ولنحسب دائماً أنه ما من مصيبة في الوجود سوى الخطيئة ، وما عدا الخطيئة إنما هو غبار ودخان . وأية مصيبة في السجن والقيود والالام إذا كانت كلها مبتعاً للإستحقاقات والمكافآت . ما النفي ؟ ما مصادرة الأموال ؟ كلمات . كلمات جوفاء ليس فيها ما يخيف وما يحزن . وما الموت بالذات ؟ هل هو سوى ضريبة يجب أن نؤديها للطبيعة ، وباب يجب أن نمر منه بأي شكل من الأشكال ؟ والمنفى ؟ هل هو شيء آخر سوى زيارة بلاد جديدة ومدن جديدة ؟ ومصادرة الأموال ؟ هل هي سوى تحرر منها وتخفيف لتعبها ؟

أرجوك أن تواصلي مسعاك بكل ما تستطعين لمساعدة الأسقف مارينـاس لكي تخلصيه من مأزقه الحرج ، لأن عليه معوّلي في رسالة التبشير في بلاد الفرس . جربي أن تعرفي لي منه ما أستطاع أن يعمله الى الآن ، والسبب الذي أتى به . أخبريني إذا كنت قد استطعت أن تسلميه الرسالتين اللتين أعطيتهما لك لتسلميه أياهما . وقولي له أنه إذا أراد أن يكتب لي فإنني أستطيع أن أجيبه ، وإلا فليخبرك بالنجاح الذي حققه هناك ، وإذا كان له أمل بمزيد النجاح بعد رجعته ، لأني إنما كنت أريد أن أراه لأتعرف منه على كل هذه الأمور . على كل حال أرجو أن تعملي كل ما بوسعك في هذا الشأن .

والآن أرجو أن تصغي جيداً إلى ما سأقوله لك وهو على جانب كبير من الأهمية . لقد أخبرني بعض الرهبان الغوطيين والمارسيين من البلاد التي كان يختبىء فيها الأسقف سيرابون أن الشماس مورداريوس حمل نبأ وفاة الأسقف القديس أونيلاس الذي رسمتهُ منذ قريب وأرسلته إلى بلاد الغوط ، وكان قد حقق أعمالاً تستحق الإعجاب ، وأن الشماس يحمل كتاباً من ملك القوط يطلب أسقفاً جديداً .

ولكي نجتنب البلاء الذي يهددنا لا أري إلا رأياً واحداً هو أن تصبّري هؤلاء المراسلين وتؤجلي سفرهم . فليس من السهل عليهم الآن أن يعودوا فيجتازوا البوسفور ويرجعوا الى بلادهم ، فأخريهم إلى آخر الفصل السيء . واحصري اهتمامك وعنايتك بهذا الأمر فإنه عمل رئيسي في الأهمية . لأن هناك أمرين أخشى وقوعهما (لا سمح الله) أولهما أني لست أريد أن يرسم الأسقفَ الجديدَ خالقو هذه البلايا علينا . وثانيهما أني لا أريد أن يرسموا غير المستحق ، وأنت تعلمين أن أنتخابهم لن يكون في صالح القضية . وإذا حدث مثل هذا ، فأنت تعلمين وخيم العاقبة . فلكي تحولي دون حدوثه إعملي كل ما تستطيعين عمله .

هذا ولو استطاع الشماس موردياريوس أن يأتي إليّ خفية ، وبدون أن يدري أحد ، لكان خير ما أتمنى . فإن كان هذا لا يمكن فاعملي كل ما يتعلق بك . ورب مساع تبذل في سبيل بعض الأعمال تكون أفضل من الحسنات . فاعملي مثل الأرملة التي ورد ذكرها في الإنجيل ، فإنها لم تعط سوى فلسين ، ولكنها أعطت كل ما عندها ، وقد فاقت تقدمتُها في عيني الله كل تقادم الأغنياء . وهكذا فالاهتمام الذي يُبذل في هذا السبيل ، مهما يكن صغيراً ، وهو كل ما يستطاع ، فإن صاحبه يكون قد قام بواجبه كاملاً ، وسواء أنجح المسعى أم لا ، فإنه يستحق مكافأه كاملة .

وإني لمقدر للأسقف هيلاريون موقفه الصامد وحسن طاعته . فقد كتب إليّ يستأذنني في الذهاب الى كنيسته ليرتب أمرها ثم يعود إليّ . ووجوده هنا مفيد جداً . فهو رجل تقي مؤمن غيور . وقد قلت له قبل سفره أن يعود سريعاً . أوصلي إليه سريعاً ، وبأمان ، هذا الكتاب الذي أرسله له بواسطتك . واحرصي ألا يفقد ، لأنه طلب إليّ وألح كثيراً أن أكتب له وأحب كثيراً أن يكون معي . فابذلي جهدك في تأمين هذا الكتاب وإذا لم يكن عندك الكاهن هلاديوس ، فكلفي به رجلاً حازماً لبيباً . كوني معافاة .



الرسالة الحادية عشرة

كيكيز، آخر ٤٠٤

ليس شيئاً جديداً أو غريباً ، بل عادياً ومنطقياً ، أن تتعاقب التجارب عليك . وإلحاحها سلح نفسك وزاد قواك وضاعف نشاطك في المعارك ، وسبب لك فرحاً لا يماثله فرح ! وهذا هو فعل التجربة الطبيعي في النفس القوية النقية .

وكما أن الذهب تزداد قيمته عندما يُصفّي بالنار كذلك النفوس لا تكتسب نقاوتها الحقيقية إلا أذا مرت بالتجربة . وقد قال القديس بولس الرسول : « إن التجربة تنشيء الصبر ، والصبر ينشيء التنقية » (رو ٥ : ٣ـ٤) . ولهذا أراني بدوري يخفق قلبي بهجةً ، وأسبح في بحر من الفرح . فإن سمو نفسك قد آتاني في هذا المنفى أكبر التعازي التي يمكن أن أتأملها وأتلقاها . ولهذا ترينني لا أخشى عليك سوءاً حتى ولو أنبئتُك محاطةً بألف ذئب شرس وبكل الوحوش الكاسرة .

وأني لأرجو الله أن يضع حداً لتجاربك ، وألا يرسل لك تجارب أخرى جديدة ممتثلاً أمر السيد الذي قال لنا أن نطلب عدم الدخول في التجربة . ولكن إذا أتفق (لا سمح الله) أن تحدث لك تجارب جديدة ، فإن لي الثقة التامة بأنها ستزيد قيمة نفسك وتغنيها .

وماذا عسى أن يخيف هذه النفس ؟ وماذا عليك أن تخشي من هؤلاء الأشقياء الذين يجمعون على رؤوسهم عقوبات رهيبة في يوم القضاء ؟ أتخشين خسارة أملاكك ؟ وما أملاكك ، كما أعلم ، سوى غبار في عينيك وأحقر من طين الأرض ؟ أم تخشين طردك من بيتك وبلدك ؟ وإنك لتستطيعين أن تعيشي في وسط المدن الكبرى المزدحمة بالسكان وكأنك في القفر . ولقد قضيت عمرك بعيدة عن

البيوت وصخبها وضجيجها ، ودُسْتِ تحت قدميك أمجاد هذا العالم . أوَ هل تخشين تهديدات الموت ؟ وقد اتخذت له كل الاحتياطات ، وجعلت من حياتك كلها استعداداً للموت ؟ وإذا دُفع بك الى يد الجلاد فإنما يُدفَع إليه جَسَدٌ مائت . وماذا نقول ونفترض غيرما قلنا وافترضنا ؟ فلم توجد مصيبة أو تجربة إلا بُليتِ بها وبلوتِها وتغلبت عليها ! فلقد سلكت دائماً الطريق الضيقة حيث يُبلى المار بها بجميع التجارب . أما الآن ، وقد تمرست بالآفات جميعاً وخضت معاركها فقد أصبحت تعرفين أسرارها كلها ، وتفوقُكِ في القتال سيظهر بأجلى بيان ، وستخرجين منها مجنحة تصفقين سروراً وفرحاً .

إيه يا أولمبيا ! هنيئاً وهنيئاً وهنيئاً لك هذه السعادة لا من أجل الأكاليل التي استحققتها وحسب ، بل من أجل المعارك التي اقتحمتها وصمدت لها . ومن خاصيةِ هذه المعارك هو أنها تعطيك في ساحة القتال عينها حلاوة الفرح والمكافأة ، فضلاً عن الأكاليل التي تذخرُها لك . هنيئاً لك هذه السعادة التي تستمتعين بها الآن ، وهذا الفرح والنشاط والشجاعة والصبر ، وكل ما لا ينزع منك . هنيئاً لك هذه الإماتة التي تجعلك تحلقين فوق كل شيء ، والتي لا تدع للخوف سبيلاً إلى نفسك ، والتي تثبتك على صخرة لا تتزعزع وسط العواصف والأعاصير ، وتجعلك تنعمين بالهدوء والسكينة حتى في وسط البحر المضطرب .

فتأملي إذن منذ الآن ، وفي انتظار ملكوت السموات ، تأملي في مكافآت مصائبك . وإني لأعلم جيداً أنك لا تشعرين بأنك لابسة جسداً ، وأن الفرح يجنحك ، وأنك في ساعة الموت ، ستكونين أكثر ارتياحاً إلى التعري من هذا الجسد ، ممن يتعرون من ملابسهم التي تغطي أجسادهم .

فافرحي إذن وقري عيناً بما أنت فيه . إفرحي حين تفتكرين بمن قضوا حياتهم بفخر ، لا على أسرتهم وفي بيوتهم ، بل في السجون والقيود والعذابات ، ولا ترثي لحالهم ، بل لحال المضطهدين ، وابكي إشفاقاً عليهم .

إنني والحمد لله ، في صحة وعافية ، وقد تخلصت من الألم الذي كان يعذبني . والآن أحس بنفسي أحسن من ذي قبل ، ولست أدري إذا عاد الشتاء ليزعج معدتي من جديد . أما من جهة الايصوريين ، فنحن منهم في أمان تام .

الرسالة الثانية عشرة

كيكيز ، ٤٠٥

إن الله ، جل جلاله ، أشهدك مرتين على محبته لك : أولاً لأنه سمح بسلسلة من التجارب تمرين فيها لكي يجمل أكاليلك ، وثانياً لأنه أسرع في تخليصك منها لكي لا يجعل من إلحاحها عليك إرهاقاً لنفسك .

وهذا ما فعله مع أعاظم القديسين في العهدين القديم والجديد، والرسل والأنبياء ، إذ كان تارة يترك ريح التجربة تثير الأمواج ، وطوراً يأمر العواصف بالوقوف فينقلب هياجها سكينة عظيمة .

ألا وَدّعي إذن البكاء ، وادفني الأحزان ، واعتبري لا بما أصابك من الآلام والمصائب وحسب بل اعتبري بسرعة زوالها وانطفائها ، عدا ما أعدته لك من عظيم المكافأة . إن مصائبكِ لتبدو ، بالنسبة إلى الأكاليل التي استعضتِ بها عنها كأنها نسج العنكبوت وظل وبخار أو أقل حساباً .

ما هو الطرد والتشرد والضرب في مجاهل الأرض ، ومصادرة الأموال ، والسوق الى المحاكم ، وإرهاب الجنود ، وسوء المعاملة يلقاها الإنسان من الذين أغدق عليهم الحسنات ، والاهانة تأتيه من خدامه ومن الآخرين ، ما هذا كله إذا كان ثمناً للسماء بكل نعيمها الذي لا يشوبه فساد والذي لا يُعبّر عنه ، والذي هو منبع للسعادة بغير نفاد ؟

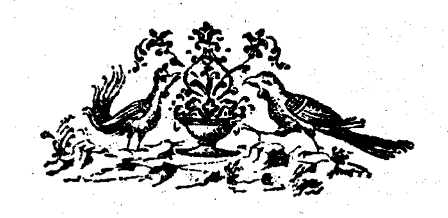
فلا تتعثري إذن بالاضطهادات والاهانات وخسران الأموال ، والتنقل الدائم ، وبحياة المنفى ، ودوسي كل هذه الأشياء تحت قدميك كأنها أحط من طين

الأرض ، وفكري بالكنوز التي ادّخرتِها لك في السماء حيث لا تخشين عليها الضياع ولا خطر اللصوص .

ولكن قد تقولين لي : إن جسدك الآن هو الذي وهن تحت وطأة الأتعاب والهموم ، وإن ما تشكينه منه الآن إنما هو المرض الذي جاءكِ به إضطهادُ أعدائك . فأجيبك أن المرض هو منبع جديد لمكافآت تفوق الوصف ، ولا مثيل لها : وأنت تعلمين بالفعل وعلم اليقين أية مكافآت نربح في تحملنا بشجاعة ، بل وبشكر أمراض الجسد . فالصبر على المرض ، كما قلت لكِ قبلاً ، هو الذي كلل لعازر المسكين باكليل السعادة وهو الذي حيّر الشيطان وقهره في مهاجماته لأيوب الصديق ، ونشر على الأرض كلها فضيلة هذا البطل العظيم . والمرض هو الذي سما به مجد ذلك الرجل ، وجعل بيده سلاحاً أمضى وأفتك من تفضيله الفقر ، واحتقاره المقتنيات ، وفقدان الأولاد المفاجىء وسائر البلاوى .

رددي كل هذا دائماً ، وافرحي واغتبطي كذلك لكونكِ أحرزتِ أكبر الانتصارات ، ولكونك تحملت دون تذمر أكبر التجارب والنكبات . واحمدي الله الذي يستطيع بدون شك أن يبدد في لحظة واحدة ، كل آلامنا ، ولكنه يسمح بها أيضاً لكي يكسبنا أعظم الأجر .

ولأجل هذا فأنا لا أفتأ أعلن أنك مغبوطة . وقد سرني أنك تخلصت بشرف وكرامة من قضاياك ودعاواك ، وأهنئك على هذه التصفية النهائية . فإنك لم تشأي أن تتركيها تذهب سدىً ، ولا تشبثت بالعناد والتصلب ، كما أنك تجنبت خوض المماحكات وما ينجم عنها . فلقد احتفظت بالموقف اللائق المعتدل ، فاستعملت حريتك ، وضربت مثلاً في الفطنة والحزم ، وبرهنت عن طول البال والاعتدال والثبات وأنهم لم يقدروا أن يخدعوك . كوني معافاة .



الرسالة الثالثة عشرة

كيكيز ، ربيع ٤٠٥

أكتب إليك بعد أن أشرفت على الموت . والواقع أنني سعيد جداً لأن خدامك لم يصلوني إلا في الوقت الذي كنت فيه على ميناء السلامة . لأنهم لو وجدوني في العاصفة القوية ، ، وفي أشد صراعي مع ألمي ، لاستحال عليّ أن أخدعك وأرسل لك أخباراً سارة .

إن الشتاء كان أشد قسوة من المعتاد وأشد قسوة على معدتي . والشهران المنصرمان كانا أبشع عندي من الموت . وما كنت أعيشهما إلا لأعيش الآلام التي كانت تتجاذبني من كل ناحية . كنت غارقاً في ليل دائم بلا فجر وبلا صبيحة وظهيرة . وكنت أقضي أيامي مسمراً في فراشي . ولكم استعملت من الأدوية ! ولم أستطع سبيلاً الى الخلاص من الألم الذي سببه لي البرد . وما خمدت النار في غرفتي ودخانها الكثيف يزعجني ويؤذيني ! كنت ملازماً حجرتي لا أغادرها متحفظاً ومتثقلاً بالأغطية الكثيرة . ولم أدع سبباً لاتقاء البرد إلا اتقيت به ، وما نجوت من فعله وأذاه . كان القيء يلازمني بلا انقطاع مع آلام دائمة في الرأس وانقطاع الشهية الى الطعام وحرمان الأجفان من النوم . وفي ذمة الزمان من هذه السنة ليالٍ قضيتها بدون نوم خلتها لا تنقضي !

ولكني لا أريد أن أزعجك كثيراً بقصة أوجاعي لأنني الآن قد تخلصت منها تماماً . فما إن أقبل الربيع ، واعتدل الطقس ، ولطف الجو حتى اختفى كل شيء بسهولة . وما زلت بحاجة الى العناية الشديدة ببرنامج طعامي . وها أنا لا أتبلغ ، من الطعام ، إلا بالنزر اليسير كيما تقوى معدتي على هضمه بسهولة .

هذا وقد جاءني خبر مرضك أنت هماً فوق هم . ولكن محبتي لك وغيرتي واهتمامي بكل ما يتعلق بك ، كل هذا لم يدعني أنتظر كتابك لكي يطمئنني عن صحتك . وقد لبّى اهتمامي بك كثيرون من الذين كانوا قد شاهدوك ووافوني بالأخبار عنك .

وها أنا الآن سعيد ومسرور لا لأني علمت أنك معافاة فحسب ، بل أيضاً ، وعلى الأخص ، لتحملك آلامك بمثل هذا الثبات والصبر ، وخصوصاً لأنك تشبهين هذه الآلام بالوهم ،هكذا تسمين أمراض الجسد مما هو حقاً دليل على النفس الكبيرة ، وعلامة للبطولة التي لا مثيل لها . وإنه لمن الدلالة على بلوغ النفس ذرى الكمال هو أن المرء لا يكتفي باحتمال الآلام بشجاعة ، بل أنه لا يعيرها اهتماماً حين تحاصره ويحتقرها ، ويكتسب ،وهو يلهو، اكليل الصبر بدون تعب ولا مجهود ولا تكلف المشاق أو تكليفها للآخرين .

وهذا ما يجعلني أنا قريرّ العين مبتهجاً ، وكأن الفرح يجنحني فلا أحس بعزلتي وبكل آلامي ، يغمرني الفرح ويكسوني جلباباً من النور . وإني لفخور بكبر نفسك ، وبفضائلك وانتصاراتك . وإني لمعتز ، لا بك وحدك ، بل بتلك المدينة الكبيرة التي أنت لها حصن وبرج وسور ، تلك المدينة التي كانت حياتك كلها فيها تبشيراً بالمثل المسيحية العليا ، وفيها وخارجها عُلّمَتْ أُمثولةَ آلامِكِ كلاً من الرجال والنساء أن يتهيأوا للمعارك ذاتها ، وأن ينزلوا الى الساحة بشهامة رجولية ، وأن يقتحموا المشقات بنفس السهولة التي اقتحمتها أنت بها .

والعجب فيك هو أنك ، وأنت ملازمة حجرتك الضيقة ، وفي هدوئك ، تقوّين وتثبتين الواقفين في المعركة من دون أن تطأ قدماك السوق ، أو ان تنزلي الى ساحة المدينة ! العجيب فيك هو أن أراك في وسط البحر الهائج ، وفوق غوارب اللجج الطامية ، وبين نواتىء الصخور البحرية ومعاثرها ، وعلى الرغم من أنوف الحيتان البحرية التي تتصاعد من كل النواحي الى وجه البحر ، وفي غمرة الظلمات الدامسات ، أن أراك جالسة مطمئنة فوق دفة المركب كما لو كنت تسافرين على نور الضحى ، في هدوء عظيم ، والريح في مشتهى السفينة ، ناشرة أشرعتك باطمئنان ، تجذفين بكل ارتياح ، وبذلك من دون أن تغرقكِ العاصفة ، بل من

دون أن يصيبك رذاذها .

ولا ينبغي أن يدهشنا هذا الأمر فهكذا تكون الحال دائماً إذا كانت الفضيلة هي التي تسير دفة المركب .

إن التجار والربابنة والبحارة والمسافرين ما ان يرون الغيوم تتراكم ، والريح الغضوب تلاطم الأمواج ، حتى يندفعوا الى إدخال قاربهم الى الشاطىء . وإذا فوجئوا وهم في عرض البحر بغضب العاصفة والأمواج يستعملون كل الوسائل ، ويستجمعون كل قواهم لعلهم يفوزون بشاطىء أوجزيرة ، أو بكتلة من الصخور يلتجئون إليها .

وأما أنتِ ، ففي ثورة الرياح ، وغضبة الأمواج ، واشتداد العاصفة التي تقلب البحر من سطحه الى أعماقه ، وحين يغوص الغرقى في المياه ، وتطفو بقية الجثث فوق سطح اليم ، وحين تكون الأجساد العارية من كل لباس فوق الأخشاب ، تطلب النجاة ، ففي مثل هذا الوقت تتقدمين بفرح وارتياح في بعد البحر معتبرة كل الآلام التي تصيبك وهماً ، وتواصلين السفر في وسط العاصفة بطمأنينة . وهكذا فإن فنك يفوق فن كل الربابنة ، ويسمح لك باقتحام كل العواصف . وإن ما يجعلك غير منغلبة إنما هي قوة نفسك ، تلك القوة التي تفوق كل الأسلحة . فهي أقوى من السيف والرمح والترس والدرع ، وأمنع من الأبراج والحصون . ذلك أن الأسلحة والأبراج والحصون لا تفيد إلا في حماية أجساد الجنود ، وليس دائماً وفي كل المناسبات ، بل هناك مناسبات تكون فيها كل هذه الوسائل غير نافعة في الحماية . أما أسلحتك أنت فليست تفيد فقط في دفع سهام الأعداء ، وتحطيم آلاتهم الحربية ، ورد هجماتهم وكيدهم ، بل تفيد في السيطرة على مقتضيات الطبيعة ذاتها ، وفي قلب سيطرتهم ، وسحق قوتهم .

ففي معاركك الدائمة مع الشياطين قد أحرزتِ النصر ألف مرة ومرة من غير أن تقع عليك ضربة واحدة . وقد لبثت منتصبة أمام وابل سهامهم دون أن تصابي بجرح واحد . والسهام التي كانوا يرشقونك بها كنت تردينها إليهم . فيا لعظم مهارتك في القتال ! لقد أرادوا بك إرهاقاً بضرباتهم وإذا بك أنت التي

تصرعينهم . ينصبون لك الفخاخ ، فإذا بك أنت توقعينهم في فخاخهم التي نصبوها . إن خبثهم وكيدهم لم يفيدا إلا في تدعيم نصرك وفخرك . وإنك لتعرفين هذا كل المعرفة وقد خبرته . وهو ما يجعلك تُسمّين الآلام وهماً .

وكيف لا يكون كل هذا في عينيك وهماً حين أراك في هذا الجسد المائت ، تبدين مثل هذا الاحتقار للموت ، حتى ليخيل الى من يراك أنك تسرعين في ترك هذه الأرض الغريبة لتعودي الى بلدك ، حين أراك وأنت ترزحين تحت الأمراض الصعبة ، وأقسى الآلام ، أوفر فرحاً من الذين هم في أتم الصحة والعافية والنشاط ؟ كيف لا وأنت لا تزعجك الإهانات ، ولا تنفخك الأمجاد والمفاخر كبراً وتيهاً ؟ آه من المجد وحب المجد ! إنه سبب مصائب لا تحصى وحجر عثرة لكثير من الناس ! فكم من كهنة ، على الرغم من بهاء مجد كهنوتهم المقدس ، وعلى الرغم من بلوغهم أقصى حد للشيخوخة ، قد وجدوا عثرتهم في المجد والكبرياء وصاروا أحدوثة في أفواه المتحدثين !

وحين كان رجال الكنيسة ، حين كان أساطينها يتساقطون ، كنا نرى امرأة في جسد كأنه نسج العنكبوت ، تلبث منتصبة في وسط المهالك ، لا لتترأس رد الهجوم فقط ، بل لتحول دون سقوط العدو الكبير من المخاصمين . ولا غرابة ! ففي معترك الفضائل لا يتوقف النصر على السن أو القوة ، بل على النفس والارادة .

وهكذا نرى نساءً قد حملن الأكاليل حين سقط الرجال صرعى فوق التراب ! وهكذا نرى فتياناً يجللهم مجد نصرهم ، وشيوخاً يغطيهم الخزي والخجل ! ولهذا ، وبدون شك يجب أن نهنىء ونحيي الذين يمارسون الفضيلة ولكن الذين يستحقون الاعجاب أكثر هم أولئك الذين يبقون أمناء لها عندما يتخلى عنها الكثيرون .

ولهذا السبب لا تأخذين حقك كاملاً في تقدير بأسك ورباطة جأشك . وفي حين نرى الكثيرين من أحداث وشيوخ ونساء من ذوي الاعتبار وممن كنا نظن فيهم كل المروءة والنشاط قد ولوا على أعقابهم خازين ، وانكبوا على الأرض أمام مرآك

قبل أن يباشروا صدام العدو ، ويحسّوا بنار المعركة ، نراك أنت قد إجتزتِ كل المخاطر وخضت كل المعارك بدون خوف . والأحداث الجسام ، إذ كانت أبعد من أن تَفُتّ في عزيمتك ، قد قوّت نفسك ، وضاعفت جهادك !

إن انتصاراتك السابقة هي اليوم منبع للفرح والسعادة ، وذكراها يزيد نشاطك استعداداً للمعارك المقبلة . هذا ما يملأني أنا أيضاً من الفرح والسعادة والابتهاج . ويلذ لي أن أردده دائماً ، وأعلنه على رؤوس الأشهاد. وإذا ثقل عليك بُعدي عنك فإن ما يخفف من ثقله هو ارتياحك الى أنك أتممت كل واجبك وهو تأكدك أن فضيلتك هي عزائي في منفاي البعيد .



الرسالة الرابعة عشر

كيكيز ،٤٠٥

ماذا تقولين ؟ كيف تدّعين أنك لم تغنمي الفخر ، ولم تحرزي نصراً باهراً ؟ وكيف لك أن تنكري أنك ضفرت فوق جبينك إكليلاً من الزهر لا يعرف الذبول ؟ كيف لك أن تدّعي العكس وقد طار صيتك في كل مكان ، وأهل الأرض يتغنون بفضائلك في كل مجلس وناد ؟ لأنك ، وإن كنت تناضلين في بقعة من الأرض معلومة ، وإن كان صراعك واحداً لا يتغير ، وإن كنت أيضاً سكبت في هذه البقعة عينها أعراقك ، بل دمك ، فإن نصرك وشهرة مآثرك ومآتيك قد تجاوزت منذ زمن طويل هذه الحدود الضيقة ، وانتشرت في العالم أجمع .

إلا إذ أنتِ أردتِ أن تزيدي إلى مآثرك مأثرة جديدة، والى نصرك نصراً وإلى زينتك زينة التواضع فرحت تدعين أن بين أعمالك وبين النصر فرقاً كالفرق الذي بين الميت والحي .

فأنا أريد أن أظهر هذا التواضع من حياتك عينها، وأنك عشت هذا التواضع حقيقة وواقعاً ، وان يكنْ فيك شيمةً وفطرةً . فلقد طُردتِ من بيتك

ومن بلدك ، وفُصلت عن أصدقائك وأقربائك ، وأُرسلت الى المنفى . وما انقضى عليك يوم إلا تحملت فيه الموت . وما عجزَتْ عنه الطبيعةُ أتمته إرادتُك: وما هو غير ممكن للبشر : أن يمُات المرء حقيقةً عدة مرات ، حققته فضيلتُك. والأعجب من كل هذا أنك في وسط الآلام، وكأنك في انتظار مصائب جديدة ، ما فترت لحظة عن مباركة الله ، وإنزال الضربة القاضية بإبليس . وقد أظهر إبليس فعلاً أنه مُوجَع بضرباتك القاتلة ، وذلك باستئنافه القتال بأسلحة جديدة ، وبقيامه عليك بأشد الحملات هولاً .

وكما أن العقرب أو الأفعى إذا أحست بالضربة الأكثر إيلاماً ، ارتدّتْ على ضاربها وهي أمضى عزماً ، وشالت زباناها لتضرب بها كل ما يمسها ، وتشهدنا بشدة هياجها على جرحها الرغيب ، كذلك هذا الوحش الشرير الذي هو الشيطان بعد أن أصابه منك جرح موجع وثب عليك لينتقم ثانية ، وحمل عليك باضطهادات جديدة . لأنه هو ، ليس الله ، الذي خلق هذه الاضطهادات . ولكن الله إنما سمح بها ليزيد في ثوابك ، ويزيد كنوزك ، ويضاعف مكافآتك ، ويجمّل زينتك . ففيم تتعذبين ؟ ولِمَ تضطربين ؟ وكيف البكاء مع الغنى والمقتنيات ، والخجل مع الشرف والأمجاد ؟ فإذا كان الناس المتمسكون بهذه الأموال الأرضية الفانية التي تجوز كالظل ، وتذوي كزهر الحقل ، يفرحون ويبتهجون بسعادة تختفي بسرعة مثلما ظهرت ، فما أحراكِ أنت ، على الرغم من آلامكِ الماضية ، بأن تُسَرّي في هذا الوقت الحاضر وتنعمي بسعادتك . لأن الكنوز التي جمعتها ليس عليها خوف من اللصوص . والمجد الذي استحققته بآلامك لا خوف عليه من الزمن وتغير الأحوال ولا من صدوف الدهر ولا من اضطهادات الناس ، ولا من هجمات الشيطان ، ولا من الموت نفسه . وإذا أردت أن تبكي فإنما يجب أن تبكي على مضطهديك ، على خالقي هذه الويلات ، على هؤلاء الخدام الأردياء الذين يجمعون على رؤوسهم أفظع العقوبات لليوم الأخير والذين ، منذ الآن ، ينالون جزاءهم بما يحسونه من جفوة الناس لهم ، وازورارهم عنهم ، ونظرهم إليهم كإلى أعداء ، ومن ذمهم ولعنهم في كل مجلس وناد .

وإذا كانوا لا يحسون بكراهية الناس العامة لهم ، فمن أجل هذا على الأخص يجب أن تبكي عليهم بكاءَك على الحمقى والمجانين الذين يلطمون بدون

سبب كل من يلتقون بهم، ويرفسونهم بأرجلهم ، وكثيراً ما يلحق أذاهم بأصدقائهم والمحسنين إليهم وهم لا يشعرون بالجنون الذي يسيطر عليهم. مرضى بأمراض عضالة ينكرون الطب والأطباء ويقابلون بالحماقة والشتائم الذين يريدون لهم الشفاء والإحسان . وكم يستوجبون الإشفاق عليهم لأنهم لا يعرفون حالتهم !

ولكن لنعرف شيئاً واحداً هو أنهم وإن أصموا آذانهم عن الضجة العامة القائمة حولهم ، فإنهم لا يستطيعون أن يفلتوا من تقريعات ضمائرهم الخاصة . الضمير هذا الحكم الذي لا يُجتنَب ، ولا يرتشي ، ولا يؤخذ بالخوف والتملق ، ولا يغويه ذهب ، ولا يخمد صوته الزمان .

إن يهوذا بن يعقوب استطاع أن يخدع أباه حين أخبره أن وحشاً افترس يوسف باختلاقه هذا العذر الذي تستر به عن قتل أخيه، ولكنه ما استطاع أن يخدع ضميره أو يسكته. بل بقي ضميره يبكته، ويناصبهُ العداء من غير أن يستطيع مطلقاً أن يسكته .

وبعد أن طوى الزمن المديد صفحة تلك الجريمة وبعد أن أخفاها مرتكبُها عن أبيه ، ولم يبح بها لأحد ، وحين كان آمناً على نفسه من كل الناس ، وما من أحد يطارده ويذكره بما مضى فإذا به بعد كل هذا الزمن يكشف بأنه ما فتىء يسمع توبيخ ضميره وأنه لم يقدر أبداً على خنق صوته الصارخ في داخله . « نعم - قال للمصريين - قد اقترفنا جريمة بحق أخينا ولم نشفق عليه من أجل نحيبه ودموعه ، وها نحن الآن نطالَب بدمه » (تك ٢٨ : ٢١) .

فمع أنهم لم يتهموه بقتل أخيه ، بل كانوا يتهمونه بالسرقة ، ولكن بما أن ضميره مرتاح من هذا القبيل ، بادر إلى الاعتراف بتلك الجريمة السابقة من غير أن يطالبه بها أحد ، أو يوبخه عليها أحد أو يتهمه بها أحد ، ولكن ضميره كان يعذبه من أجلها دائماً . لقد ثاب الى صوت ضميره بكل إحساس . وحين لم يجد قبلاً صعوبة ولا خوفاً في سفك دم أخيه ، أذا به في تلك الساعة ، يحن إليه ويلوم الذين اشتركوا معه في الجرم وراح يصف بعبارات عاطفية قسوتهم جميعاً كأنه يقول : « حين كان يتوسل إلينا ، ولم نشفق عليه من أجل نحيبه ودموعه ، قد

كان صوت الطبيعة كافياً ليلين قلوبنا ، ويعدل بنا إلى الإشفاق ، على حين تحجرتْ منا القلوب فيما لمستها الدموع والتوسلات . ولأجل هذا قد أُلقينا في السجن ، ومن أجل هذا سندفع من دمنا ثمن الجريمة التي ارتكبناها بحق أخينا ».

وهكذا القول في الرسول يهوذا الذي إذ لم يحتمل تقريعات ضميره ، ربط الحبل في رقبته وهلك شنقاً . وحين كان يساوم على صفقته المخزية ويقول لليهود « ماذا تعطوني وأنا أسلمه إليكم » ، لم ير التلميذ فظاعة تلك المؤامرة التي كان يحيكها ضد معلمه . وفي الأيام التي سبقت إجرامه ، لم يشعر بوخز ضميره وإذ كان نشوان بلذة قبض المال ، لم يعر صوت ضميره أذناً صاغية . ولكن لما أكتملت الخيانة ورأى المال بين يديه ، ولما انقضت اللذة الأولى بقي وحده ماثلاً أمام الجريمة ، وعندئذ من غير أن يرغمه أحد ، أو يدفعه أحد ، أو يطالبه أحد بجريمته ، ذهب بنفسه وطرح الفضة للكهنة الذين أعطوه إياها وقال لهم معترفاً بخطيئته :«قد أخطأت إذ أسلمت إليكم دماً زكياً » (متى ٢٧ : ٤) . ففي هذا اليوم لم يعد يحتمل مطلقاً تقريعات ضميره .

هذه هي طبيعة الخطيئة ، وهذا هو فعل الخطيئة . ما دامت لم تُرتكب يكون صاحبها في نوع من السكر . ولكن بعد ارتكابها يزول السكر ويقف الإنسان عارياً أمام الحَكَم ، وامام الجلاد ، النفس معذبة يلهبها سوط الضمير خامدة ومنسحقة تحت عبء جريمتها . هذا هو العقاب في هذه الدنيا . وأما العقاب الذي ينتظر هؤلاء الأشقياء في الحياة الثانية فأنتِ تعرفينه . ولهذا أعود فأقول إنهم هم الذين يجب أن نبكي عليهم ونرثي لحالهم .

فلا تضطربي إذن للمصائب التي وقعت عليك ولا للتي تهددك . إن الأمواج لا تغلب الصخور التي تهاجمها بل تتكسر عليها وتتبدد . وهذا ما حدث ويحدث معك دائماً ، ولكن مع الفرق بين صلابتك وصلابة الصخور . إن الأمواج لا تزعزع الصخور ، ولكن أعداءك إذ يكونون أبعد من أن يزعزعوك تزيدك هجماتهم قوةً وصلابةً ذلك هو الفرق بين الشر والفضيلة . إن الشر يهاجم وينسحق ، أما الفضيلة فتتلقى الضربة وتزداد قوة وجمالاً . والفضيلة أيضاً لا تأخذ مكافأتها بعد المعركة ، بل تجدها في المعركة نفسها ،بل لنقل ان المعركة نفسها

هي مكافأة لها . أما الشر فعلى العكس لأنه حين ينتصر ، ففي إبان انتصاره يبتدىء الخجل والعذاب والخسران والعقاب . والخطيئة لا تجد عقابها في الحياة الثانية فقط ، أو بعد أن ترتكب ، بل في العمل نفسه (في فعل الخطيئة) . وهيا بنا الى القديس بولس الرسول لنلتمس منه نوراً لإقرار هذه الحقيقة في أذهاننا ،ففي رسالته إلى الرومانيين حيث يشير إلى رذائل متفشية ليست بحسب الطبيعة وحيث التهب الرجال والنساء بعشق بعضهم بعضاً مُفرطين في الفسق والفجور ، يبين للفجار كيف أنهم قبل العقاب الأخير ، قد وجدوا عقابهم في أعمالهم نفسها .

ماذا تقول إذن يا بولس ؟ ألم يتذوق لذة أولئك الذين لم يخافوا من أن يرتكبوا مثل هذه الأعمال ؟ ألم يجدوا إرضاء لشهواتهم في هذا الجماع المخالف لكل قوانين الطبيعة ؟ وإلا فكيف تقول أنت انهم لاقوا عقابهم ؟ وكأني به يجيب قائلاً : « أنا أريد أن أقول إن هؤلاء الأشقياء قد وجدوا قصاصهم لا في لذتهم بل في طبيعة أعمالهم المشينة المنحطة » .

إن الزاني مهما يكن أمر اللذة التي يبدو له أنه حاز عليها ، يلاقي قبل القصاص الأخير ، عقابه في فعل الزنا نفسه ، الفعل الذي شوه نفسه وحقرها والقاتل كذلك ، قبل أن يرى المحكمة والسيف مصلتا فوق رأسه ، يكون قد وجد هو أيضاً حتفه في عمل القتل الذي أفسد فيه رجولته .

إن الخطيئة للنفس هي مثل المرض للجسم كائناً ما كان نوع هذا المرض ؟ وهي كالصدأ للحديد ، والعث للصوف والسوس للخشب . فإنها تفسد الرجل ، وتحط من قدره ، وتنزع كرامته ، وتقلبه من رجل حر الى عبد . وماذا أقول ؟ بل أنها تنزل الرجل في منزلة الحيوانات فتجعل من أصحابها ذئاباً وكلاباً وأفاعي . وقد تبارى الأنبياء في وصف ذلك ، فقال أشعياء : « كلاب خرس لا تستطيع النباح » ،رجال كليلو الأبصار يضربون من القفا مثل هذه الكلاب الكلبة التي لا تنبح أبداً ، بل تتبعك وترتمي عليك من غير تنبيه . فهي ذات خطر يختلف عن خطر الكلاب النابحة . وقال أرمياء : « غربان خاطفة » . وقال صاحب المزامير « بهائم لا عقل لها » . « حيات أولاد الأفاعي » قال عنهم آخر الأنبياء ابن العجيبة يوحنا المعمدان كاروز الأردن .

أليس أشد العقاب للكائن الحي المخلوق على صورة الله والمرفوع الى مثل هذه الكرامة ، والمزين بالقلب والعقل ، أن يرى نفسه في رتبة الوحوش ؟

أرأيت أن الخطيئة تجد في ذاتها عقابها حتى قبل أن تعاقب ؟

وسترين الآن كيف أن الفضيلة تجد المكافأة في ذاتها ، وقبل أن تُعيَّن لها المكافأة .

ولكي نفهم جيداً فلنأخذ المثل من الجسد . إن من يكون في صحة جيدة ، وخالياً من كل مرض ، لا يشعر بالحاجة إلى تذوق اللذة من الخارج لأنه يجد قبلاً سروره في سلامة صحته التي تسهل عليه أن يمارس الفقر ، ولا يتأثر بتغير الطقس ولا يخشى البرد والحر ، ولا يحسب حساباً لبساطة المأكل والتقشف . وهكذا الحال في النفس . نرى القديس بولس ينعم في الفرح وهو يصفع ويُجلد ويُضطهد ويُطرد: «إنني أفرح بالآلام من أجلكم» (كولوسي ١ : ٢٤). فليست مكافأة الفضيلة في الملكوت السماوي فقط ، بل هي قبل ذلك وفي الآلام نفسها ، لأن أكبر مكافأة نحصل عليها هي أن نلقى الألم في سبيل الفضيلة . ولهذا أيضاً نرى أن الرسل كانوا يخرجون فرحين من مجامع اليهود لا لكونهم أيقنوا أنهم يربحون المكافآت في السماء ، بل لكونهم تألموا من أجل اسم المسيح . (أعمال ٥ : ٤١) وقد كان لهم في الآلام أعظم الفخر وأكبر الحظ .

فافرحي إذن وابتهجي لأنك أوتيتِ خيراً عظيماً من تحملكِ ذلك الافتراء الذي افتري به عليك ، وهو من أشنع أنواع الافتراء الرامي إلى إظهارك أمام الأعين مشعلة نار الفتنة .

إن سليمان الحكيم لكي يظهر قوة الاتهام على المتهم كان يقول : « لقد رأيت التهم التي تحت الشمس ، وشهدت دموع ضحاياها وما من أحد يستطيع أن يحمل إليها التعزية » (أمثال ٤ : ١٠). فمن الطبيعي أن تكون مكافأتها عظيمة جداً .

ولأجل هذا أيضاً ، فإن الرب يسوع يوصي بالفرح والابتهاج أولئك الذين

يعرفون ان يتحملوا بصبر هذه التجربة : « طوبى لكم إذا اضطهدوكم وعيّروكم وقالوا عنكم كل كلمة سوء من أجلي كاذبين . إفرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم في السموات » (متى ٥ : ١١ - ١٢) .

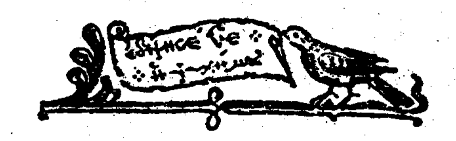
وها إنك تقدرين السعادة والجوائز والفرح الذي ينيلك إياه أعداؤك ! أوليس بعد هذا ، من غير المعقول أن تجابي الألم بنفسك على نفسك من أذى لم يستطع أعداؤك أن يلحقوه بك ، ولم يكن إلا نعمة من نعم الله عليك ؟ كيف لا ؟ إن أعداءك إذ لم ينجحوا أن يلحقوا بك السوء ويزعزعوك ، وفروا لك سبباً جديداً للفرح والابتهاج ، وأنت تعاقبين نفسك حين تستسلمين للحزن وتضطربين وتتعذبين !

إن أعداءك هم الذين يجب عليهم أن يبكوا وينتحبوا ويغرقوا في الآلام ، ويغطوا وجوههم خجلاً ، ويختفوا تحت الأرض ولا يجسروا على رؤية الشمس ، ويحتجبوا بالظلام لكي ينوحوا على الشر الذي فعلوه لأنفسهم ولكثير من الكنائس . أما أنتِ فيجب أن تقري عيناً ، وترتقصي طرباً ، لكونك بلغت بالتجربة والمصيبة ذروة الفضيلة .

هذا لأنك تعرفين جيداً ، ولست بحاجة إلى أن أفهمك،أن الصبر في المحنة هو أعلى درجات الكمال . الصبر هو مَلِكُ الفضائل ، وأساس كل انتصار ، ومرفأ تقف عنده الأمواج . وهو السلام في الحرب ، والهدوء في وسط العواصف ، والطمأنينة في الفوضى . ومن امتلك الصبر لا يُقهر . وما من شيء يزعزعه ، لا قعقعة الأسلحة ، ولا زحف الجنود ، ولا اقتراب آلات الحرب ، ولا تطاير السهام ،ولا الحراب، ولا سلاح الشيطان نفسه مع كل جنوده وكتائبه . فممَ إذن تهابين ؟ ولِمَ تحزنين ولديك مثل هذه التأملات الطويلة التي تعلمك أن تحتقري الموت ؟

أوَ ترغبين أن تري نهاية كل متاعبك ؟ فسترينها ، وسترينها قريباً بعون الله .

فافرحي إذن وابتهجي بكل انتصاراتـك ، وثقـي بأننـا سنلتقـي قريبـاً . وسأذكرك بكل ما قلته لك .



الرسالة الخامسة عشرة

كيكيز ، ٤٠٦

لقد ازدادت تجاربك . وقد وُسّعت لك ساحةُ الصراع مرة ثانية ، وأطيل مضمار السبق ، واشتعل من جديد غضب أعدائـك ، فألقـوا في الأتـون وقـوداً جديداً . فلا تضطربي ولا تتعذبي لأن لك في هذا سبباً جديداً للفرح والابتهاج ولأن تتكللي بزهر لا يذبل وترقصي فرحاً . لأنك لو لم تكوني قد أنزلت بالشيطان ، في المعارك السابقة ، ضربات قاسية لما ثارت ثائرته وحمل عليك حملات جديدة . فإذا ما رأيته يعاود الكرة ، وهو أعنف هجوماً ، وأوسع جنوناً ينفث السم بغزارة ، فثقي أن في هذا دليلاً على بلائك في نصرك ، ودليلاً على انخذاله وانسحاقه . ومثل هذا ما حدث لأيوب . فإن الشيطان الذي أزعجه صبر أيوب على فقد المقتنيات وفقد الأولاد ، عاد يثأر لنفسه من الجراح البليغة التي تلقاها من الرجل القديس فرماه بآخر سهم من جَعبته وصب عليه آخر البلايا إذ هاجم جسده ، وأحدث فيه قرحاً خبيثة انتشرت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، وصار جسده مجمعاً للدود ومأكلاً ، وهو بالحقيقة قد صار منبعاً للأكاليل والجوائز .

ولكنه لم يقف عند هذا الحد : فبعد أن استنفد كل الوسائل في أذى الجسد ، راح يلتمس وسائل أخرى ، فسلح امرأته ضده ، وأهاج عليه أصدقاءه فرموه بقوارصهم ، وأثار عليه سخرية خدامه فجعل منهم حيوانات مفترسة . وإذ لم ينل منه بإيذاء الجسد ، حاول أن يزهق نفسه بأبلغ الجراح . وهذا ما فعله أيضاً معك . ولكن كل ضرباته ترتد على رأسه لأن كل يوم ينقضي يعمل على زيادة بهاء فخرك وزيادة غناك ومضاعفة جوائـزك ، ويُتبع الأكاليل بأكاليل جديدة .

والتجارب الجديدة تضيف إلى قوتك قوة . واضطهادات أعدائك الجديدة لا تعمل إلاّ على تمرينك وإعدادك إلى معارك جديدة .

تلك هي التجربة ترفع الذين يعرفون أن يتحملوها بغير تذمر فوق الآلام ، وفوق سهام إبليس ، وتعلمهم كيف يحتقرون الاضطهادات .

إن الأشجار التي تعيش دائماً في الظلال ، تكون ضعيفة وغير منتجة للثمار الجيدة في حين أن التي تعيش في الشمس والتي تنمو في الهواء الطلق ، وتعتاد على تغيرات الطقس ، تكون أطيب أصلاً ، وأوفر ثمراً، وأشهى مذاقاً . والشيء نفسه يحدث للذين يسافرون في البحر . فحين يصعدون الى المركب لأول مرة ، ولو كانوا أجرأ الناس فؤاداً ، ولكنهم لا يكونون قد عرفوا كيف يتماسكون فوق سطح اليَمّ يضطربون ويرتجفون وتزيغ أبصارهم . ولكنهم ، على العكس ، حين يكونون قد خاضوا البحار ، وتمرسوا بالعواصف والصخور وزَبد الأمواج ، ولاقوا هجمات الكلاب البحرية ، ومراكب القراصنة ومخاتلَهم ، هؤلاء يحسون بالطمأنينة ،وهم فوق مراكبهم ، كما لو كانوا يمشون على الأرض ، ولا ينحبسون في داخل المركب ، بل يجلسون على جوانبه ، ويقفون بدون خوف على مقدمته أو مؤخرته ، ويتسابقون إلى جر الحبال ونشر الأشرعة والتجذيف والركض على الجسور بأوفر السهولة وأكثر الارتياح .

إن أعداءنا من غير أن يتعمَّدوا ، قد علمونا كيف نتغلب على الآلام . فلقد استنفذوا سهامهم ، وأفرغوا جَعباتِهم ، ولم يحصلوا إلا على الخزي والمهانة والظهور في عيون سكان الأرض أنهم أعداء الجنس البشري . هذه هي مكافأة المضطهدين ، وهذه هي نتيجة الاضطهاد ! فيا لسمو الفضيلة ! وكم هو جميل احتقار الأشياء العالمية ! إن الاضطهادات تغنينا ، ومضطهدينا يقدمون لنا الأكاليل . وإن الآلام إذ تطهر نفوسنا ، تعطيها مجداً جديداً ، والهجمات تزيد قوانا وتجعلنا ذوي مناعة لا تغلب من غير أن تحتاج إلى أسلحةأو رماح ولا حصون ولا خنادق ولا قلاع ولا أموال ولا جيوش . والإرادة الصلبة ، والنفس القوية تكفيان للتغلب على مؤامرات البشر وكيدهم .

ألا ردّدي هذا لنفسك أيتها السيدة الجزيلة التقوى . ورددیه أيضاً لكل

النساء اللائي يناضلن معك . شجعيهن وقوي عتادهن الضئيل ، وزيدي انتصاراتك لا بالتغلب على تجاربك أنت بل باقتياد الآخرين إلى التغلب على تجاربهم. وعلمي الكل الاحتمال بغير تذمر ، وازدراء الأوهام العابرة واحتقار الأحلام الخداعة ودوس التراب ، وعدم التوقف في وجه ضباب يتلاشى ، وعدم التعربس ببيوت العنكبوت ، وعدم التعلق بزهرة تذوي وتذبل .

وكل هذا يعطيك صورة ضعيفة جداً لباطل السعادة الدنيوية . لأنه لا يمكن أن نلتمس لها صورة كاملة. وتشبيه هذه الأباطيل بالعدم هو أيضاً غير كاف . لأنه يجب أن نعتبر أنها تجلب الشر للذين يتعلقون بها لا في الحياة الأخرى وحسب ، بل في الحياة الحاضرة ، وفي الوقت الذي يظنون فيه أنفسهم ينعمون بسعادتهم .
كما أن الفضيلة في الوقت الذي فيه تُهاجَم تُنشَّر ويزداد بهاؤها ولمعانها ، هكذا فإن الشر حين يكون وقت سيادته يظهر ضعفه واستكراهه وخداعه .

ألا قولي لي أية حالة تستوجب النحيب والإشفاق مثل حالة قايين في الوقت الذي ظهر له فيه أنه صرع أخاه وغلبه ونقع غلة حسده وانتقامه ! وهل أبشع من تلك اليد الدموية التي يظن أنها أحرزت النصر ، في حين أنها تنجست بإثم القاتل ؟ وهل أنكرَ على السمع من ذلك الصوت الذي دبر الكذب والتعدي ؟ من يجسر أن ينظر إلى تلك الذراع التي امتدت لتضرب الأخ وتقتله ؟ وكأني أرى كل جسده قد لقي عقابه ، لأني أراه يرتجف بعد أن غدا فريسة للاضطراب والارتعاد الدائمين ؟

يا له مشهداً غريباً ! يا له نصراً عجيباً! يا لها غلبة جديدة من نوعها! تلك هي الضحية الممتدة على الأرض ، وذلك هو الميت الذي غلب وتكلل بالنصر على حين أن الذي صرع الضحية ، فضلاً عن خسرانه كل مكافأة ، قد لقي عقابه في فعلته ذاتها ، ووقعت عليه أراجيف تتوالى بلا انقطاع ، وأُسلم لعذابات داخلية لا يخمد أوارها . وذلك الذي صُرع منذ لحظة ينهض الآن لصارعه ، وذلك هو الميت الذي ينبري للحي ، والصامت يتكلم! وماذا أقول؟ فليس الميت هو الذي يتكلم ، بل الدم الزكي المسفوح هو الذي يصرخ ويستصرخ ضد القاتل .

وهذه هي قوة الفضيلة حتى في الموت . وهذا هو نصيب الأشقياء حتى في الحياة قبل الموت . وإذا كان هذا هو الأجر في ساحة المعركة نفسها ، فتصوري كيف تكون بعد كل معارك هذه الحياة المكافأة السماوية في اليوم العظيم يوم توزيع الخيرات الأبدية التي تفوق كل تصور . إن المتاعب والآلام مهما يكن نوعها ، تأتي من الإنسان ، ويبقى لها طابع ضعفها الأصلي من حيث مصدرها . والنعم والجوائز تأتي من الله ، وتعلن عن المقدرة التي لا تقاس لعظمة خالقها .

فافرحي إذن وانعمي بالسعادة وسيري إلى آخرتك تياهة مرفوعة الجبين واطئة تحت نعليك نبال أعدائك ، وتقدمي فوق أسنة عداوتهم بأسهل مما يداس الوحل تحت القدمين . واصليني بالأخبار عن صحتك كيما تكون لي في ذلك تعزية . وأنت تعلمين كم من الفرح أحصل عليه في منفاي من أخبارك السارة . كوني معافاة .

الرسالة السادسة عشرة

أرابسوس في أرمينية ، ٤٠٧

كيف خطر لك ، بل كيف تصورت أنك ستقضين حياة بدون صراع وبدون ألم ؟ أنىّ يكون لك هذا وأنت التي أظهرت منذ حداثتك مثل هذا الانعتاق من محبة العالم ومثل هذا الاحتقار للأفراح الدنيوية . كيف يمكن هذا الأمر ؟

حين ينازل الرجال بعضهم بعضاً في ميادين الرياضة الجسدية ، أو في ميادين الحرب ، فلا يمكن أن يسلم المصارع من الضربات وآلاف الضربات . وأنت ، وقد نزلت إلى الميدان ضد قوات عالم المظلمة والأرواح الشريرة ، وقد هاجمت ببسالة وأحرزت كثيراً من الانتصارات ، وأثرت غضب الشيطان . كيف ، وقد فعلت كل هذا ، تأملين أن تعيشي حياة هادئة مطمئنة ؟

لا يجب أن تضطربي وتستغربي إذا رأيت من حواليك الحروب والقلاقل والدمار . بل العكس يجب أن تستغربي ألا يحدث مثل هذا . فشريك الفضيلة إنما هو الشقاء والمخاطر الدائمة .

وإنك لتعلمين هذا جيداً وما من حاجة إلى أن أقوله لك . ولست بحاجة إلى من يفهمك إياه كما اني لست أكتب لأفهمك إياه . واني لمتأكد أنه لا النفي ولا خسارة الأموال ، ولا الإهانات ، ولا أي اضطهاد من هذا النوع يستطيع أن يعكر صفاء نفسك. وإذا كنا نعتبر الذين يشاركون الغير في الآمهم مغبطين ، فكم تكون غبطة أولئك الذين يتألمون ويتحملون آلامهم ؟.

ومن أجل هذين السببين يعلن القديس بولس سعادة اليهود الذين آمنوا قائلاً : « ولكن تذكروا الأيام السالفة التي فيها بعدما أنرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة ، مشهورين من جهة بتعييرات وضيقات ،وصائرين من جهة آخرى شركاء الذين تألموا » (عب ١٠ : ٣٢ - ٣٣) .

ولست أنشيء لك رسالة مطولة حول هذا الموضوع . والذي يحرز الانتصار ويغنم غنيمة عظيمة ، يجب أن يقدم له المديح ، لا المساعدة لأنه ليس بحاجة الى المساعدة . وإذ اني عارف ثباتك في تجاربك ، دعيني أعلن . عادتك ودعيني أهنئك على صبرك في الحاضر وعلى الكنوز التي إذخرتها للمستقبل .

لا شك أنك ترغبين أن تأتيك أخباري . (والصحيح أنه قد مضى وقت طويل لم أكتب لك) . لقد تخلصت من مرضي الفظيع ولكني أعاني بقاياه . ولدي هنا أفضل الأطباء . ولكن فقدان الأشياء الضرورية يحول دون الاستفادة من عنايتهم بي . ولسنا فقط بحاجة الى الدواء وكل ما يقوي المريض ، ولكن يتفشى في البلاد مع الجوع الطاعون .

ولكن ما يخفظ علينا بلاءنا إنما هو في هجمات اللصوص الجريئة الدائمة . يقتحمون حتى البيوت ، ويجتازون الأزقة ويقطعون المواصلات ، ويقلقون المسافرين . وقد أخبرنا العزيز أندرونيكوس أنه وقع بين أيديهم ، ولم ينجح في التخلص إلا بعد أن ترك لهم ثيابه . وأرجوك أيضاً ألا ترسلي أحداً إلى هنا . ولا أريد أن يتعرض أحد للموت في سبيل المجيء إليّ . وأنت تعلمين أي ألم يحدث لي من هذا القبيل .

فإذا وجدت رجلاً أميناً يكون له غير سبب الرسالة في المجيء إليّ فكلفيه أن يبلغني بالتفصيل عنك . ولكن لا يأت أحد وحده إليّ بسبب الأخطار التي قلت لك عنها .

الرسالة السابعة عشرة

أرمينية ، ٤٠٧

لا يساورنّك القلق من أجلي ، ولا ينشغلنّ بالك لقسوة الشتاء وضعف معدتي ، وغزوات الايصوريين .

إن الشتاء هو شتاء أرمينيا . ولا يجب أن أقول أكثر من هذا . وانه لا يأتيني بألم فوق طاقتي . وقد اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة لأجل شدة البرد ودفع أذاه . وها أنا أضرم النار بغير انقطاع ، وألزم غرفتي لا أخرج منها ، واتدثّر بالثياب السميكة لا أكاد أبدي حراكاً . وهذا شيء مجهد لي . ولكن ما دمتُ أرى فيه بعض الفائدة فهو محتمل . وبعد :

أرجوكِ وألح برجائي أن تعملي المستحيل لتخرجي من حالة ضعفك . إن الحزن يولد المرض. وحين يتألم الجسم ويضعف، ويُحرم من عناية الأطباء ، ومن الهواء الطلق ، ومن الأشياء الضرورية النافعة ، فإنك لا تستطيعين أن تتصوري كم تتفاقم حالة مرضه . ولأجل هذا أوصيك بأن تبادري إلى الأطباء الماهرين ، وأن تتعاطي العلاجات النافعة التي تجدينها حتى تحفظي صحتك . وقد كنت أنا أشعر خلال الأيام الأخيرة أن عندي استعداداً للتقيؤ أثر هبوط الحرارة . وتناولت الدواء الذي أرسلته إليّ سنكلتيكي الفاضلة ، وبعد ثلاثة أيام كنت معافى .

وأنا أوصيك به أيضاً أن تتعاطيه أنت . وأرجو أن ترسلي لي منه . فقد شعرت بالنكسة ، وأخذت منه فأفادني حالاً . إنه دواء يسكن الالتهاب الداخلي ، ويزيل الأخلاط ويعدل حرارة الجسم ، ويعطي قوة جديدة ، ويستعيد القابلية الى الطعام . هذا ما أكلمك به عن خبرة وهي ليس بالقليل . فاطلبي إلى الأمير الكريم تيوفيل أن يهيء لي منه من جديد ويرسله لي .

لا يحزنك أني سأقضي فصل الشتاء هنا ، فإنني أحسنُ حالاً ، وأوفر عافيةً مما كنت فيه في السنة الماضية . وإذا أنت فعلت مثلما أفعل أنا ، فإني واثق أنك ستكونين في تحسُّن كثير . ولكن إذا كان الحزن هو الذي يجعلك مريضة (كما تقولين) فكيف تطلبين إليّ أن أكتب لك ، وأنت لا تستفيدين من رسائلي ، وتلبثين غارقة في الأحزان الى حد أنك الآن لا تتمنين إلا أن تتركي هذا العالم ؟

ألا تعرفين كم من المكافآت نربح في تحمل المرض وشكر الله عليه ؟ ألم أكن قد رددته لك كثيراً ، وأسهبت في ذكره سواء في أحاديثنا السابقة قبلاً أم في رسائلي كلها ؟ ولكن لا بأس عليك . فقد يكون ارتباككِ بمشاكلك ، أو قد يكون ألمك نفسه وكل المصائب التي توالت عليكِ قد انتزعت تذكرك لما كنت أقوله لك . فسأحاول مرة ثانية أيضاً أن أعالج الجراح التي يسببها لك الحزن : « لا بأس إذا أنا ردّدت لكم الأشياء ذاتها فلا تكون إلاّ لفائدتكم » (فيل ٣ : ١). ماذا أقول إذن وماذا أكتب ؟ ما من شيء ، يا أولمبيا ، يكسبنا فخراً ومجداً إلاّ الصبر على المحن والألم . فالصبر هو ملك الفضائل بلا منازع ، وأجمل جميع الانتصارات . ولكن كما أن فضيلة الصبر تحمِلُ الفخر على سائر الفضائل ، فإن الصبر على المحنة التي نتكلم عنها هو الذي ينشر بهاء هذا الفخر .

وقد يكون في كلامي بعض الغموض ، فلأعمد الى التوضيح . والذي أريد أن أقوله لكِ هو أنه لا فقدان المقتنيات والتعري من كل الأملاك ، ولا خسارة المناصب ولا النفي ، ولا المشقات والأتعاب والسجن والقيود والشتائم والإهانات والتهكمات ، ولا فقدان الأولاد دفعةً واحدة ، ولا مهاجمات الأعداء الدائمة ولا شيء من هذه المحن كلها ، حتى ولا تلك البلية التي تفوق جميع البلايا أعني الموت في كل إخافته وهوله ، لا شيء من كل ما ذكرت من المحن أصعب احتمالاً وأشد وطأة من المرض .

وفي خبر أيوب الصديق برهان ساطع عما أقول . أيوب الذي كان المثال الكامل للصبر ، حين أحسّ المرض قد أناخ عليه أدرك عندئذ أن الموت وحده ، يضع حداً لأوجاعه .

وما من شيء استطاع أن يزعزعه إلى ذلك الوقت، لا تتابع الضربات الصاعقة التي كانت تنهال عليه ، حتى ولا تلك الضربة الأخيرة التي كان يجب أن تكون للوالدِ ضربةً مهلكة أعني موت أولاده . وكان في تريّث الشيطان بعدم ضرب أيوب بقاصمة الظهر - أي بموت أولاده - حين كان بعد نشيطاً صُلب العود ، منتهى الحكمة والخبث والدراية بفنون القتال . فإنه احتفظ له بالضربة القاتلة بعد أن أرهقه بالضربات الأولى دراكاً !

موت أولاده ! وأي موت هذا ! يا لقسوته وهوله ! لقد دهمتهم ، ذكوراً وإناثاً ، داهية واحدة وهم في زهرة العمر ! وبأصعب خاتمة تختتم بها حياة ! كان قبرهم حيث لفظوا أنفاسهم ! لم يتعزّ برؤيتهم ممددين على أسرّتهم ، وبتقبيل أيديهم ، وسماع آخر كلماتهم ، أن يلامس أرجلهم وركبهم وأن يطبق شفاههم وأعينهم في موتهم (تلك تعزية كبيرة للآباء بموت أبنائهم) . لم يبق له في البيت أحد يعزيه عن فقد أولاده بل كانت لحظة رهيبة شوهدت فيها تلك الأنقاض حيث اختلط اللحم والدم والخمر والأقداح والسقف والمائدة والتراب والأشلاء المقطعة ! سقط البيت على أولاده جميعاً فسُحقوا ودُفنوا أثناء الوليمة حيث كانت تسود المحبة الأخوية ، لا السكر والعربدة ، وحيث كان كل منهم فوق مقعده يقاسم أخوته الفرح حول تلك المائدة !

ومع ذلك فلا هذا النبأ الساحق ، ولا تلك الأنباء التي سبقته على صعوبتها وهولها (لأنه لا يجب أن ننسى أيضاً أنها ضربات قاسية إذ أنه فقد كل أنعامه ومواشيه في مثل ذلك الخبر المشؤوم الذي أخبر عن تلك الوقائع المفجعة : بعضها ذهب بالصاعقة ، وبعضها استاقه الغزاة بعد أن فتكوا بالرعاة !) . وأمام هذا السيل الجارف الذي أتى ، في لمحة الطرف ، على حقوله وقطعانه وعلى أولاده وبيته ، وأمام هذه الرياح العاتية المتتابعة ، وهذا الليل الكثيف الذي اطبق عليه ، وهذا الانقلاب الذي حل به ، أمام كل هذا ، فما من شيء نجح في زعزعته ، بل إنه لبث ثابتاً كالطود ، وكأنه لم يشعر بشيء .

ولكن حينما حلّ به المرض ، ورأى جسده مغطىً بالقروح ، فحينئذ فضل الموت ، وضاق بالحياة ، وفاض صدره بالأنّات والتنهدات والزفرات . . . ومن

هنا ندرك أن المرض هو أشد النوازل والمحن ، وأن الصبر عليه هو فضيلة من أكثر الفضائل استحقاقاً للمكافآت .

إن الشيطان كان يعرف ذلك جيداً ، وهو الذي إذ رأى أيوب ثابتاً غير متزعزع في مصائبه الأولى ، أثار عليه أعظمها خطراً وأشدها أذى في النفس وكأنه كان يقول : أن المصائب الأخرى سَواءٌ أكانت خسارة أولاده أو مقتنياته وما يشبهها كانت محتملة عند أيوب ما دامت لا تؤثر في شيء على صحته (هذا معنى عبارته « جلد بجلد ») ولكن الضربة الكفيلة بزعزعة قاعدة أيوب إنما هي ضربة المرض الذي أصاب جسده .

ولما رأى الشيطان ذاته منغلباً كما في الضربات الأولى لم يُحِرْ جواباً .وإذ لم يجد له مأخذاً على أيوب ، وبالغاً ما تبلغ به القحة والجراءة ، أدار ظهره وولى خزيانً فاشلاً . ولكن لا يذهبن بك الظن إلى أن من هنا سبباً لاشتهاء الموت ، إذا كان أيوب قد صرَّح به إبان تفاقم آلامه . ان أيوب معذور في ذلك بالنسبة إلى ذهنية العصر الذي كان يعيش فيه ، وإلى بنية النفوس العقائدية . فإن أيوب لم يكن على شيء من العلم بالناموس الموسوي ، ولا بالأنبياء فضلاً عن بعده عن عهد النعمة الجديد ، وجهله بوسائل البلوغ إلى الكمال عندنا نحن المسيحيين.

ولأجل ذلك فإنه يُطلب منا اليوم أكثر مما كان يطلب من أناس ذلك العهد . ولأجل هذا أيضاً فإن أمامنا حقلاً أوسع للتجارب التي علينا أن نجتازها . وقد قال السيد المسيح ذاته : « إذا لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات » (متى ٥ : ٢٠).

وأن نطلب الموت في العهد الجديد هو أمر غيرُ جائز. كوني واثقة من هذا وآمني بما يقول الرسول بولس: «أن أموتَ وأنضم إلى المسيح خيرٌ لي، ولكن الأفضلَ أن أعيش لأجلكم» (فيل ١ : ٢٣ ـ ٢٤).

إن المكافأة تعظم بمقدار ما تعظم المصيبة ويكون الذهب من النقاوة على قدر ما ينصهر بالنار . والمركب يجلب مرابح كثيرة بمقدار ما يبعد سفره .

وليست المصيبه التي تمرين بها الآن مصيبة صغيرة ، بل إنها أعظم من جميع

المصائب التي مررت بها حتى الآن. هذه التي نزلت الآن بجسدك، هذه المحنة هي الوحيدة التي فتحت السماء في وجه ألعازر. (وإذا كنت قد رددت لك هذا مئة مرة فلا مانع من أن أردده لكِ أيضاً). لقد جلس في أحضان إبراهيم، وساهم في نصيب ذلك البطريرك الذي جعل بيته مفتوحاً لكل المسافرين، ذلك الشيخ السائح التائه وراء كلام الرب في رحاب الأرض التي كان الله يعده بها دائماً، ذلك الأب البطل الذي لم يتردد في تضحية ولده ووريثه الوحيد وابن شيخوخته. ساهم ألعازر في حظوة إبراهيم عند الله وهو لم يفعل شيئاً مما فعل ابراهيم لا لشيء إلا لأنه احتمل بدون تذمر الفقر والمرض والإهمال.

ان الصبر على آلام الجسد هو مصدر للخيرات العظيمة حيث يجد الخطأة تطهيراً من خطاياهم، والصالحون أفضل ينبوع لرجاء السعادة المستقبلة، فهو للخطأة أفضل تكفير عن الخطايا، وهو للصالحين أجمل زينة لإكليل أجرهم.

ولأجل هذا استدعى القديس بولس الرسول على ذلك الكورنثي الشقي الذي دنّس مضجع أبيه مرضاً هائلاً ليقتاده إلى التكفير عن خطيئته. ومقصد الرسول يتبين في هذه الكلمات «كيما تخلص نفسه يوم القضاء»(١ كور ٥ : ٥).

وحين يبكت الآخرين من أجل كورنثوس، في الرسالة ذاتها، على نفاقهم (تدنيس القدسات الرهيبة) باقترابهم، على غير استحقاق، من المائدة المقدسة والأسرار الشريفة، وحين يقول لهم أنهم سيكونون مطالبين أمام جسد المسيح ودمه الطاهرين، يريد أن يهديهم من هنا إلى الوسيلة التي يغتسلون من مثل هذه الخطيئة الفظيعة فيقول لهم: «لأجل هذا أصيب كثيرون بينكم بالعاهات والأمراض» (١ كور ١١ : ١٣). ولكي يظهر لهم أنه لم يكن لهم في هذا قصاص فقط بل وسيلة للتكفير عن خطيئتهم، أضاف قائلاً: «لأنا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حُكم علينا. ولكن إذ قد حُكم علينا نؤدب من الرب لكي لا ندان مع العالم» (١ كور ١١ : ٣٢)، وكأنه يقول: إذا نحن سبقنا إلى الحكم على أنفسنا ودينونتها اجتنبنا الحكم والدينونة الخالدين. إن العقوبات التي يرسلها الله لنا الآن جعلتنا ندخل إلى أنفسنا لنتفحصها ونحاكمها ونجتنب القصاص المحتّم.

أمَّا الفوائد التي لا نظير لها ، والتي تحصل عليها النفوس الصالحة من الآلام فنجد لها مثلاً في حياة أيُّوب الذي نستطيع أن نقول انه استحق على آلامه، وآلامه وحدها ، كل ما ناله من مجد وما أحرزه من نصر . كما نجد لها مثلاً في حياة تيموثاوس ذلك الصاحب الرائع من ممتازي الصحابة الرسولية الذي صحب بولس الى الأصقاع التي بشر بها ، الذي قضى كل أيامه أخاً للمَرَض ، ولم يكن يستمتع من الأيام بالصحة إلا أويقات قليلة كان يخطفها من عمر الزمان خطفاً: «خذ قليلاً من الخمرلأجل معدتك وآلامك الدائمة» (١ تيم ٥ : ٢٣).

والرسول الذي كان بامكانه أن يقيم الموتى لم يكن يشفي تلميذه ، وكان يتركه يتنقى في بوتقة المرض ، وليغتني من الآلام بضمانات جديدة لنيل السماء .لقد كان يعلّم تلميذه ما كان سمعه وتعلمه من معلمه . واذا كان بولس لم يَصحبهُ مرضٌ مقيم ، فان مصائبه الكثيرة الدائمة لم تكن أرفق به من المرض ، ولم تكن توفر على جسده شيئاً من قسوة الآلام المَرَضية . فقد كتب يقول لأهل كورنثوس ، « لأجلِ هذا أعطيتُ شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني »(٢ كور ١٢ : ١٧) ،عانياً بذلك الضربات والقيود والسلاسل والسجن والتوقيفات والتشرد والتعاذيب التي كثيراً ما كان يتعرض لها. ولمْ يكن ليقول : « توسلت الى الله ثلاث مرات (ثلاث هنا يقصد بها مرات كثيرة) أن تفارقني شوكة الألم هذه» (٢ كور ١٢ : ٨) . لم يقل ذلك إلا لأنه يعاني كثيراً من الآلام .وما زالت حاله تلك، يتوسل الى الله ،حتى اذا رأى أنه لم يستفد من طلبه شيئاً ، واستقر في ذهنه أن في الآلام ربحاً له ، سكن واطمأن ، بل صار يفرح بالآلام .

ولا تظني انكِ تقضين حياة غير نافعة ، كونك تقبعين في بيتك ، وكأنك مسمرة فوق سريرك .لا ! ان مصابك هو أقسى وأوفر استحقاقاً من آلام أولئك الذين يقعون بين يدي الجلاّد . يجرهم ويمزق لحمانهم ويعذبهم الى أقصى حدود التعذيبات ! فان لك من مرضك جلاداً لا يتركك لحظة واحدة، وكأنه قُدِّر عليك أن تعيشي تحت رحمته بلا انقطاع.

فيجب عليك ، والحالة هذه ، ألا تتمني الموت ، وألا تهملي صحتكِ . هذا ليس هو الطريق الأمين . ولهذا ترين القديس بولس الرسول يحث تليمذه

تيموثاوس على أن يعتني بجسده وصحته .

هذا وأرى أن ما قلته بشأن صحتك يكفي الآن . وإذا كان حزنك يتولد من انفصالنا عن بعضنا ، فليكن لك الرجاء الحسن أن هذا الانفصال منتهٍ لا محالة باذن الله . ولست أقول هذا لمجرد التعزية ، بل لأنني متأكد من أن هذا لا بد أن يتحقق .

لأنه لو أريد لي الموت لكان يجب أن أموت منذ زمن في المحن والشدائد التي مررت بها .ان ما تحملته منذُ مُنصرَفي الى المنفى يكفيني ، وأنتِ يسهل عليكِ أن تفهميه هذا عدا ما تحملته في القسطنطينية . فكري في جميع آلامي في مسافة هذا الطريق الطويل المتعب . كان يجب أن يهلكني ما لقيته من مشاق السفر ، وما تحملته أثر وصولي الى هذه البلاد وكل ما تحملته بعد سفري من كيكيز وفي كل ما تحملته بعد إقامتي في أكريبسوس . وها أنا قد خرجت من كل هذا سليماً ، وأنا اليوم بمعزل عن الخطر ، وفي صحة جيدة جداً ، حتى لقد تعجب أهل أرمينية من رؤيتهم جسداً في مثل هذا الهزال والنحول شفافاً كأنه بيت العنكبوت ، يتحمل مثل هذا البرد ، ويتنفس بارتياح ، على حين أن أهل البلاد الذين تعودوه يقاسون منه الأمرّين . والى الآن لم أشْكُ سوءاً أبداً . هذا الى نجاتي مرات كثيرة من أيدي اللصوص .

وهوذا أنا أعيش عيشاً راضياً جيداً مع فقدان الأشياء الضرورية . ومع أني هنا لست أشعر بالحاجة اليها ، فان صحتي أحسنُ من ذي قبل . فلا تغيرات الطقس ولا العزلة التي أنا فيها ، ولا صعوبة الوصول الى المؤونة ، ولا عدم وجود من يخدمنا ، ولا عدم مقدرة الأطباء ، ولا عدم الاستحمام ،ولا لزومي الغرفة التي أصبحتْ سجناً لي ، ولا عدم الرياضة الجسدية مطلقاً ـ الأمر الذي كنت أحتاج اليه قبلاً ـ ولا اصطلاء النار الدائم ، ومصابرة الدخان ، ولا خوف اللصوص يحاصرنا بلا هدنة ولا هوادة ، ولا شيء من هذا وغيره استطاع أن يزعزع صحتي ، بل على العكس فاني أشعر بالصحة أكثر مما كنت في القسطنطينية بكثير على الرغم من كل أنواع العناية والتحفظ التي كنت اتخذها هناك .

ألا ردّدي هذا كلـه ، ولا تحزنـي لأجلي ، ولا تخلقـي لك همومـاً وهمية سوداء . وها أنا أرسل لك كتاباً أنشأتـه ، وجَعلتُ عنوانـه : « ان من لا يضر نفسه ، فما من شيء يستطيع أن يضره» .طالعيه بلا انقطاع ، ورردديه بصوتٍ عالٍ اذا سمحت لك قواكِ فانه علاج كافٍ لشفائك اذا أنت أردت.

أما إذا كنت لا تقتنعين ولا تريدين الشفاء ، واذا كنت ، على الرغم من كل التنشيطات والتعازي ، لا تقررين الخروج من الحزن الذي انـت غائصـة فيه ، فيجب أن تعلمي أن هذا لا يشجعني على أن أرسل لك رسائل طويلة لا تستفيدين منها أية فائدة . وكيف أعلم أنكِ تستفيدين منها ؟ لا أعلم بالفائدة اذا أنت ذكرتها ذكراً بل اذا أعطيتني البرهان على أنكِ استفدت .

ان لي أدلة على حزنك بما أنك تقولين ان مرضك ليس له غير هذا السبب . وأنا أمسك عليكِ هذا الاعتراف . ومـا دمـتِ لا تتخلصـين من مرضـك ، فلن تستطيعي اقناعي بانك قد تخلصت من حزنك .

وبما أن الحزن هو سبب ألمك ، كما تقولين انت ، فمن الطبيعي أنه إذا أزيل السبب زال المسبب عنه ، وأنه اذا اجتُثّ أصل الشجرة ماتت الأغصان . وما دمت أرى هذه الشجرة تخضر وتزهر ، وتؤتي هذه الثمار الرديئة ، فلن تستطيعي اقناعي بأنك اقتلعت جذورها .

واذن فانا اريد أفعالاً لا أقوالاً . واذا أنـت استعـدتِ صحتـك باقصائـك الحزن عنك ، بعثت اليك برسائل مطولة أكثر من الرسائل العادية .

لا شك أنك ستكونين مسرورة لعلمك أنني لا أزال على قيد الحياة ، وأنني بصحة جيدة ، وأنني على الرغم من كل المصاعب والموانع لست أشكو علـة ولا مرضاً .

واني لأعلم أن بقائي معافىً هو مجلبة لأعظم الحزن واليأس عند أعدائي . فيجب ، والحالة هذه ، أن يكون من الطبيعي والمنطقي ، أن تشعري أنتِ بأعظم التعزية وبأعظم الفرح . لا تقولي ان دائرة أصدقائك الصغيرة قد فرغت ، حين

يكون هؤلاء الأصدقاء قد كتبوا بآلامهم أسماءهم في السموات بأعظم الفخر والمجد .

تألمت الماً كثيراً بسبب بيلامبيوس المترهب . تصوري كم يكون الأجر عظيماً لأولئك الذين يبقون ثابتين غير متزعزعين حين يرون رجالاً قضوا حياتهم بالتقوى والفضيلة يسقطون مثل هذه السقطات .



تم طبع هذا الكتاب في شهر آذار ١٩٨٢ في مطبعة النور تلفون ٢٨٦٩٨٩
عين الرمانة ولحساب منشورات النور ص . ب . ١١٢٩٦٦ بيروت ـ لبنان